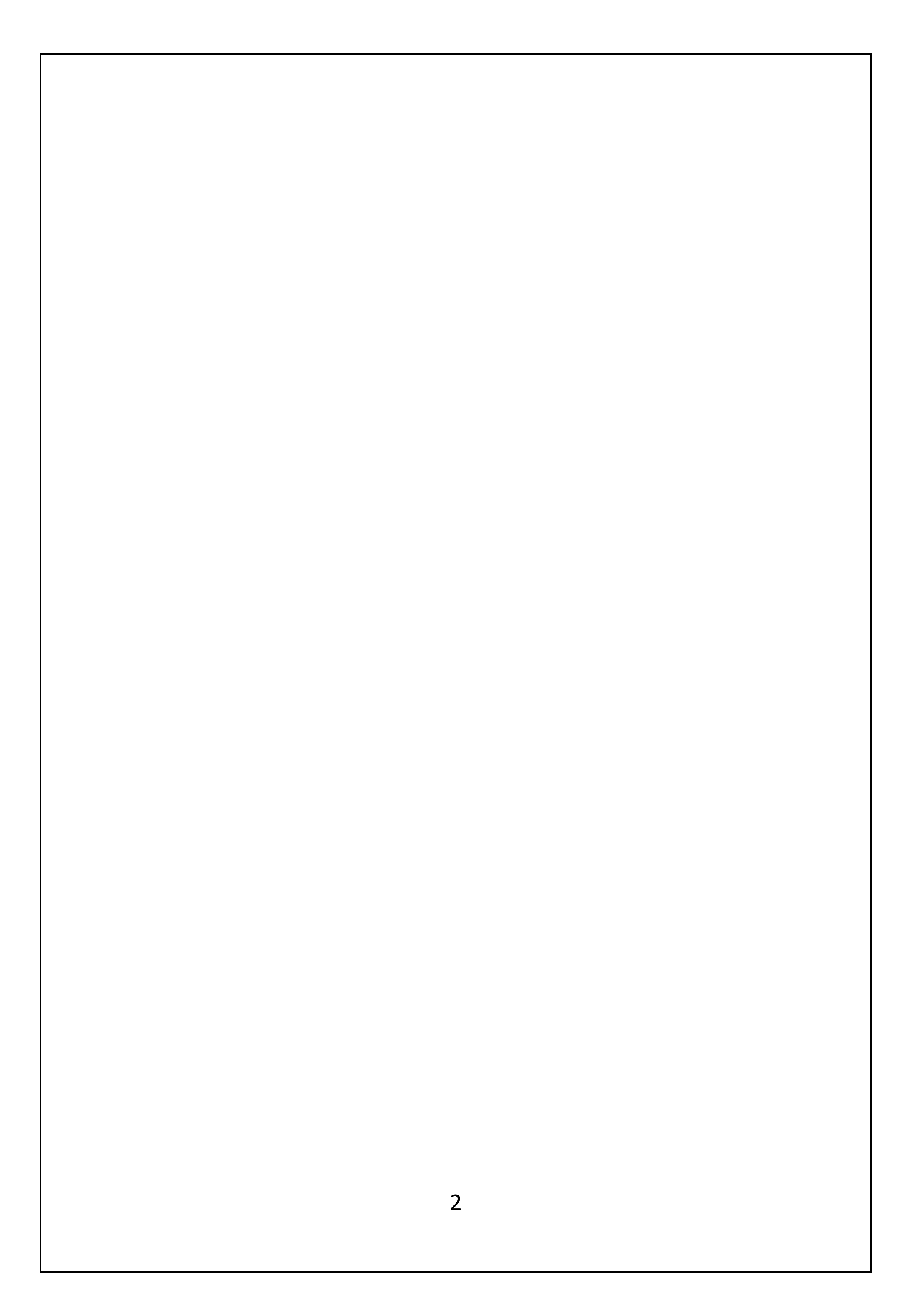
40 to 42 Surahs Ghaafir Fussilat Shooraa Tafsir Baqaaee

40، 41، و 42

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

تفسير سورة المؤمن (غافر)، حم سجده (فصلت)، و شوريٰ

الجزء السابع عشر



▲ سورة غافر

▲ تفسير الآيات رقم [1- 4]

{حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2)
غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ
(3) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ
(4)}

{حم*} أي هذه حكمة محمد صلى الله عليه وسلم التي خصه بها الرحمن الرحيم الحميد المجيد مما له من صفة الكمال.

لما كان ختام التي قبلها إثبات الكمال لله بصدقه في وعده ووعيده بإنزال كل فريق في داره التي أعدها له، ثبت أن الكتاب الذي فيه ذلك منه، وأنه تام العزة كامل العلم جامع لجميع صفات الكمال فقال : {تنزيل الكتاب } أي الجامع من الحدود والأحكام والمعارف والاكرام لكل ما يحتاج إليه بإنزاله بالتدريج على حسب المصالح والتقريب للأفهام الجامدة القاصرة، والتدريب للألباب السائرة في جو المعاني والطائرة {من الله} أي الجامع لجميع صفات الكمال. ولما كان النظر هنا من بين جميع الصفات إلى العزة والعلم أكثر، لأجل أن المقام لإثبات الصدق وعداً ووعيداً قال: {العزيز العليم *}.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما افتتح سبحانه سورة الزمر بالإخلاص وذكر سببه والحامل بإذن الله عليه وهو الكتاب، وأعقب ذلك بالتعويض بذكر من بنيت على وصفهم سورة ص وتتابعت الآي في ذلك الغرض إلى توبيخهم بما ضربه سبحانه من المثل الموضح في قوله {ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل} ووصف الشركاء بالمشاكسة إذ بذلك الغرض يتضح عدم استمرار مراد لأحدهم، وذكر قبح اعتذار لهم بقولهم {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} [الزمر: 3] ثم أعقب تعالى بالإعلام بقهره وعزته حتى لا يتخبل مخذول شذوذ أمر عن يده وقهره، فقال الله تعالى {أليس الله بكاف عبده}- إلى قوله: {أليس الله بعزيز ذي انتقام} [الزمر: 37] ثم أتبع ذلك بحال أندادهم من أنها لا تضر ولا تنفع فقال {قل أفرءيتم ما تدعون من دون الله أن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته} [الزمر: 38] ثم أتبع هذا بما يناسبه من شواهد عزته فقال {قل لله الشفاعة جميعاً} [الزمر: 44] {قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة} {أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لما يشاء ويقدر} {الله خالق كل شيء} {له مقاليد السماوات والأرض} ثم عنفهم وقرَّعهم بجهلهم فقال تعالى {أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون} ثم قال تعالى {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه} ثم اتبع تعالى- ذلك بذكر آثار العزة والقهر فذكر النفخ في الصور للصعق ثم نفخة القيام والجزاء ومصير الفريقين، فتبارك المتفرد بالعزة والقهر، فلما انطوت هذه الآي من آثار عزته وقهره

على ما أشــير إلى بعضـــه، أعقب ذلك بقوله ســبحانه وتعالى: {حمتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم} فذكر من أســمائه ســبحانه هذين الاســمين العظيمين تنبيهاً على انفراده بموجبهما وأنه العزيز الحق القاهر للخلق لعلمه تعـالى بـأوجـه الحكمـة التي خفيت عن الخلق مـا أخر الجزاء الحتم للدار الآخرة، وجعل الدنيا دار ابتلاء واختبار، مع قهره للكل في الدارين معاً، وكونهم غير خارجين عن ملكه وقهره، ثم قال تعالى {غافر الذنب وقابل التوب} تأنيسـاً لمن اسـتجاب بحمده، وأناب بلطفه، وجرياً على حكم الرحمة وتغليبها، ثم قال {شديد العقاب ذي الطول} ليأخذ المؤمن بلازم عبوديته من الخوف والرجاء، واكتنف قوله {شـــديد العقاب} بقوله {غافر الذنب وقابل التوب} وقوله {ذي الطول} وأشــار ســبحانه بقوله– {فلا يغررك تقلبهم في البلاد}– إلى قوله قبل {وأورثنا الأرض} وكأنه في تقدير: إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد، ثم بين تعالى أن حالهم في هذا كحال الأمم قبلهم، وجدالهم في الآيات كجدالهم، وأن ذلك لما حق عليهم من كلمة العذاب، وسبق لهم في أم الكتاب– انتهى.

ولما تقدم آخر تلك أن كلمة العذاب حقت على الكافرين، فكان ذلك ربما أيأس من تلبس بكفر من الفلاح، وأوهمه أن انسلاخه من الكفر غير ممكن، وكان الغفران– وهو محو الذنب عيناً وأثراً– مترتباً على العلم به، والتمكن من الغفران وما رتب عليه من الأوصـاف نتيجة العزة، دل عليهما مسـتعطفاً لكل عاص ومقصـــر بقوله: {غافر الذنب} أي بتوبة وغير توبة إن شـــاء، وهذا الوصـف له دائماً فهو معرفة. قال السمين: نص سيبويه على أن كل

ما إضـافته غير محضـة جاز أن تجعل محضـة وتوصـف بها المعارف إلا الصفة المشبهة، ولم يستثن الكوفيون شيئاً.

ولما أفهم تقديمه على التوبة أنه غير متوقف عليها فيما عدا الشـرك، وكان المشـركون يقولون: قد أشـركنا وقتلنا وبالغنا في المعاصـي فلا يقبل رجوعنا فلا فائدة لنا في إسـلامنا، رغبهم في التوبة بذكرها وبالعطف بالواو الدالة على تمكن الوصـف إعلاماً بأنه سـبحانه لا يتعاظمه ذنب فقال: {وقابل التوب} وجرد المصدر ليفهم أن أدنى ما يطلق عليه الاسم كاف وجعله اسم جنس كأخواته أنسب من جعله بينها جمعاً كتمر وتمرة. ولما كان الاقتصار على الترغيب بما أطمع عذر المتمادي من سـطوته، فقال معرياً عن الواو لئلا يؤنس ما يشعر به كل من العطف والصفة المشبهة من التمكن، وذلك إعلاماً بخفي لطفه في أن رحمته سبقت غضبه، وأنه لو أبدى كل ما عنده من العزة لأهلك كل من عليها كما أشـير إليه بالمفاعلة في {ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم} [النحل: 61] فإن الفعل إذا كان بين اثنين كان أبلغ: {شديد العقاب *} على أن تنكيره وإبهامه- كما قال الزمخشـري- للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر، لزيادة الإنذار وهي أخفى من دلالة الواو لو أوتي بها.

ولما أتم الترغيب بالعفو والترهيب من الأخذ، أتبعه التشـويق إلى الفضـل، فقال معرياً عن الواو لأن التمام لا يقتضـي المبالغة، والحذف غير مخل بالغرض فإن دليل العقل قائم على كمال صفاته سبحانه: {ذي الطول} أي سعة الفضل والإنعام والقدرة والغنى والسعة والمنة، لا يماثله في شـيء من

ذلك أحد ولا يدانيه، ثم علل تمكنه في كل شـــيء من ذلك بوحدانيته فقال : {لا إله إلا هو} ولما أنتج هذا كله تفرده، أنتج قطعاً قوله: {إليه} أي وحده {المصـــير *} أي في المعنى في الدنيا، وفي الحس والمعنى في الآخرة، ليظهر كل من هذه الصـفات ظهوراً تاماً، بحيث لا يبقى في شـيء من ذلك لبس، فإنه لا يصـح في الحكمة أن يبغي أحد على العباد ثم يموت في عزة من غير نقمة فيضيع ذلك المبغي عليه، لأن هذا أمر لا يرضـى أقل الناس أن يكون بين عبيده.

ولما تبين ما للقرآن من البيان الجامع بحســـب نزوله جواباً لما يعرض لهم من الشبه، فدل بإزاحته كل علة عى ما وصف سبحانه به نفسه المقدس من العزة والعلم بياناً لا خفاء في شـــيء منه، أنتج قول ذماً لمن يريد إبطاله وإخفاءه: {ما يجادل} أي يخاصـم ويماري ويريد أن يفتل الأمور إلى مراده {في آيات} وأظهر موضـع الإضـمار تعظيماً للآيات فقال: {الله} أي في إبطال أنوار الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال الدالة كالشمس على أنه إليه المصـير، بأن يغش نفسـه بالشـك في ذلك لشـبه يميل معها، أو غيره بالتشـكيك له، أو في شـيء غير ذلك مما أخبر به تعالى {إلا الذين كفروا} أي غطوا مرائي عقولهم وأنوار بصـائرهم لبسـاً على أنفسـهم وتلبيسـاً على غيرهم.

ولما ثبت أن الحشـر لا بد منه، وأن الله تعالى قادر كل قدرة لأنه لا شـريك له وهو محيط بجميع أوصـاف الكمال، تسـبب عن ذلك قوله: {فلا يغررك تقلبهم} أي تنقلهم بالتجارات والفوائد والجيوش والعسـاكر وإقبال الدنيا عليهم

{في البلاد *} فإنه لا يكون التفعل بالقلب إلا عن قهر وغلبة، فتظن لإمهالنا إياهم أنهم على حق، أو أن أحداً يحميهم علينا، فلا بد من صـيرورتهم عن قريب إلينا صاغرين داخرين، وتأخيرهم إنما هو ليبلغ الكتاب أجله.

▲ تفسير الآيات رقم [5- 7]

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5)
وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)
الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7)}

ولما نهى عن الاغترار بما لا قوة لاحد على صرفه من نفسه إلا بتأييد من الله، علله بما يحقق معنى النهي من أن التقلب وما يثمره لا يصح أن يكون معتمداً ليزهد فيه كل من سمع هاتين الآيتين، فقال مشيراً بتأنيث الفعل إلى ضعفهم عن المقاومة، وتلاشيهم عند المصادمة، وإن كانوا في غاية القوة بالنسبة إلى أبناء جنسهم: {كذبت} ولما كان تكذيبهم عظيماً وكان زمانه قديماً وما قبله من الزمان قليلاً بالنسبة إلى ما بعده وطال البلاء بهم، جعل مستغرقاً بجميع الزمان، فقال من غير خافض: {قبلهم} ولما كان الناس على زمن نوح عليه السلام حزباً واحداً مجتمعين على أمر واحد ولسان جامع، وحدهم فقال: {قوم نوح} أي وقد كانوا في غاية القوة والقدرة على القيام بما

يحاولونه وكانوا حزباً واحداً لم يفرقهم شـــيء. ولما كان الناس من بعدهم قد كثروا وفرقهم اختلاف الألسـنة والأديان، وكان للاجمال من الروع في بعض المواطن ما ليس للتفصـــيل قال: {والأحزاب} أي الأمم المتفرقة الذين لا يحصـــون عدداً، ودل على قرب زمان الكفر من الإنجاء من الغرق بقوله: {من بعدهم}.

ولما كان التذكيب وحده كافياً في الأذى، دل على أنهم زادوا عليه بالمبالغة في المناصـــبة بالمعاندة، وقدم قصـــد الإهلاك لأنه أول ما يريده العدو فإن عجز عنـه نزل إلى مـا دونـه فقال: {وهمَّت كل أمـة} أي من الأحزاب المذكورين {برسولهم} أي الذي أرسلناه إليهم. ولما كان الأخذ يعبر عنه عن الغلبة والقهر والاستصغار مع الغضب قال: {ليأخذوه} ولما كان سوق الكلام هكذا دالاً على أنهم عجزوا عن الأخذ، ذكر أنهم بذلوا جهدهم في المغالبة بغيره، فقال حاذفاً للمفعول تعميماً: {وجادلوا بالباطل} أي الأمر الذي لا حقيقة له، وليس له من ذاته إلا الزوال، كما تفعل قريش ومن انضـوى إليهم من العرب، ثم بين علة مجادلتهم فقال: {ليدحضـوا} أي ليزلقوا فيزيلوا {به الحق} أي الثابت ثباتاً لا حيلة في إزالته.

ولما كان من المعلوم لكل ذي لب أن فاعل ذلك مغلوب، وأن فعله مســـبب لغضـب المرسـل عليه، قال صـارفاً القول إلى المتكلم دفعاً للالباس، وإشـارة إلى شـدة الغضـب وجرده عن مظهر العظمة استصـغاراً لهم: {فأخذتهم} أي أهلكتهم وهم صـاغرون غضباً عليهم وإهانة لهم. ولما كان أخذه عظيماً، دل على عظمته بأنه أهل لأن يســأل عن حاله لزيادة عظمتها في قوة بطشـــها

وســـــرعة إهلاكها وخرقها للعوائد فقال : {فكيف كان عقاب *} ومن نظر ديارهم وتقرى آثارهم وقف على بعض ما أشرنا إليه ونبهنا عليه، وحذف ياء المتكلم إشــارة إلى أن أدنى من عذابه بأدنى نســبة كاف في المراد وإن كان المعذب جميع العباد.

ولما كان التقدير : فحقت عليهم كلمة الله لأخذهم على هذا الجدال إنهم أصــحاب النار التي جادلوا فيها، عطف عليه قوله: {وكذلك} أي ومثل ما حقت عليهم كلمتنا بالأخذ، فلم يقدروا على التفصـــــي من حقوقها {حقت} بالأخذ والنكال {كلمت} وصـرف الكلام إلى صـفة الإحسـان تلطفاً به صـلى الله عليه وسلم وبشارة له بالرفق بقومه فقال: {ربك} أي المحسن إليك بجميع أنواع الإحسان فهو لا يدع أعداءك.

ولما كان الســـياق للمجادلة بالباطل وهي فتل الخصـــم من اعتقاده الحق، وذلك تغطية للدليل الحق وتلبيس، كان الحال أحق بالتعبير بالكفر الذي معناه التغطية فلذا قال تعالى: {على الذين كفروا} أي أوقعوا الكفر وقتاً ما كلهم ســـواء هؤلاء العرب وغيرهم، لأن علة الإهلاك واحدة، وهي التكذيب الدال على أن من تلبس به مخلوق للنار، ثم أبدل من «الكلمة» فقال: {أنهم أصـحاب النار *} أي من كفر في حين من الأحيان فهو مسـتحق للنار في الأخرى كما أنه مســتحق للأخذ في الدنيا لا يبالي الله به بالة، فمن تداركته الرحمة بالتوبة، ومن أوبقته اللعنة بالإصرار هلك.

ولما بين عداوة الكفار للأنبياء عليهم الصــلاة والســلام وأتباعهم رضـــي الله عنهم بقوله: {وما يجادل في آيات الله} ما بعده، وكان ذلك أمراً غائظاً

محزناً موجعاً، وختم ذلك ببيان حقوق كلمة العذاب عليهم تسلية لمن عادوهم فيه سبحانه، زاد في تسليتهم شرحاً لصدورهم وتثبيتاً لقلوبهم ببيان ولاية الملائكة المقربين لهم مع كونهم أخص الخلق بحضرته سبحانه وأقربهم من محل أنسه وموطن قدسه وبيان حقوق رحمته للذين آمنوا بدعاء أهل حضرته لهم فقال، أو يقال : إنه لما بين حقوق كلمة العذاب، كان كأنه قيل : فكيف النجاة؟ قيل: بايقاع الإيمان بالتوبة عن الكفران ليكون موقعه أهلاً للشفاعة فيه من أهل الحضرة العلية، فيغفر له إن تاب ما قدم من الكفر، فقال مظهراً لشرف الإيمان وفضله: {الذين يحملون العرش} وهم المقربون وهم أربعة كما يذكر إن شاء الله تعالى في الحاقه، فإذا كانت القيامة كانوا ثمانية، وهل هم أشخاص أو صفوف فيه كلام يذكر إن شاء الله تعالى {ومن حوله} وهم جميع الملائكة وغيرهم ممن ربما أراد الله كونه محيطاً به كما تقدم في التي قبلها {وترى الملائكة حافين من حول العرش} أي طائفين به، فأفادت هذه العبارة النص على الجميع مع تصوير العظمة.

ولما كان ربما وقع في وهم أنه سبحانه محتاج إلى حملهم لعرشه أو إلى عرشه أو إلى شيء، نبه بالتسبيح على أنه غنيّ عن كل شيء وأن المراد بالعرش والحملة ونحو ذلك إظهار عظته لنا في مثل محسوسة لطفاً منه بنا تنزلاً إلى ما تسعه عقولنا وتحمله أفهامنا، فقال مخبراً عن المبتدأ وما عطف عليه: {يسبحون} أي ينزهون أي يوقعون تنزيهه سبحانه عن كل شائبة نقص ملتبسين {بحمد} وصرف القول إلى ضميرهم إعلاماً بأن الكل عبيده من

العلويين والسفليين القريب والبعيد، وكائنون تحت تصرفه وقهره، وإحسانه وجبره، فقال: {ربهم} أي باحاطة المحسن إليهم بأوصاف الكمال.

ولما كان تعالى باطناً لا يحيط أحد به علماً، أشار إلى أنهم مع أنهم أهل الحضرة هم من وراء حجاب الكبر وأردية العظمة، لا فرق بينهم في ذلك وبين ما هو في الأرض السفلى بقوله: {ويؤمنون به} لأن الإيمان إنما يكون بالغيب . ولما كانوا لقربهم أشد الخلق خوفاً لأنه على قدر القرب من تلك الحضرات يكون الخوف، فهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من أهل السماء السادسة وهكذا، وكانوا قد علموا من تعظيم الله تعالى للنوع الإنساني ما لم يعلمه غيرهم لأمره سبحانه لهم بتعظيمه بما اختص به سبحانه من السجود، وكان من أقرب ما يقترب به إلى الملك التقرب إلى أهل وده، نبه سبحانه على ذلك كله بقوله: {ويستغفرون} أي يطلبون محو الذنوب أعياناً وآثاراً.

ولما كان الاشتراك في الإيمان أشد من الاتحاد في النسب، قال دالاً على أن الاتصاف بذلك يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إمحاض الشفقة: {للذين آمنوا} أي أوقعوا هذه الحقيقة لما بينهم من أخوة الإيمان ومجانسته وإن اختلف جنسهم في حقيقة التركيب وإن وقع منهم بعد ذلك خلل يحق عليهم الكلمة لولا العفو {وما قدروا الله حق قدره} {ويعفو عن كثير} «لن يدخل أحد الجنة بعمله». ولما ذكر استغفارهم بين عبارتهم عنه بقوله: {ربنا} أي أيها المحسن إلينا بالإيمان وغيره. ولما كان المراد بيان اتساع رحمته سبحانه وعلمه، وكان ذلك أمراً لا يحتمله العقول، عدل إلى

أسلوب التمييز تنبيهاً على ذلك مع ما فيه من هز السامع وتشويقه بالإبهام إلى الإعلام فقال: {وسعت كل شيء} ثم بين جهة التوسع بقوله تميزاً محولاً عن الفاعل: {رحمة} أي رحمتك أي بإيجاده من العدم فما فوق ذلك {وعلماً} أي وأحاط بهم علمك، فمن أكرمته فعن علم بما جلبته عليه مما يقتضي إهانة أو إكراماً.

ولما كان له سبحانه أن يفعل ما يشاء من تعذيب الطائع وتنعيم العاصي وغير ذلك، قالوا منبهين على ذلك: {فاغفر للذين تابوا} أي رجعوا إليك عن ذنوبهم برحمتك لهم بأن تمحوا أعيانها وآثارها، فلا عقاب ولا عتاب ولا ذكر لها {واتبعوا} أي كلفوا أنفسهم على ما لها من العوج أن لزموا {سبيلك} المستقيم الذي لا لبس فيه. ولما كان الغفران قد يكون لبعض الذنوب، وكان سبحانه له أن يعذب من لا ذنب له، وأن يعذب من غفر ذنبه قالوا: {وقهم عذاب الجحيم *} أي اجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة وتتم نعمتك عليهم، فإنك وعدت من كان كذلك بذلك، ولا يبدل القول لديك، وإن كان يجوز أن تفعل ما تشاء.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 13]

{رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8)

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَــــكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10)

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11)

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْــــرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّــــمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13)}

ولما كانت النجاة من العذاب لا تستلزم الثواب، قالوا مكررين صفة الإحسان زيادة في الرقة في طلب الامتنان : {ربنا } أي أيها المحســــن إلينا بتوفيق أحبابنا الذين لذذونا بالمشاركة في عبادك بالجنان واللسان والأركان {وأدخلهم جنات عدن} أي إقامة لا عناد فيها. ولما كانوا عالمين بأن سبحانه لا يجب عليه لأحد شيء ولا يقبح منه شيء، نبهوا على ذلك بقولهم: {التي وعدتهم} مع الزيادة في التملق واللطافة في الحث وإدخالهم لأجل اســــتعمالك إياهم الصالحات.

ولما كان الإنســان لا يطيب له نعيم دون أن يشــاركه فيه أحبابه الذين كانوا يشــاركونه في العبادة قالوا مقدمين أحق الناس بالإجلال: {ومن صــلح من آبائهم} ثم أتبعوهم ألصـــقهم بالبال فقالوا : {وأزواجهم وذرياتهم} . ولما كان فاعل هذا منا ربما نسب إلى ذل أو سفه، وربما عجز عن الغفران لشخص لكثرة المعارضــين، عللوا بقولهم مؤكدين لأجل نســبة الكفار العز إلى غيره،

ومن ذلك تسـميتهم العزى: {إنك أنت} أي وحدك {العزيز} فأنت تغفر لمن شـئت غير منسـوب إلى وهن {الحكيم *} فكل فعل لك في أتم مواضـعه فلذلك لا يتهيأ لأحد نقضه ولا نقصه.

ولما كان الإنسـان قد يغفر له ويكرم، وفيه من الأخلاق ما ربما حمله على بعض الأفعال الناقصـة دعوا لهم بالكمال فقالوا: {وقهم السـيئات} أي بأن تجعل بينهم وبينها وقاية بأن تطهرهم من الأخلاق الحاملة عليها بتطهير القلوب بنزع كل ما يكره منها أو بأن يغفرها لهم ولا يجازيهم عليها، وعظموا هذه الطهارة ترغيباً في حمل النفس في هذه الدار على لزومها بقمع النفوس وإماتة الحظوظ بقولهم: {ومن تق السيئات} أي جزاءها كلها {يومئذ} أي يوم إذ تدخل فريقاً الجنة وفريقاً النار المسـببة عن السـيئات أو إذ تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين: {فقد رحمته} أي الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها أن يسمى معها رحمة، فإن تمام النعيم لا يكون إلا بها لزوال التحاسد والتباغض والنجاة من النار باجتناب السيئات ولذلك قالوا: {وذلك} أي الأمر العظيم جداً {هو} أي وحده {الفوز العظيم *} فالآية من الاحتباك: ذكر إدخال الجنات أولاً دليلاً على حذف النجاة من النار ثانياً، ووقاية السـيئات ثانياً دليلاً على التوفيق للصـالحات أولاً، وسـر ذلك التشـويق إلى المحبوب- وهو الجنان- بعمل المحبوب- وهو الصـالح- والتنفير من النيران باجتناب الممقوت من الأعمال، وهو السـيء فذكر المسـبب أولاً وحذف السـبب لأنه لا سـبب في الحقيقة إلا الرحمة، وذكر السـبب ثانياً في إدخال النار وحذف المسبب.

ولما أتم الذين آمنوا، فتشوفت النفس إلى معرفة ما لأضدادهم، قال مستأنفاً مؤكداً لإنكارهم هذه المناداة بانكار يومها: {إن الذين كفروا} أي أوقعوا الكفر ولو لحظة {ينادون} أي يوم القيامة بنداء يناديهم به من أراد الله من جنوده أو في الدار أرفع نعماً– أنهم آثر عند الله من فقراء المؤمنين، أكد قوله: {لمقت الله} أي الملك الأعظم إياكم بخذلانكم {أكبر من مقتكم} وقوله: {أنفسكم} مثل قوله تعالى: {انظر كيف كذبوا على أنفسهم} جاز على سبيل الإشارة إلى تنزه الحضرة المقدسة عما لزم فعلهم من المقت، فإن من دعا إلى أحد فأعرض عنه إلى غيره كان إعراضه مقتاً للمعرض عنه، وهذا المقت منهم الموجب لمقت الله لهم موصل لهم إلى عذاب يمقتون به أنفسهم، والمقت أشد البغض؛ ثم ذكر ظرف مقتهم العائد وباله عليهم بقوله: {إذا} أي حين، وأشار إلى أن الإيمان لظهور دلائله ينبغي أن يقبل من أي داع كان، فبنى الفعل لما لم يسم فاعله فقال: {تُدعون إلى الإيمان} أي بالله وما جاء من عنده {فتكفرون *} أي فتوقعون الكفر الذي هو تغطية الآيات موضع إظهارها والإذعان بها، وهذا أعظم العقاب عند أولي الألباب، لأن من علم أن مولاه عليه غضبان علم أنه لا ينفعه بكاء ولا يغني عنه شفاعة ولا حيلة في خلاصه بوجه.

ولما كان من أعظم ذنوبهم إنكار البعث، وكانوا قد استقروا العوائد، وسبروا ما جرت به الأقدار في الدهور والمدائد، من أن كل ثان لا بد له من ثالث، وكان الإحياء لا يطلق عرفاً إلا من كان عن موت، حكى سبحانه جوابهم بقوله الذي محطه الإقرار بالبعث والترفق بالاعتراف بالذنب حيث لا ينفع

لفوات شرطه وهو الغيب: {قالوا ربنا} أي أيها المحسن إلينا بما تقدم في دار الدنيا {أمتَّنا اثنتين} قيل: واحدة عند انقضـاء الآجال في الحياة الدنيا وأخرى بالصـعق بعد البعث أو الإرقاد بعد سـؤال القبر، والصـحيح أن تفسـيرها آية البقرة {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم} [آية : 28] وأما الصـــعق فليس بموت، وما في القبر فليس بحياة حتى يكون عنه موت، وإنما هو إقدار على الكلام كما أقدر سـبحانه الحصـى على التسـبيح والحجر على التسليم، والضب على الشهادتين، والفرس حين قال لها فارسها ثبي إطلال على قولها وثباً وسـورة البقرة {وأحييتنا اثنين} واحدة في البطن، وأخرى بالبعث بعد الموت، أو واحدة بالبعث وأخرى بالإقامة من الصـــعق، أو الإقامة في القبر، فشـاهدنا قدرتك على البعث {فاعترفنا} أي فتسـبب عن ذلك أنّا اعترفنا بعد تكرر الإحياء {بذنوبنا} الحاصـلة بسـبب إنكار البعث لأن من لم يخش العاقبة بالغ في متابعة الهوى، فذلك توبة لنا {فهل إلى خروج} أي من النار ولو على أدنى أنواع الخروج بالرجوع إلى الدنيا فنعمل صـالحاً {من سبيل} فنسلكه فنخرج ثم تكون لنا موتة ثالثة وإحياءة ثالثة إلى الجنة التي جعلتها جزاء من أقر بالبعث.

ولما كان الجواب قطعاً: لا سـبيل إلى ذلك، علله بقوله: {ذلكم} أي القضـاء النافذ العظيم العالي بتخليدكم في النار مقتاً منه لكم {بأنه} أي كان بســبب أنه {إذا دُعي الله} أي وجدت ولو مرة واحدة دعوة الملك الأعظم من أي داع كان {وحده} أي محكوماً له بالوحدة أو منفرداً من غير شـريك {كفرتم} أي هذا طبعكم دائماً رجعتم إلى الدنيا أولاً {وإن يشـرَك به} أي يوقع الإشـراك به

ويجدد ولو بعدد الأنفاس من أي مشرك كان {تؤمنوا} أي بالشركاء وتجددوا ذلك غير متحاشين ومن تجديد الكفر وهذا مفهم لأن حب الله للإنسان أكبر من حبه له الدال عليه توفيقه له في أنه إذا ذكر الله وحده آمن، وإن ذكر معه غيره على طريقة تؤل إلى الشـــركة كفر بذلك الغير وجعل الأمر لله وحده {فالحكم} أي فتسبب عن القطع بأن لا رجعة، وأن الكفار ما ضروا إلا أنفسهم مع ادعائهم العقول الراجحة ونفوذ ذلك أن كل حكم {لله} أي المحيط بصـــفات الكمال خاص به لا دخل للعوائد في أحكامه بل مهما شـــاء فعل إجراء على العوائد او خرقاً لها {العلي} أي وحده عن أن يكون له شـــريك، فكذب قول أبي ســـفيان يوم أحد «اعل هبل» وقول ابن عربي أحد أتباع فرعون أكذب وأقبح وأبطل حيث قال : العلي علا عن من وما ثم إلا هو، فعليه الخزي واللعنة وعلى من قال بقوله وعلى من توقف في لعنه.

ولما كانت النفوس لا تنقاد غاية الانقياد للحاكم إلا مع العظمة الزائدة والقدم في المجد، قال معبراً بما يجمع العظمة والقدم : {الكبير *} الذي لا يليق الكبر إلا له، وكبر كل متكبر وكبر كل كبير متضـــائل تحت دائرة كبره وكبره، وعذابه مناســب لكبريائه فما أســفه من شــقي بالكبراء فإنهم يلجئون أنفســهم إلى أن يقولوا ما لا يجديهم {ربنا إنا أطعنا ســادتنا وكبراءنا} : ولما قصـــر الحكم عليه دل على ذلك بقوله ذاكراً من آيات الآفاق العلوية ما يرد الموفق عن غيه: {هو} أي وحده {الذي يريكم} أي بالبصر والبصيرة {آياته} أي علاماته الدالة على تفرده بصـــفات الكمال تكميلاً لنفوســكم، فينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بإعادة ما تحطم فيها من الحبوب فتفتتت بعد

موتها بصـيرورة ذلك الحب تراباً لا تميز له عن ترابها فيتذكر به البعث لمن انمحق فصـار تراباً وضـل في تراب الأرض حتى لا تميز له عنه من طبعه الإنابة، وهو الرجوع عما هو عليه من الجهل إلى الدليل بما ركز في فطرته من العلم، وذلك هو معنى قوله: {وينزل لكم} أي خاصـاً بنفعكم أو ضـركم {من السماء} أي جهة العلو الدالة على قهر ما نزل منها بإمساكه إلى حين الحكم بنزوله {رزقاً} لإقامة أبدانكم من الثمار والأقوات بانزال الماء فهو سـبحانه يدلكم عليه ويتحبب إليكم لتنفعوا أنفسـكم وأنتم تتبغضـون إليه وتتعامون عنه لتضـروها {وما يتذكر} ذلك تذكراً تاماً- بما أشـار إليه الإظهار- فيقيس عليه بعث من أكلته الهوام، وانمحق باقيه في الأرض {إلا من ينيب *} أي له أهلية التجديد في كل وقت للرجوع إلى الدليل بأن يكون حنيفاً ميالاً للطافته مع الدليل حيثما مال . ما هو بحلف جامد ما الفه، ولا يحول عنه أصـلاً، لا يصـغي إلي قال ولا قيل، ولو قام على خطابه كل دليل.

▲ تفسير الآيات رقم [14- 17]

{فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)
رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)
يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)
الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)}

ولما كان كل من الناس يدعي أنه لا يعدل عن الدليل، وكان كل أحد مأموراً بالنظر في الدليل مأموراً بالإنابة لما دل عليه من التوجه إلى الله وحده، كان ذلك ســـبباً في معرفة الكل التوحيد الموجب لاعتقاده القدرة التامة الموجب لاعتقاد البعث، فكان سـبباً لإخلاصـهم، فقال تعالى مسـبباً عنه: {فادعوا} وصرح بالاسم الأعظم تدريباً للمخلصين على كيفية الإخلاص فقال: {الله} أي المتوحد بصـفات الكمال دعاء خضـوع وتعبد بعد الإنابة بعد النظر في الدليل {مخلصـــين له الدين} أي الأفعال التي يقع الجزاء عليها، فمن كان يصدق بالجزاء وبأن ربه غني لا يقبل إلا خالصاً اجتهد في تصفية أعماله، فيأتي بها في غاية الخلوص عن كل ما يمكن أن يكدر من غير شـــائبة شرك جلي أو خفي كما أن معبوده واحد من غير شائبة نقص.

ولما كانت مخالفة الجنس شـــديدة لما تدعو إليه من المخاصـــمة الموجبة للمشـاققة الموجبة لاسـتطابة الموت قال تعالى: {ولو كره} أي الدعاء منكم {الكافرون *} أي الساترون لأنوار عقولهم، والإخلاص أن يفعل العباد لربهم مثل ما فعل لهم فلا يفعلوا فعلاً من أمر أو نهي إلا لوجهه خاصـة من غير غرض لأنفسـهم بجلب شـيء من نفع أو ضـر، وذلك لأنه سـبحانه فعل لهم كل إحســـان من الخلق والرزق ولأنفســـهم خاصـــة لا لغرض يعود عليه- سـبحانه وما أعز شـأنه- بنفع ولا ضـر، فلا يكون شـكرهم له إلا بما تقدم، لكنه لما علم سبحانه بأن أباح لهم العمل لأجل الرجاء في ثوابه والخوف من عقابه، ولم يجعل ذلك قادحاً في الإخلاص، قال الاستاذ أبو القاسم القشيري: ولولا إذنه في ذلك لما كان في العالم مخلص.

ولما كان الإخلاص لا يتأتى إلا ممن رفعه إشـــراق الروح عن كدورات الأجســـام، وطارت به أنوارها عن حضـــيض ظلمات الجهل إلى عرش العرفان، فصـــار إذ كان الملك الديان سـمعه الذي يسـمع به، بمعنى أنه لا يفعل بشـــيء من هذه الجوارح إلا ما أمره به سـبحانه يتصـرف في الأكوان بإذن الفتاح العليم تكسب القلوب من ضياء أنواره ويحيى ميت الهمم بصافي أسراره، نبه سبحانه على ذلك حثاً عليه وتشويقاً إليه بقوله ممثلاً بما يفهمه العباد مخبراً عن مبتدأ محذوف تقديره: هو {رفيع الدرجات} أي فلا يصـل إلى حضرته الشماء إلا من علا في معارج العبادات ومدارج الكمالات.

ولما كنا لا نعرف ملكاً إلا بغلبته على سرير الملك، وكانت درج كل ملك ما يتوصل بها إلى عرشه، أشار سبحانه بجميع القلة إلى السماوات التي هي دون عرشـه سـبحانه، ثم أشـار إلى أن الدرج إليه لا تحصـى بوجه، لأنا لو أنفقنا عمر الدنيا في اصـطناع درج للتوصـل إلى السـماء الدنيا ما وصـلنا، فكيف بما فوقها فكيف وعلوه سبحانه، ليس هو بمسافة بل علو عظمة ونفوذ كلمة تنقطع دونها الآمال وتفنى الأيام والليال، والكاشـــف لذلك أتم كشـــف تعبيره في {سـأل} بصـيغة منتهى الجموع {المعارج}- ثم قال ممثلاً لنا بما نعرف: {ذو العرش} أي الكامل الذي لا عرش في الحقيقة إلا هو، فهو محيط لجميع الأكوان ومادة لكل جماد وحيوان، وعال بجلاله وعظمه عن كل ما يخطر في الأذهان.

ولما كان الملوك يلقون أوامرهم من مراتب عظمائهم إلى من أخلصـــوا في ودادهم قال: {يلقي الروح} أي الذي تحيى به الأرواح حياة الأشباح بالأرواح

{من أمره} أي من كلامه، ولا شـك أن الذي يلقي ليس الكلام النفسـي وإنما هو ما يدل عليه، وهو الذي يقبل النزول والتلاوة والكتابة ونحو ذلك. ولما كان أمره عالياً على كل أمر، أشـار إلى ذلك بأداة الاسـتعلاء فقال: {على من يشـاء} ولما كان ما رأوه من الملوك لا يتمكنون من رفع كل من أرادوا من رقيقهم، نبه على عظمته بقوله: {من عباده} وأشار بذلك مع الإشارة إلى أنه مطلق الأمر لا يسوغ لأحد الاعتراض عليه، ولو اعترض كان اعتراضه أقل من أن يلتفت إليه أو يعول بحال عليه إلى توهية قولهم {أو أنزل عليه الذكر من بيننا} [ص: 8] بأنه عليه السلام المخلص في عباده لم يمل إلى شـيء من أوثانهم سـاعة ما ولا صـرف لحظة عن الإله الحق طرفة عين، فلذلك اختصه من بينهم بهذا الروح الذي لا روح في الوجود سواه، فمن أقبل عليه وأخلص في تلاوته والعمل بما يدعو إليه والبعد عما ينهى عنه صـار ذا روح موات يحيي الأموات ويزري بالنيرات. قال الرازي: قال ابن عطاء: حياة القلب على حسـب ما ألقي إليه من الروح، فمنهم من ألقي إليه روح الرسالة، ومنهم من ألقي إليه روح النبوة، ومنهم من ألقي إليه روح الصديقية والكشـف والمشـاهدة، ومنهم من ألقي إليه روح العلم والمعرفة، ومنهم من ألقي إليه روح العبادة والخدمة، ومنهم من ألقي إليه روح الحياة فقط، ليس له علم بالله ولا مقام مع الله، فهو ميت في الباطن، وله الحياة البهيمية التي يهتدي بها إلى المعاش دون المعاد- انتهى. وبالجملة فكل من هذه الأرواح منطق لمن ألقي عليه مطلق للسـانه ببديع بيانه وإن اختلف نطقهم في بيانهم، وتصرفهم في عظيم شأنهم.

ولما بين سر اختصاصه بالإرسال لهذا النبي الكريم، أتبع ذلك بما يزيده بياناً من ثمرة الإرسال فقال: {لينذر} أي الذي اختصه سبحانه بروحه، وعبر بما يقتضيه تصنيف الناس الذي هو مقصود السورة من الاجتماع، وأزال وهم من قد يستحيل لقاء سبحانه لرفعه درجاته وسفول درجات غيره {يوم التلاق *} أي الذي لا يستحق أن يوصف بالتلاقي على الحقيقة غيره لكونه يلتقي فيه الأولون والآخرون وأهل السماوات والأرض ولا حيلة لأحد منهم في فراق غريمه بغير فصل على وجه العدل، وإلى هذا المعنى أشارت قراءة ابن كثير باثبات الياء في الحالين وهو واضح جداً في إفراد حزبي الأسعدين والأخسرين فإنه تلاق لا آخر له، وأشارت قراءة الجمهور بالحذف في الحالين إلى تلاقي هذين الجزئين : أحدهما بالآخر فإنه- والله أعلم- قل ما يكون حتى يفترقا بالأمر بكل إلى داره: الأسعدين بغير حساب، والأخسرين لا يقام لهم وزن، وأشار الإثبات في الموقف دون الوصل إلى الأمر الوسط وهي لمن بقي لقاءهم يمتد إلى حين القصاص لبعضهم من بعض.

ولما أفهم ذلك عدم الحجاب من بيوت أو جبال، أو أشجار أو تلال، أو غير ذلك من سائر ذوات الظلال، نبه عليه في قوله معيداً ذكر اليوم لأنه أهول له: {يوم هم} أي بظواهرهم وبواطنهم {بارزون} أي برزوا لا ساتر فيه أصلاً.

ولما كان من المعلوم عندهم إنما لا ساتر له معلوم، أجرهم على ما يعهدون، وعبر بعبارة تعم ذلك فقال مستأنفاً في جواب من ظن أنه قد يخفي عليه شيء عن الساتر معظماً الأمر بإظهار الاسم الأعظم: {لا يخفى على

الله} أي المحيط علماً وقدرة {منهم شيء} أي من ذواتهم ولا معانيهم سواء ظهروا أو استتروا في هذا اليوم وفي غيره.

ولما كان من العادة المستمرة أن الملك العظيم إذا أرسل جيشه إلى من طال تمردهم عليه وعنادهم له فظفروا بهم وأحضروهم إليه أن يناديهم مناديه وهم وقوف بين يديه قد أخرستهم هيبته وأذلتهم عظمته بلسان قاله أو لسان حاله بما يبكهم به ويوبخهم ويؤسفهم على ما مضى من عصيانهم ويندمهم قال: {لمن الملك اليوم} أي يا من كانوا يعملون أعمال من يظن أنه لا يقدر عليه أحد، فيجيبون بلسان الحال أو المقال كما قال بعض من قال:

سكت الدهر طويلاً عنهم *** قد أبكاهم دماً حين نطق

{لله} أي الذي له جميع صفات الكمال، ثم دل على ذلك بقوله: {الواحد} أي الذي لا يمكن أن يكون له ثان بشركة ولا قسمة ولا غيرها {القهار *} أي الذي يقهر من يشاء متكرراً وصفه بذلك دائماً أبداً لما ثبت من غناه المطلق بوحدانيته الحقيقة.

ولما أخبر عن إذعان كل نفس بانقطاع الأسباب، أخبرهم بما يزيد رعبهم، ويبعث رغبهم ورهبهم، وهو نتيجة تفدره بالملك قال: {اليوم تجزى} أي تقضى وتكافأ، بناه للمفعول لأن المرغب المرهب نفس الجزاء ولبيان سهولته عليه سبحانه {كل نفس} لا تترك نفس واحدة لأن العلم قد شملهم والقدرة قد أحاطت بهم وعمتهم، والحكمة قد منعت من إهمال أحد منهم.

ولما كان السياق للملك والقهر يقتضي الجزاء واعتماد الكسب الذي هو محط التكليف بالأمر والنهي ويقتضي النظر في الأسباب، لأن ذلك شأن

الملك، قال معبراً بالباء والكسب: {بما} أي بسبب ما {كسبت} أي عملت، وهي تظن أنه يفيدها سواء بسواء بالكيل الذي كالت يكال لها.
ولما كانت السببية مفهمة للعدل، فإن الزيادة تكون بغير سبب، قال معللاً نافياً مثل ما كانوا يتعاطونه من ظلم بعضهم لبعض في الدنيا: {لا ظلم} أي بوجه من الوجوه {اليوم} ولما كان استيفاء الخلائق بالمجازاة أمراً لا يمكن في العادة ضبطه، ولا يتأنى حفظه وربطه، فكيف إذا قصدت المساواة في مثاقيل الدر فما دونها:

بميزان قسط لا يخيس شعيرة *** له شاهد من نفسه غير عائل

ضاقت النفوس من خوف الطول، فخفف عنها بقوله معلماً أن أموره على غير ما يعهدونه، ولذلك أكد وعظم باظهار الاسم الأعظم: {إن الله} أي التام القدرة الشامل العلم {سريع الحساب *} أي بليغ السرعة فيه، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره في وقت حساب ذلك الغير، ولا يشغله شأن عن شأن لأنه لا يحتاج إلى تكلف عد، ولا يفتقر إلى مراجعة كتاب، ولا شيء، فكان في ذلك ترجية للفريقين وتخويف، لأن الظالم يخشى إسراع الأخذ بالعذاب، والمؤمن يرجو إسراع البسط بالثواب.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 20]

{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)}

ولما تم هذا على هذا الوجه المهول، وكان يوم القيامة له أســـماء تدل على أهواله باعتبار مواقفه وأحواله، منها يوم البعث وهو ظاهر، ومنها يوم التلاق لما تقدم، ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه خســـارته، ومنها يوم الآزفة لقربه وسرعة أخذه، وكان كأنه قيل خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم: وأمن ممن ألقينا هذا الروح الأعظم من أمرنا فأنذرهم ما مضـــى من يوم التلاقي وما عقبناه به، عطف عليه قوله زيادة في بيان هوله إعلاماً بأنه مع ثبوته وثبوت التلاقي فيه قريب تحذيراً من تزيين إبليس للشهوات وتقريره بالتسويف بالتوبة: {وأنذرهم} أي هؤلاء المعرضـين إعراض من لا يجوز الممكن {يوم الآزفة} أي الحالة الدائبة العاجلة السريعة جداً مع الضيق في الوقت وسوء العيش لأكثر الناس، وهي القيامة، كرر ذكرها الإنذار منها تصريحاً وتلويحاً تهويلاً لها وتعظيماً لشأنها.

ولما ذكر اليوم، هول أمره بما يحصل فيه من المشاق فقال: {إذ القلوب} أي من كل من حضـره. ولما كان هذا الرعب على وجه غريب باطن، عبر ب «لدى» فقال: {لدى الحناجر} أي حناجر المجموعين فيه إلا من شـاء الله، وهي جمع حنجور وهي الحلقوم وزناً ومعنى، يعني أنها زالت عن أمكانها صـاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج وصـارت مواضـعها من الأفئدة هواء، وكانت الأفئدة معترضة كالشجا لا هي ترجع إلى مقارها فيستريحوا ولا تخرج فيموتوا.

ولما كان الحديث- وإن كان في الظاهر عن القلوب- إنما هو عن أصـــحابها، جمع على طريقة جمع العقلاء، وزاده حســـناً أن القلوب محل

الكظم، وبها صلاح الجملة وفسادها، وقد أسند إليها ما يسند للعقلاء فقال: {كاظمين} أي ممتلئين خوفاً ورعباً وحزناً، ساكتين مكروبين، قد انسدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم. ولما كان من المعلوم أن ذلك الكرب إنما هو للخوف من ديان ذلك اليوم، وكان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك اليوم والشفاعات، قال مستأنفاً: {ما للظالمين} أي العريقين في الظلم منهم {من حميم} أي قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم، قال ابن برجان: والحميم: الماء الحار الناهي في الحرارة، سمي القريب به لأنه يحمي لقريبه غضباً، والغضب حرارة تعرض في القلب تخرج إلى الوجه فيحمر وتنتفخ الأوداج فيستشيط غيظاً {ولا شفيع يطاع *} أي ليس لهم شفيع أصلاً لأن الشفيع يعلم أنه لو شفع ما أطيع فهو لا ينفع، وقد يشفع في بعضهم بعض المقربين لعلامة فيهم يحصل بها اشتباه يظن بهم أنهم ممن يستحق الشفاعة فينبه على أنهم ليسوا بذلك، فيبرأ منهم.

ولما كانت الشفاعة إنما تقع وتنفع بشرط براءة المشفوع له من الذنب إما بالاعتراف بما نسب إليه والإقلاع عنه، وإما بالاعتذار عنه، وكان ذلك إنما يجري عند المخلوقين على الظاهر، ولذلك كانوا ربما وقع لهم الغلط فيمن لو علموا باطنه لما قبلوا الشفاعة فيه، علل تعالى ما تقدم بعلمه أن المشفوع له ليس بأهل لقبول الشفاعة فيه لإحاطة علمه فقال: {يعلم خائنة} ولما كان السياق هنا للابلاغ في أن علمه تعالى محيط بكل كلي وجزئي، فكان من المعلوم أن الحال يقتضي جمع الكثرة، وأنه ما عدل عنه إلى جمع القلة إلا للاشارة إلى أن علمه تعالى بالكثير كعلمه بالقليل الكل، عليه هين، فالكثير

عنده في ذلك قليل فلذا قال : {الأعين} أي خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر، جعل الخيانة مبالغة في الوصـف وهي الإشـارة بالعين، قال أبو حيان: من كسر وغمز ونظر يفهم منه ما يراد- انتهى.

وذلك يفعل بفعل ما يخالف الظاهر، ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر، أتبعه أخفى ما في الباطن فقال: {وما تخفي الصـدور *} أي عن المشـفوع عنده وغير ذلك.

ولما كان العفو عن الظالم الذي لا يرجع عن ظلمه نقصـاً، لكونه لا حكمة فيه، عبر بالاسـم الأعظم في جملة حالية فقال : {والله} أي والحال أن المتصـف بجميع صـفات الكمال {يقضـي بالحق} أي الثابت الذي لا يصـح أصـلاً نفيه، فلو قضـى فيمن يعلم أنه ليس بأهل للشفاعة فيه بقبول الشفاعة لنفى الحق وأثبت الباطل فخالف ذلك الكمال {والذين يدعون} أي الظالمون- على قراءة الجماعة، وأيها الظالمون- على قراءة نافع وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالخطاب للمواجهة بالإزراء. ولما كانت المراتب دون عظمته سـبحانه لا تنحصـر ولا يحتوي عليها كلها شـيء، أثبت الجار فقال: {من دونه} أي سـواه، ومن المعلوم أنهم خلقه فهم دون رتبته لأنهم في قهره {لا يقضـون بشـيء} من الأشـياء أصـلاً، فضـلاً عن أن يقضـوا بما يعارض حكمه، فلا مانع له من القضـاء بالحق، فلا مقتضـى لقبول الشـفاعة فيمن يعلم عراقته في الظلم أنه لا ينفك عنه.

ولما أخبر أنه لا فعل لشـركائهم، وأن الأمر له وحده، علل ذلك بقوله مرهباً من الخيانة وغيرها من الشـر، مرغباً في كل خير، مؤكداً لأجل أن أفعالهم

تقتضي إنكاراً ذلك: {إن الله} عبر به لأن السياق لتحقير شركائهم وبيان أنها في غاية النقصـان {هو} أي وحده. ولما ذكر ما هو غيب، وصـفه بأظهر ظاهر فقال: {السميع} أي لكل ما يمكن أن يسمع {البصير *} أي بالبصر والعلم لكل ما يمكن أن يبصـر ويعلم، فلا إدراك لشركائهم أصـلاً ولا لشـيء غيره بالحقيقة، ومن لا إدراك له ولا قضـاء له، فثبت أن الأمر له وحده، فما تنفعهم شـفاعة الشـافعين ولا تقبل فيهم من أحد شـفاعة بعد الشـفاعة العامة التي هي خاصـة بنبينا صـلى الله عليه وسـلم، وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فإن كل أحد يحجم عنها حتى يصـل الأمر إليه صـلى الله عليه وسـلم فيقول: أنا لها أنا لها، ثم يذهب إلى المكان الذي أذن له فيشـفع، فيشـفعه الله تعالى فيفصـل سـبحانه بين الخلائق ليذهب كل أحد إلى داره: جنته أو ناره، روى الشـيخان: البخاري ومسـلم عن أبي هريرة رضـي الله عنه قال: كنا مع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم في دعوة فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهش منها نهشة، فقال:

»أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون مم ذاك، يجمع الله الأولين والآخرين في صـعيد واحد فيبصـرهم الناظر، ويسـمعهم الداعي، وتدنو منهم الشـمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحملون، فيقول النـاس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه وإلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشـفع لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم فذكر سـؤالهم أكابر الأنبياء، وكل واحد منهم يحيل على الذي بعده إلى أن يقول عيسـى عليه السـلام: اذهبوا إلى محمد صـلى الله عليه وسـلم، فيقول النبي صـلى الله عليه وسـلم

حين يأتونه: أنا لها، فينطلق فيســـجد تحت العرش»- وهو مروي عن غير أبي هريرة عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ولكن لم أر فيه التصــريح بالشــفاعة العامة بعد رفع رأســه صــلى الله عليه وســلم من الســجود إلا فيما رواه البخاري في الزكاة من صــحيحه في باب «من ســأل الناس تكثراً» عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليقضي بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم»، وكذا فيما رواه أبو يعلى في مسنده فقال: حدثنا عمرو بن الضحاك بن مخلد ثنا أبو عاصــم الضــحاك بن مخلد ثنا أبو رافع إســماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصــار عن أبي هريرة رضــي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صــلى الله عليه وسلم وهو في طائفة من أصــــحابه فقال: «إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق الســـماوات والأرض خلق الصـــور فذكر النفخ فيه للموت ثم للبعث ثم ذكر الحشر»- وهو حديث طويل جداً إلى أن قال: «ثم يقفون موقفاً واحداً مقدار سبعين عاماً لا ينظر إليكم ولا يقضى بينكم، فتبكون حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دماً وتعرقون إلى أن يبلغ ذلك منكم أن يلجمكم أو يبلغ الأذقان، فتضــجون وتقولون: من يشــفع لنا إلى ربنا يقضــى بيننا، فتقولون: من أحق بذلك من أبيكم آدم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً، فتأتون آدم فتطلبون ذلك إليه فيأبى فيقول: ما أنا بصـــاحب ذلك، ثم يســـتقربون

الأنبياء نبياً نبياً كلما جاؤوا نبياً أبى عليهم، قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: حتى تأتوني، فأنطلق حتى آتي الفحص فأخر ساجداً فقال أبو هريرة: يا رسول الله! ما الفحص؟ قال: قدام العرش- حتى يبعث الله إليّ ملكاً فيأخذ بعضدي فيرفعني فيقول لي: يا محمد! فأقول: نعم يا رب! فيقول: ما شأنك- وهو أعلم فأقول: يا رب وعدتني فشـفعني في خلقك فاقض بينهم، قال: قد شفعتك أنا آتيكم فأقضي بينكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأرجع فأقف مع الناس فبينما نحن وقوف سمعنا حساً من السماء شديداً فنزل أهل السـماء الدنيا مثل من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت ثم ينزل أهل السـماء الثانية بمثل من نزل من الملائكة، ومثل الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض أشـرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضـعيف حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى في ظلل من الغمام، والملائكة تحمل عرشـه يومئذ ثمانية، وهو اليوم على أربعة- إلى أن قال: فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يهتف بصوته فيقول: يا معشر الجن والإنس! إني قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يوم يومكم هذا أسمع قولكم، وأبصر أعمالكم، فانصتوا لي فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق سـاطع مظلم، ثم يقول الله عز وجل {ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشـيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا

صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون هذه جهنم التي كنتم توعدون} [يس: 60-63]- أو بها تكذبون- شك أبو عاصم، {وامتازوا اليوم أيها المجرمون} [يس: 59] فتسمى النار وتجثو الأمم وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها فيقضي بين خلقه«

-فذكره وهو طويل جداً، ثم ذكر الصراط وبعض الشفاعات الخاصة في أهل الجنة، فذكر دخولهم الجنة ثم أنهم يشفعون في بعض أهل النار إلى أن قال: «ثم يأذن الله في الشفاعة، فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع«

إلى أن قال: «ثم يقول الله عز وجل: بقيت أنا وأنا أرحم الراحمين. فيدخل الله يده في جهنم فيخرج منها لا يحصيه غيره» وروى ابن حبان في صحيحه- قال المنذري: ولا أعلم في إسناده مطعناً- عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول إبراهيم عليه السلام يوم القيامة. يا رباه، فيقول الرب جل وعلا: يا لبيكاه، فيقول إبراهيم: يا رب حرقت بني- فيقول الله: أخرجوا من النار من كان في قلبه ذرة أو شعيرة من الإيمان» وروى الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وأحمد بن منيع: «يلقى رجل أباه يوم القيامة فيقول: يا أبة! أي ابن كنت لك؟ فيقول: خير ابن، فيقول: هل أنت مطيعي اليوم، فيقول: نعم، فيقول خذ بازرتي، فيأخذ بازرته، ثم ينطلق حتى يأتي الله وهو يعرض بعض الخلق، فيقول: يا عبدي! ادخل من أي أبواب الجنة شئت، فيقول: أي ربي، وأبي معي فإنك وعدتني أن لن تخزيني، فيعرض عنه ويقضي بين الخلق ويعرضهم ثم ينظر إليه فيقول: يا ابن آدم ادخل من أي أبواب الجنة شئت فيقول: أي ربي وأبي

معي فإنك قد وعدتني أن لن تخزيني قال: فيمسـخ الله أباه ضـبعاً أمذر أو أمجر»- شك أبو جعفر أحد رواة ابن منيع- «فيأخذ بأنفه فيقول: أبوك هو، فيقول: ما هو بأبي، فيهوي في النار» وهو في البخاري في أحاديث الأنبياء وتفسير الشعراء بلفظ: «يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آذر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم عليه السلام: ألم أقل لك: لا تعصني، فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصـيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى عن أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال لإبراهيم عليه السـلام: انظر ما تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ- وهو ذكر الضـبعان- متلطخ فيؤخذ بقوامه فيلقى في النار»، وروى أبو يعلى الموصـلي والحاكم وقال: صـحيح على شرط الشيخين عن أبي سعيد رضـي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال: «ليأخذن رجل بيد أبيه يوم القيامة فتقطعه النار يريد أن يدخله الجنة، قال: فينادى أن الجنة لا يدخلها مشـرك، ألا إن الله قد حرم الجنة على كل مشـرك قال: فيقول: أي رب! أبي، فيحول في صـورة قبيحة وريح منتنة فيتركه، فكان أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يرون أنه إبراهيم عليه السـلام»، وروى الشـيخان وغيرهما عن ابن عباس رضـي الله عنهما قال: سـمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يخطب على المنبر يقول:

»إنكم ملاقو الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيدة وعداً علينا إنا كنا فاعلين، ألا وإن أول الخلائق يكسـى إبراهيم عليه السـلام ألا وإنه سـيجاء

برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب! أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح {وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم}- إلى قوله: {وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: 118]» ورواه الترمذي والنسائي بنحوه، ومن نحو ما قال عيسى عليه السلام قول إبراهيم عيله السلام كما حكاه الله عنه {فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم} وروى مسلم في الإيمان من صحيحه والنسائي في التفسير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام» {رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فأنه مني} الآية- وقال عيسى عليه السلام {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} فرفع يديه وقال: اللهم أمتي اللهم أمتي اللهم أمتي- وبكى «، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد- وربك أعلم- فاسأله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله: فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»، وللشيخين في الحوض والفتن ومسلم في فضل النبي صلى الله عليه وسلم عن سهل بن سعد وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا فرطكم على الحوض، من مر على شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم»- زاد أبو سعيد رضي الله عنه: فأقول: «إنهم مني- فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن

غير بعدي» ولمسلم وابن ماجه- وهذا لفظه- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم- فذكر خطبته في الحج ثم قال: «ألا وإني فرطكم على الحوض وأكاثر بكم الأمم، ولا تسودوا وجهي، ألا وإني مستنقذ أناساً ومستنقذ مني أناس فأقول: يا رب: أصحابي أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» ولفظ مسلم: «أنا فرطكم على الحوض ولأنازعن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فأقول: يا رب! أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» ولمسلم عن عائشة رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو بين ظهراني أصحابه:

»إني على الحوض أنظر من يرد عليّ منكم، فوالله ليقطعن دوني رجال فلأقولن: أي رب! مني ومن أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، ما زالوا يرجعون على أعقابهم» وللشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ترد عليّ أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله! تعرفنا؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لغيركم تردون عليّ غرّاً محجلين من آثار الوضوء، ولتصدن عني طائفة منكم فلا يصلون، فأقول يا رب هؤلاء أصحابي، فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟ وفي رواية: بينما أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج من بيني وبينهم رجل، فقال: هلم؛ فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: ما شأنهم، فقال: إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم. أي

ضوالها- أي الناجي قليل، وفي رواية لمسلم في الوضوء: ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً» قال المنذري: والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً.

▲ تفسير الآيات رقم [21- 26]

{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23)

إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25)

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)}

ولما وعظهم سبحانه بصادق الأخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من الكفار، وختمه بالإنذار بما يقع في دار القرار للظالمين الأشرار، أتبعه الوعظ والتخويف بالمشاهدة من تتبع الديار والاعتبار، بما كان لهم فيها من عجائب الآثار، من الحصون والقصور وسائر الأبنية الصغار والكبار، فقال

موبخاً ومقرراً عاطفاً على ما تقديره ألم يتعظوا بما أخبرناهم به من الظالمين الأولين من تبعهم من الإهلاك في الدنيا المتصل بالشقاء في الأخرى: {أو لم يسيروا} ولما كان المتقدمون من الكثرة والشدة والمكنة بحيث لا يعلمه إلا الله ولا يقدر آدمي على الإحاطة بمساكنهم، نبه عليه بقوله: {في الأرض} أي أي أرض ساروا فيها وعظتهم بما حوت من الأعلام.

ولما كان السير سبباً للنظر قال: {فينظروا} أي نظر اعتبار كما هو شأن أرباب البصائر الذين يزعمون أنهم أعلاهم. ولما كانت الأحوال المنظور فيها المعتبر بها شديدة الغرابة، نبه عليها بقوله: {كيف} أي أنها أهل لأن يسأل عنها، ونبه على أن التصاقها بهم في غاية العراقة بحيث لا انفكاك لها بقوله: {كان عاقبة} أي آخر أمر {الذين كانوا} أي سكاناً للأرض عريقين في عمارتها. ولما كان المنتفع بالوعظ يكفيه أدنى شيء منه، نبه على ذلك بالجار فقال: {من قبلهم} أي قبل زمانهم {كانوا} ولما كان السياق لمجادلة قريش لإدحاض الحق مع سماعهم لأخبار الأولين، كانوا كأنهم ادعوا أنهم أشد الناس، فاقتضى الحال تأكيد الخبر بأن الأولين أشد منهم، فأكدر أمرهم فيما نسبه إليهم معبراً بضمير الفصل بقوله: {هم} أي المتقدمون، لما لهم من القوى الظاهرة والباطنة.

ولما كان مرجع المجادلة القوة لا الكثرة، وقال استئنافاً في جواب من لعله يقول: ما كان أمرهم؟: {أشد منهم} أي هؤلاء- قرأه ابن عامر {منكم} بالكاف كما هو في مصحف أهل الشام على الالتفات للتنصيص على المراد {قوة} أي ذواتاً ومعاني {و} أشد {آثاراً في الأرض} لأن آثارهم لم يندرس بعضها

إلى هذا الزمان وقد مضى عليها ألوف من السنين، وأما المتأخرون فتنطمس آثارهم في أقل من قرن.

ولما كانت قوتهم ومكنتهم سـببًا لإعجابهم وتكبرهم على أمر ربهم ومخالفة رسـله، فكان ذلك سـبب هلاكهم قال: {فأخذهم الله} أي الذي له صـفات الكمال أخذ غلبة وقهر وسـطوة، ولما لم يتقدم شـيء يسـند إليه أخذهم، قال مبيناً ما أخذوا به: {بذنوبهم} أي التي سببت لهم الأخذ ولم يغن عنهم شيء من ذلك الذي أبطرهم حتى عتوا به على ربهم ولا شفع فيهم شافع {وما كان لهم} أي من شـركائهم الذين ضـلوا بهم كهؤلاء ومن غيرهم {من الله} أي عوض المتصـف بجميع صـفات الكمال، أو كوناً مبتدئاً من جهة عظمته وجلاله، وأكد النفي بزيادة الجار فقال: {من واق *} أي يقيهم مراده سبحانه فيهم، لا من شـركائهم ولا من غيرهم، فعلم أن الذين من دونه لا يقضـون بشـيء، ويجوز أن تكون «من» الأولى ابتدائية على بابها تنبيهاً على أن الأخذ في غاية العنف لأنه إذا لم يبتدئ من جهته سبحانه لهم وقاية لم تكن لهم باقية بخلاف من عاقبه الله عقوبة تأديب، فإن عذابه يكون سـبب بقائه لما يحصل له منه سبحانه من الوقاية.

ولما ذكر سـبحانه أخذهم ذكر سـببه بما حاصـله أن الاسـتهانة بالرسـول اسـتهانة بمن أرسـله في قوله: {ذلك} أي الأخذ العظيم ولما كان مقصـود السورة تصنيف الناس في الآخرة صنفين، فكانوا إحدى عمدتي الكلام، أتى بضـميرهم فقال: {بأنهم} أي الذين كانوا من قبل {كانت تأتيهم} أي شـيئاً فشيئاً في الزمان الماضي على وجه قضاه سبحانه فأنفذه {رسلهم} أي الذين

هم منهم {بالبينات} أي الآيات الدالة على صـــدقهم دلالة هي من وضـــوح الأمر بحيث لا يسع منصفاً إنكارها.

ولما كان مطلق الكفر كافياً في العذاب، عبر بالماضــي فقال: {فكفروا} أي سببوا عن إتيان الرسل عليهم الصـلاة والسـلام الكفر موضـع ما كان إتيانهم سبباً له من الإيمان.

ولما سبب لهم كفرهم الهلاك قال: {فأخذهم} أي أخذ غضب {الله} أي الملك الأعظم. ولما كان قوله {فكفروا} معلماً بسـبب أخذهم لم يقل: بكفرهم، كما قال سـابقاً: بذنوبهم، لإرشـاد السـباق إليه. ولما كان اجتراؤهم على العظائم فعل منكر للقدرة، قال مؤكداً لعملهم عمل من لا يخافه: {إنه قوي} لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء {شديد العقاب *}.

ولمـا كـان ذلـك عجبـاً لأن البينـات تمنع من الكفر، فكـان تقـدير لمن ينكر الإرسـال على هذه الصـفة: فلقد أرسـلناهم كذلك، وكان موسـى عليه السـلام من أجل المرسـلين آيات، عطف على ذلك تسـلية ونذارة لمن أدبر، وإشــارة لمن اسـتبصـر قوله: {ولقد} ولفت القول إلى مظهر العظمة كما في الآيات التي أظهرها بحضـرة هذا الملك المتعاظم من الهول والعظم الذي تصـاغرت به نفسه وتحاقرت عنده همته وانطمس حسه، فقال: {أرسلنا} أي على ما لنا من العظمة {موسـى بآياتنا} أي الدالة على جلالنا {وسلطان} أي أمر قاهر عظيم جداً، لا حيلة لهم في مدافعة شـيء منه {مبين *} أي بين في نفســه مناد لكل من يمكن إطلاعه عليه أنه ظاهر جداً، وذلك الأمر هو الذي كان يمنع فرعون من الوصول ألى أذاه مع ما له من القوة والسلطان {إلى فرعون}

أي ملك مصـــر . ولما كان الأكابر أول من يتوجه إليه الأمر لأن بانقيادهم ينقاد غيرهم قال: {وهامان} أي وزيره. ولما كان من أعجب العجب أن يكذب الرســول من جاء لنصــرته واســتنقاذه من شــدته قال: {وقارون} أي قريب موســى عليه الســلام {فقالوا} أي هؤلاء ومن تبعهم، أما من عدا قارون فأولاً وآخراً بالقوة والفعل، وأما قارون ففعله آخراً بين أنه مطبوع على الكفر وإن آمن أولاً، وإن هذا كان قوله وإن لم يقله بالفعل في ذلك الزمان فقد قاله في التيه، فدل ذلك على أنه لم يزل قائلاً به، لأنه لم يتب منه {ساحر} لعجزهم عن مقاهرته، ولم يقل، «سحار» لئلا يتوهم أحد أنه يمدحه بالبراعة في علم الســحر فتتحرك الهمم للإقبال عليه للاســتفادة منه وهو خبر مبتدأ محذوف، ثم وصــفوه بقولهم: {كذاب *} لخوفهم من تصــديق الناس له، فبعث أخصّ عباده به إلى أخسّ عباده عنده ليقيم الحجة عليه، وأمهله عندما قابل بالتكذيب وحلم عنه حتى أعذر إليه غاية الإعذار.

ولما أجمل أمره كله في هاتين الآيتين، شــرع في تفصــيله فقال مشــيراً إلى مباردتهم إلى العناد من غير توقف أصـــلاً التي أشـــار إليها حذف المبتدأ والاقتصار على الخبر الذي هو محط الفائدة: {فلما جاءهم} أي موسى عليه السلام {بالحق} أي بالأمر الثابت الذي لا طاقة لأحد بتغيير شيء منه كائناً {من عندنا} على ما لنا من القهر، فآمن معه طائفة من قومه {قالوا} أي فرعون وأتباعه {اقتلوا} أي قتلاً حقيقياً بإزالة الروح {أبناء الذين آمنوا} أي به فكانوا {معه} أي خصــوهم بذلك واتركوا من عداهم لعلهم يكذبونه {واســتحيوا نساءهم} أي اطلبوا حياتهن بأن لا تقتلوهن.

ولما كان هذا أمراً صــــاداً في العادة لمن يؤمن عن الإيمان وراداً لمن آمن إلى الكفران، أشـــار إلى أنه ســبحان خرق العادة بإبطاله فقال: {وما} أي والحال أنه ما كيدهم- هكذا كان الأصـل ولكنه قال: {كيد الكافرين} تعميماً وتعليقاً بالوصـف {إلا في ضـلال} أي مجانبة للسـدد الموصـل إلى الظفر والفوز لأنه ما أفادهم أولاً في الحذر من موســى عليه الســلام ولا آخراً في صد من آمن به مرادهم، بل كان فيه تبارهم وهلاكهم، وكذا أفعال الفجرة مع أولياء الله، ما حفر أحد منهم لأحدم منهم حفرة مكر إلا أركبه الله فيها.

ولما أخبر تعالى بفعله بمن تابع موســى عليه الســلام، أخبر عن فعله معه بما علم به أنه عاجز فقال: {وقال فرعون} أي أعظم الكفرة في ذلك الوقت لرؤســـاء أتباعه عندما علم أنه عاجز عن قتله وملأه ما رأى منه خوفاً وذعراً، دافعاً عن نفســه ما يقال من أنه ما ترك موســى عليه الســلام مع اســـتهانته به إلا عجزاً عنه، موهماً أن آله هم الذين يردونه عنه، وأنه لولا ذلك قتله: {ذروني} أي اتركوني على أيّ حالة كانت {أقتل موسى} وزاد في إيهام الأغبياء والمناداة على نفســه عند البصــراء بالفضــيحة بقوله: {وليدع ربه} أي الذي يدعوه ويدعي إحســـانه إليه بما يظهر على يديه من هذه الخوارق، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً إعلاماً بأنه الأمر صــعب جداً لأنه كان منهم من يوهي أمره بأنه لا يؤثر ما هو فيه شــيئاً أصـــلاً تقرباً إلى فرعون، وإظهاراً للثبات على متابعته {إني أخاف} أي إن تركته {أن يبدل دينكم} أي الذي أنتم عليه من نسبة الفعل إلى الطبيعة بما يدعو إليه من عبادة إلهه.

ولما ألهبهم بهذا الكلام إلى ممالأتهم له على موســى عليه الســلام، زاد في ذلك بقوله: {وأن يظهر} أي بســـببه- على قراءة الجماعة بفتح حرف المضـــارعة {في الأرض} أي كلها {الفســاد *} وقرأ المدنيان والبصـريان وحفص بالضم إسناداً إلى ضمير موسى عليه السلام وبنصب الفساد أي بفساد المعائش فإنه إذا غلب علينا قوي على من سوانا، فسفك الدماء وسبى الذرية، وانتهب الأموال، ففســدت الدنيا مع فســاد الدين، فســمى اللعين الصــلاح- لمخالفته لطريقته الفاسـدة- فســاداً كما هو شــأن كل مفسـد مع المصـــلحين، وقرأ الكوفيون ويعقوب «أو أن» بمعنى أنه يخاف وقوع أحد الأمرين: التبديل أو ظهور ما هو عليه مما ســماه فســاداً، وإن لم يحصـل التبديل عاجلاً فإنه يحصل به الوهن.

▲ تفسير الآيات رقم [27- 30]

{وَقَالَ مُوسَــى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَـابِ (27)

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَـــادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُـــرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)

وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30)}

ولما أعلم بمقالة العدو، أتبعه الإعلام بقول الولي فقال : {وقال موسى} إبطالاً لهذا القول وإزالة لآثاره مؤكداً لما استقر في النفوس من قدرة فرعون: {إني عذت} أي اعتصمت عند ابتداء الرسالة {بربي} ورغبهم في الاعتصام به وثبتهم بقوله: {وربكم} أي المحسن إلينا أجمعين، فأرسلني لاستنقاذكم من أعداء الدين والدنيا {من كل متكبر} أي عاتٍ طاغ متعظم على الحق هذا وغيره {لا يؤمن} أي لا يتجدد له تصديق {بيوم الحساب *} من ربه له وهو يعلم أنه لا بد من حسابه هو لمن تحت يده من رعاياه وعبيده فيحكم على ربه بما لا يحكم به على نفسه، ومعنى العوذ أنه لا وصول لأحد منهم إلى قتلي بسبب عوذي، هذا أمر قد فرغ منه مرسلي لخلاصكم، القادر على كل شيء.

ولما انقضى كلام الرأسين، وكانت عادة من لم يكن لهم نظام من الله رابط أن قلوبهم لا تكاد تجتمع وأنه لا بد أن يجاهر بعضهم بما عنده ولو عظم شأن الملك القائم بأمرهم، واجتهد في جمع مفترق علنهم وسرهم، قال تعالى مخبراً عن كلام بعض الأتباع في بعض ذلك : {وقال رجل} أي كامل في رجوليته {مؤمن} أي راسخ الإيمان فيما جاء به موسى عليه السلام. ولما كان للإنسان، إذا عم الطغيان، أن يسكن بين أهل العدوان، إذا نصح بحسب الإمكان، أفاد ذلك بقوله: {من آل فرعون} أي وجوههم ورؤسائهم {يكتم إيمانه} أي يخفيه إخفاء شديداً خوفاً على نفسه لأن الواحد إذا شذ عن قبيلة يطمع فيه ما لا يطمع إذا كان واحداً من جماعة مختلفة، مخيلاً لهم بما يوقفهم عن الإقدام على قتله من غير تصريح بالإيمان.

ولما رآهم قد عزموا على القتل عزماً قوياً أوقع عليه اســـم القتل، فقال منكراً له غاية الإنكار: {أتقتلون رجلاً} أي هو عظيم في الرجال حساً ومعنى، ثم علل قتلهم له بما ينافيه فقال: {أن} أي لأجل أن {يقول} ولو على ســـبيل التكرير: {ربي} أي المربي لي والمحســـن إليّ {الله} أي الجامع لصـــفات الكمال {وقد} أي والحال أنه قد {جاءكم بالبينات} أي الآيات الظاهرات من غير لبس {من ربكم} أي الذي لا إحسان عندكم إلا منه، وكما أن ربوبيته له اقتضـت عنه الاعتراف له بها فكذلك ينبغي أن تكون ربوبيته لكم داعية لكم إلى اعترافكم له بها.

ولما كان كلامه هذا يكاد أن يصـرح بإيمانه، وصـله بما يشـككهم في أمره ويوقفهم عن ضره، فقال مشيراً إلى أنه لا يخلو حاله من أن يكون صادقاً أو كاذباً، مقدماً القسم الذي هو أنفى للتهمة عنه وأدعى للقبول منه: {وإن} أي والحال أنه إن.

ولما كان المقام لضيقه غاية الضيق بالكون بين شرور ثلاثة عظيمة: قتلهم خير النـاس إذ ذاك، وإتيـانهم بـالعـذاب، واطلاعهم على إيمـانـه، فـأقـل مـا يـدعوهم ذلك إلى اتهـامـه إن لم يحملهم على إعدامـه داعيـة للإيجـاز في الوعظ والمســـارعة إلى الإتيان بأقل ما يمكن، حذف النون فقال: {يك كاذباً فعليه} أي خاصـة {كذبه} يضـره ذلك وليس عليكم منه ضـرر، ولم يقل: أو صـــادقاً، وإن كان الحال مقتضـياً لغاية الإيجاز لئلا يكون قد نقص الجانب المقصـــــود بالذات حقه، فيكون قد أخل ببعض الأدب، فقال مظهراً لفعل الكون عادلاً عما له إلى ما عليهم معادلاً لما ذكره عليه ونقصـه عنه إظهاراً

للنصــفة ودفعاً للتهمة عن نفســه: {وإن يك} حذف نونه لمثل ما مضــى {صـادقاً يصـبكم} أي على وجه العقوبة من الله وله صـدقه ينفعه ولا ينفعكم شيئاً.

ولما كان العاقل من نظر لنفسـه فلم يرد كلام خصـمه من غير حجة، وكان أقل ما يكون من توعد من بانت مخايل صــــدقه البعض، قال ملزماً الحجة بالبعض، غير ناف لما فوقه إظهاراً للانصـاف وأنه لم يوصـله حقه فضـلاً عن التعصـب له نفياً للتهمة عن نفسـه: {بعض الذي} وقال: {يعدكم} دون «يوعدكم» إشـارة إلى أنهم إن وافوه أصـابهم جميع ما وعدهموه من الخير، وإلا دهاهم ما توعدهم من الشـر، والآية من الاحتباك: ذكر اختصـاصـه بضـر الكذب أولاً دليلاً على ضـده وهو اختصـاصـه بنفع الصـدق ثانياً، وإصابتهم ثانياً دليلاً على إصابته أولاً، وسره أنه ذكر الضار في الموضعين، لأنه أنفع في الوعظ لأن من شـأن النفس الإسـراع في الهرب منه، ولقد قام أعظم من هذا المقام- كما في الصـحيح عن عبد الله بن عمرو رضـي الله عنهما- أبو بكر الصـديق رضـي الله عنه وهو مظهر إيمانه وقد جد الجد بتحقق الشروع في الفعل حيث اخذ المشركون بمجامع ثوب النبي صلى الله عليه وسـلم وهو يطوف بالبيت فالتزمه أبو بكر رضـي الله عنه وهو يقول هذه الآية، ودموعه تجري على لحيته حتى فرج الله وقد مزقوا كثيراً من شعر رأسه- رضي الله عنه.

ولما كان فرعون قد نسب موسى عليه الصلاة والسلام بما زعمه من إرادته إظهار الفسـاد إلى الإسـراف بعد ما نسـبه إليه من الكذب، علل هذا المؤمن

قوله هذا الحســن في شــقي التقســيم بما ينطبق إلى فرعون منفراً منه مع صــلاحيته لإرادة موســى عليه الصــلاة والســلام على ما زعمه فيه فرعون فقال: {إن الله} أي الذي له مجامع العظمة ومعاقد العز {لا يهدي} أي إلى ارتكاب ما ينفع واجتناب ما يضــر {من هو مســرف} أي بإظهار الفســاد متجاوز للحد، وكأنه رضــي الله عنه جوز أن يتأخر شــيء مما توعد به فيســموه كذباً، ولذا قال {يصــبكم بعض الذي يعدكم} فعلق الأمر بالمبالغة فقال: {كذاب *} لأن أول خذلانه وضلاله تعمقه في الكذب، ويهدي من هو مقتصــد صــادق، فإن كان كاذباً كما زعمتم ضــره كذبه، ولم يهتد لوجه يخلصه، وإن كان صادقاً أصابتكم العقوبة ولم تهتدوا لما ينجيكم، لاتصافكم بالوصفين.

ولما خيلهم بهذا الكلام الذي يمكنه توجيهه، شــرع في وعظهم إظهاراً للنصيحة لهم والتحسر عليهم فقال مذكراً لهم بنعمة الله عليهم محذراً لهم من سلبها مستعطفاً بذكر أنه منهم: {يا قوم} وعبر بأسلوب الخطاب دون التكلم تصــريحاً بالمقصــود فقال: {لكم الملك} ونبه على ما يعرفونه من تقلبات الدهر بقوله: {اليوم} وأشــار إلى ما عهدوه من الخذلان في بعض الأزمان بقوله: {ظاهرين} أي غالبين على بني إسرائيل وغيرهم، وما زال أهل البلاء يتوقعون الرخاء، وأهل الرخاء يتوقعون البلاء، ونبه على الإله الواحد القهار الذي له ملك الســماوات فملك الأرض من باب الأولى، بقوله معبراً بأداة الظرف الدالة على الاحتياج ترهيباً لهم: {في الأرض} أي أرض مصر التي هي لحسنها وجمعها المنافع كالأرض كلها، قد غلبتم الناس عليها.

ولما علم من هذا أنهم لا يملكون جميع الكون، تسـبب عنه أن المالك للكل هو الإله الحق والملك المطلق الذي لا مانع لما يريد، فلا ينبغي لأحد من عبيده أن يتعرض إلى ما لا قبل له به من سـخطه، فلذلك قال: {فمن ينصرنا} أي أنا وأنتم، أدرج نفسه فيهم عن ذكر الشر بعد إفراده لهم بالملك إبعاداً للتهمة وحثاً على قبول النصـيحة: {من بأس الله} أي الذي له الملك كله، ونبه بأداة الشـك على أن عذابه لهم أمر ممكن، والعاقل من يجوز الجائز ويسعى في التدرع منه فقال: {إن جاءنا} أي غضباً لهذا الذي يدعي أنه أرسـله، ويجوز أن يكون صـادقاً، بل يجب اعتقاد ذلك لما أظهره من الدلائل، وفي قوله هذا تسجيل عليهم بأنهم يعرفون أن الله ملك الملوك ورب الأرباب، وكذا قول موسـى عليه السـلام {لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السـماوات والأرض} [الاسـراء: 102] وأن ادعاء فرعون الإلهية إنما هو محض عناد.

ولما سـمع فرعون ما لا طعن له فيه، فكان بحيث يخاف من بقية قومه إن أفحش في أمر هذا المؤمن، فتشوف السامع لجوابه، أخبر تعالى أنه رد رداً دون رد بقوله: {قال فرعون} أي لقومه جواباً لما قاله هذا المؤمن دالاً بالحيدة عن حاق جوابه على الانقطاع بالعجز عن نقض شـيء من كلامه: {ما أريكم} أي من الآراء {إلا ما أرى} أي إنه الصـواب على قدر مبلغ علمي، أي إن ما أظهرته لكم هو الذي أبطنه. ولما كان في كلام المؤمن تعريض في أمر الهداية، وكان الإنسـان ربما يتوافق قلبه ولسـانه، ويكون تطابقهما على ضلال، قال: {وما أهديكم} أي بما أشرت به من قتل موسى

عليه السلام وغيره {إلا سبيل الرشاد *} أي الذي أرى أنه صواب، لا أبطن شـــيئاً وأظهر غيره، وربما يكون في هذا تنبيه لهم على ما يلوح من كلام المؤمن لأنه ارتاب في أمره، وفي هذا أنه في غاية الرعب من أمر موســـى عليه الســلام لاســتشــارته لقومه في أمره واحتمال هذه المراجعات التي يلوح منها أنه يكاد ينفطر غيظاً منه ولكنه يتجلد.

ولما ظهر لهذا المؤمن رضـــي الله عنه أن فرعون ذل لكلامه، ولم يســتطع مصــارحته، ارتفع إلى أصــرح من الأســلوب الأول فأخبرنا تعالى عنه بقوله مكتفياً في وصفه بالفعل الماضي لأنه في مقام الوعظ الذي ينبغي أن يكون من أدنى متصــف بالإيمان بعد أن ذكر عراقته في الوصــف لأجل أنه كان في مقام المجاهدة والمدافعة عن الرســول عليه وعلى نبينا أفضــل الصــلاة والســلام الذي لا يقدم عليه إلا راسـخ القدم في الدين: {وقال الذي آمن} أي بعد قول فرعون هذا الكلام الذي هو أبرد من الثلج الذي دل على جهله وعجزه وذلـه {يا قوم} وأكد لما رأى عندهم من إنكار أمره وخاف منهم من اتهامه فقال: {إني أخاف عليكم} أي من المكابرة في أمر موســـى عليه الصــلاة والســلام. ولما كان أقل ما يخشـــى يكفي العاقل، وكانت قدرة الله سبحانه عليهم كلهم على حد سواء لا تفاوت فيها فكان هلاكهم كلهم كهلاك نفس واحدة، أفرد فقال: {مثل يوم الأحزاب *} مع أن إفراده أروع وأقوى في التخويف وأفظع للاشــارة إلى قوة الله تعالى وأنه قادر على إهلاكهم في أقل زمان.

▲ تفسير الآيات رقم [31– 34]

{مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31)

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32)

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34)}

ولما أجمل فصل وبين أو بدل بعد أن هول، فقال بادئاً بمن كان عذابهم مثل عذابهم، ودأبهم شبيهاً بدأبهم: {مثل دأب} أي عادة {قوم نوح} أي فيما دهمهم من الهلاك الذي محقهم فلم يطيقوه مع ما كان فيهم من قوة المحاولة والمقاومة لما يريدونه {وعاد وثمود} مع ما بلغكم من جبروتكم. ولما كان هؤلاء أقوى الأمم، اكتفى بهم وأجمل من بعدهم فقال: {والذين} وأشار بالجار إلى التخصيص بالعذاب لئلا يقال: هذه عادة الدهر، فقال: {من بعدهم} أي بالقرب من زمانهم لا جميع من جاء بعدهم.

ولما كان التقدير: أهلكهم الله وما ظلمهم، عبر عنه تعميماً مقروناً بما تضمنه من الخبر بدليله فقال: {وما الله} أي الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال. ولما كان في مقام الوعظ لهم ومراده ردهم عن غيهم بكل حال، علق الأمر بالإرادة لأنها متى ارتفعت انتفى الظلم، ونكر تعميماً فقال: {يريد

ظلماً} أي يتجدد منه أن يعلق إرادته وقتاً ما بنوع ظلم {للعباد *} لأن أحد لا يتوجه أبداً إلى أنه يظلم عبيده الذين هم تحت قهره، وطوع مشيئته وأمره، ومتى لم يعرفوا حقه وأرادوا البغي على من يعرف حقه عاقبهم ولا بد، وإلا كان كفه ظلماً للمبغي عليهم.

ولما أشرق من آفاق هذا الوعظ شمس البعث ونور الحشر، لأنه لا يسوغ أصلاً أن ملكاً يدع عبيده يبغي بعضهم على بعض من غير إنصاف بينهم ونحن نرى أكثر الخلق يموت مقهوراً من ظالمه، ومكسوراً من حاكمه، فعلم قطعاً أن الموت الذي لم يقدر ولا يقدر أحد أصلاً أن يسلم منه إنما هو سوق إلى دار العرض وساحة الجزاء للقرض- كما جرت به عادة الملوك إذا وكلوا بمن يأمرون باحضاره إليهم لعرضه عليهم ليظهر التجلي في صفات الجبروت والعدل، ومظاهر الكرم الفضل قال: {ويا قوم} ولما كانوا منكرين للبعث أكد فقال: {إني أخاف} وعبر بأداة الاستعلاء زيادة في التخويف فقال: {عليكم} ولما كان قد سماه فيما مضى بالتلاقي والآزفة لما ذكر، عرف هنا أن الخلق فيه وجلون خائفون وأنهم لكثرة الجمع ينادُون وينادَون للرفعة أو الضعة وغير ذلك من الأمور المتنوعة التي مجموعها يدل على ظهور الجبروت وذل الخلق لما يظهر لهم من الكبرياء والعظموت فقال: {يوم التناد *} أي أهواله وما يقع فيه، فينادي الجبار سبحانه بقوله {ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدو الشيطان} وينادونه «بلى يا ربنا» وتنادي الملائكة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب «يا فلان ابن فلان أقبل لفصل النزاع» وينادي ذلك العبد «ألا سمعاً وطاعة» وينادي

الفائز «ألا نعم أجر العاملين» وينادي الخائب «ألا بئس منقلب الظالمين» وينادي أصـــحاب الأعراف وأهل الجنة أهل النار وأهل النار أهل الجنة وينادي الكل حين يذبح الموت، ويدعى كل أناس بإمامهم، وتتنادى الملائكة وقد أحاطوا بالثقلين صـفوفاً مترتبة ترتب السماوات التي كانوا بها بالتسبيح والتقديس، وترتفع الأصوات بالضجيج، بعضـهم بالسرور وبعضـهم بالويل والثبور، وتنادي ألسـن النيران: أي الجبارون أين المتكبرون، وتنادي الجنة، أين المشـمرون في مرضـاة الله والصـابرون، فيا له يوماً يذل فيه العصـاة العتاة ويعز المنكسـرة قلوبهم من أجل الله وقرأ ابن عباس رضـي الله عنهما في آخرين بتشـديد الدال من التناد على أنه مصـدر تنادّ من ند البعير- إذا هرب ونفر، وهو كقوله يوم

{يفر المرء من أخيه} [عبس: 34] وتقدم في حذف ياء التلاق وإثباتها ما يمكن الفطن تنزيله هنا . ولما كانت عادة المتنادين الإقبال، وصـــف ذلك اليوم بضـد ذلك لشـدة الأهوال فقال مبدلاً أو مبيناً: {يوم تولون مدبرين} أي حين تخرج ألســـنة النيران فتخطف أهل الكفران، وتزفر زفرات يخر أهل الموقف من خشـــيتها، فترى كل أمة جاثية ويفرون فلا يقصـــدون مكاناً إلا وجدوا به الملائكة صـــافين كما قال تعالى {والملك على أرجائها} [الحاقة: 17] وينادي المنادي {يا معشـــر الجن والإنس إن اسـتطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان} [الرحمن: 33].

ولما كان المدبر إنما يقصـــد في إدباره معقلاً يمنعه ويســـتره أو فئة تحميه وتنصره، قال مبيناً حالهم: {ما لكم من الله} أي الملك الجبار الذي لا ند له،

وأعرق في النفي فقال: {من عاصـم} أي مانع يمنعكم مما يراد فما لكم من عاصم أصلاً، فإنه سبحانه يجير ولا يجار عليه.

ولما كان التقدير: لضـلالكم في الدنيا فإن حالكم في ذلك اليوم مكتسب من احوالكم في هذا اليوم، عطف عليه قوله معمماً: {ومن يضلل اللهُ} أي الملك المحيط بكل شـــيء الباطن في اردية الجلال الظاهر في مظاهر القهر والجمال، إضـلالاً جبله عليه فهو في غاية البيان– بما أشار إليه الفلك {فما له من هاد *} أي إلى شيء ينفعه بوجه من الوجوه، وأما الضـلال العارض فيزيله الله لمن يشـاء من عباده، وهذا لا يعرف إلا بالخاتمة كما قاله الإمام أبو الحسن الأشعري: فمن مات على شيء فهو مجبول عليه.

ولما كان حاصـل ما مضـى من حالهم في أمر موسـى عليه السـلام أنه جاءهم بالبينات فشكوا فيها، وختم بتحذيرهم من عذاب الدنيا والآخرة، عطف عليه شـك آبائهم في مثل ذلك، فقال مبيناً أنهم مسـتحقون لما حذر منه العذاب ليشـكروا نعمة الله في إمهاله إياهم ويحذروا نقمته إن تمادوا وأكد لأجل إنكارهم أن يكونوا أتو ببينة، وافتتح بحرف التوقع لأن حالهم اقتضـت توقع ذلك ودعت إليه: {ولقد جاءكم} أي جاء آباءكم يا معشر القبط، ولكنه عبر بذلك دلالة على أنهم على مذهب الآباء كما جرت به العادة من التقليد، ومن أنهم على طبائعهم لا سـيما إن كانوا لم يفارقوا مسـاكنهم: {يوسـف} أي نبي الله ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسـحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ولما لم يكن مجيئه مستغرقاً لما تقدم موسى عليه السلام من الزمان أدخل الجار فقال: {من قبل} أي قبل زمن موسى عليه السلام: {بالبينات} أي الآيات الظاهرات ولا سيما في أمر يوم التناد {فما زلتم} بكسر الزاي من زال يزال أي ما برحتم أنتم تبعاً لآبائكم {في شك} أي محيط بكم لم تصلوا إلى رتبة الظن {مما جاءكم به} من التوحيد وما يتبعه، ودل على تمادي شكهم بقوله: {حتى إذا هلك} وكأنه عبر بالهلاك إيهاماً لهم أنه غير معظم له، وأنه إنما يقول ما يشعر بالتعظيم لأجل محض النصيحة والنظر في العاقبة {قلتم} أي من عند أنفسكم بغير دليل كراهة لما جاء به وتضجرا منه جهلاً بالله تعالى: {لن يبعث الله} أي الذي له صفات الكمال.

ولما كان مرادهم استغراق النفي حتى لا يقع البعث في زمن من الأزمان وإن قل، أدخل الجار فقال: {من بعده} أي يوسف عليه السلام {رسولا} وهذا ليس إقراراً منهم برسالته، بل هو ضم منهم إلى الشك في رسالته التكذيب برسالة من بعده، والحجر على الملك الأعظم في عباده وبلاده والإخبار عنه بما ينافي كماله.

ولما كان كأنه قيل: هذا ضلال عظيم هل ضل أحد مثله؟ أجيب بقوله: {كذلك} أي مثل هذا الضلال العظيم الشأن {يضل} وأبرز الاسم ولم يضمره لئلا يخص الإضلال بالحيثية الماضية، وجعله الجلالة تعظيماً للأمر لصلاحية الحال لذلك وكذا ما يأتي بعده {الله} أي بما له من صفات القهر {من هو مسرف} أي متعال في الأمور خارج عن الحدود طالب للارتفاع عن طور البشر.

ولما كان السياق للشك في الرسالة والقول بالظن الذي يلزم منه اتهام القادر سبحانه بالعجز أو مجانبة الحكمة قال: {مرتاب *} أي يشك فيما لا يقبل الشك ويتهم غيره بما لا حظّ للتهمة فيه، أي ديدنه التذبذب في الأمور الدينية، فلا يكاد يحقق أمراً من الأمور، ولا إسراف ولا ارتياب أعظم من حال المشرك فإنه منع الحق أهله وبذله لمن لا يستحقه بوجه، وهذه الآية دليل على أن القبط طول الدهر على ما نشاهده من أنه لا ثقة بدخولهم في الدين الحق، ولا ثبات لهم في الأعمال الصالحة.

▲ تفسير الآيات رقم [35– 39]

{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آَمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)
أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38)
يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)}

ولما ظهر ظهوراً لا يحتمل شكاً بما أتى به موسى عليه السلام من البينات أن شكهم في رسالة الماضي وجزمهم في الحكم بنفي رسالة الآتي أعظم ضلال وأنه من الجدال الذي لا معنى له إلا فتل المحق عما هو عليه من

الحق إلى ما عليه المجادل من الضـــلال، وصـــل بذلك قوله على ســـبيل الاســـتنتاج ذماً لهم بعبارة تعم غيرهم: {الذين} أي جدال من {يجادلون} أي يقاتلون ويخاصـمون خصـاماً شـديداً {في آيات الله} أي المحيطة بأوصـاف الكمال لا ســـيما الآيات الدالـة على يوم التنـاد، فإنهـا أظهر الآيات على وجوده سـبحانه وعلى ما هو عليه من الصـفات والأفعال وما يجوز عليه أو يستحيل.

ولما كان الجدال بالتي هي أحســـن مشـــروعاً، وهو بما أمر به قال: {بغير سـلطان} أي تسـليط ودليل {أتاهم} أي من عند من له الأمر كله {كبر} أي عظم هو، أي الجدال المقدر مضـــــافاً قبل {الذين} وبين ما أبهم من هذا العظم بتمييز محول عن الفاعل فقال: {مقتاً عند الله} أي الملك الأعظم {وعند الذين آمنوا} أي الذين هم خاصته.

ولما كان فاعل هذا لا يكون إلا مظلم القلب، فكان التقدير: أولئك طبع الله على قلوبهم، وصـــل به اســـتنئافاً قوله: {كذلك} أي مثل هذا الطبع العظيم {يطبع} أي يختم ختماً فيه العطب {الله} أي الذي له جميع العظمة {على كل قلب} ولما كان فعل كل ذي روح إنما هو بقلبه، نســـب الفعل إليه في قراءة أبي عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين عنه بالتنوين فوصـفه بقوله: {متكبر} أي متكلف ما ليس له وليس لأحد غير الله {جبار *} أي ظاهر الكبر قويّه قهار وقراءة الباقين بالإضـــافة مثلها ســـراء في أن الســـور داخل القلب ليعم جميع أفراده غير أن الوصـــــف بالكبر والجبروت للشـــــخص لا للقلب، وهي أبين من القراءة الشـــــاذة بتقديم القلب على كل لأن تقديم كل

نص في استغراق أفراد القلوب ممن اتصف بهذا الوصف، ومن المقطوع به أن آحاد القلوب موزعة على آحاد الأشـخاص لأنه لا يكون لشـخص أكثر من قلب بخلاف ما إذا قدم القلب فإنه قد يدعي أن الشـخص الواحد، وأن السـور لأجل جمعه لأنواع الكبر والجبروت فيكون المعنى: على قلب شخص جامع لكل فرد من أفراد التكبر والتجبر- والله الموفق.

ولما ذكر الطبع المذكور، دل عليه بما ذكر من قول فرعون وفعله عطفاً على ما مضى من قوله وقول المؤمن، فإنه قصد ما لا مطمع في نيله تيهاً وحماقة تكبراً وتجبراً لكثافة قلبه وفساد لبه، فصار به ضحكة لكل من سمعه هذا إن كان ظن أنه يصـل إلى ما أراد وإن كان قصـد بذلك التلبيس على قومه للمدافعة عن اتباع موسـى عليه السـلام إلى وقت ما فقد نادى عليهم بالجهل، والإغراق في قلة الحزم والشهامة والعقل، فقال تعال: {وقال فرعون} أي بعد قول المؤمن هذا، معرضـاً عن جوابه لأنه لم يجد فيه مطعناً: {يا هامان} وهو وزيره {ابنِ} وعرفه بشـدة اهتمامه به بالإضـافة إليه في قوله: {لي صرحاً} أي بناء ظاهراً يعلوه لكل أحد.

قال البغوي: لا يخفى على الناظر وإن بعد. وأصـله من التصـريح وهو الإظهار، وتعليله بالترجي الذي لا يكون إلا في الممكن دليل على أنه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق، فإن عاقلاً لا يعد ما رامه في عداد الممكن العادي فقال: {لعلي أبلغ الأسـباب *} أي التي لا أسـباب غيرها لعظمها.

ولما كان بلوغها أمراً عجيباً، أورده على نمط مشــوق عليه ليعطيه الســامع حقه من الاهتمام تفخيماً لشأنها، ليتشوف السامع إلى بيانها، بقوله: {أسباب السـماوات} أي الأمور الموصـلة إليها، وكل ما أداك إلى شـيء فهو سـبب إليه.

ولما ذكر هذا السـبب، ذكر المسـبب عنه فقال: {فاطَّلع} أي فلعله يتسـبب عن ذلك ويتعقبه أني أتكلف الطلوع {إلى إله موسـى} فيكون كما ترى عطفاً على {أبلغ}، ونصبه حفص عن عاصم على الجواب تنبيهاً على أن ما أبرزه الخبيث في عداد الممكن إنما هو تمني محال غير ممكن في العادة.

ولما كان من جملة إرادته بذلك مع إيقاف قومه إلى وقت ما عن المتابعة أن يخيلهم بأن يقول: طلعت فبحثت عما قال موســى فلم أقف له على صـحة، قدم لهم قوله مبيناً لحاله إذ ذاك لما ظن من ميل قلوبهم إلى تصديق موسى عليه السلام: {وإني لأظنه} أي موسى {كاذباً} فترك الكلام على احتمال أن يريد في الرســالة أو في الإلهية. ولما كان هذا أمراً عجيباً، وهو كون أحد يظن أنه يخيل للعقول أنه يصـعد إلى السـماء، وأن الإله الذي هو غني عن كل شيء وقد كان ولا شيء معه يكون في السماء، أو في محل من المحال، فإن كل حال في شــيء يحتاج إلى محله، وكل محتاج عاجز ولا يصــلح العاجز للإلهية لو لم يجئ عن الله لما كان أهلاً لأن يصـدق، فكان التقدير: عمله فرعون لأنا زيناه له، عطف عليه زيادة في التعجيب: {وكذلك} أي ومثل ذلك التزيين العظيم الشــأن اللاعب بالألباب. ولما كان الضــار هو التزيين لا المزين الخاص، بناه للمفعول فقال: {زين} أي زين المزين النافذ

الأمر، وهو لله تعالى حقيقة بخلقه وإلزامه لأن كل ما دخل في الوجود من المحدثات فهو خلقه، والشيطان مجازاً بالتسبب بالوسوسة التي هي خلق الله تعالى {لفرعون سـوء عمله} في جميع أمره، فاقبل عليه راغباً فيه مع بعده من عقل أقل ذوي العقول فضـلاً عن ذوي الهمم منهم فضـلاً عن الملوك، وأطاعه فيه وقومه {وصُد} بنفسه ومنع غيره على قراءة الفتح، ومنعه الله- على قراءة الكوفيين ويعقوب بالضم {عن السبيل} أي التي لا سبيل في الحقيقة غيرها، وهو الموصلة إلى الله تعالى.

ولما كان هذا السياق بحيث يظن منه الظان أن لفرعون نوع تصرف، نفى ذلك بقوله: {وما كيد} واعاد الاسم ولم يضمره لئلا يخص بخيثية من الحيثيات فقال: {فرعون} أي في إبطال أمر موسى عليه السلام {إلا في تباب *} أي خسار وهلاك عظيم محيط به لا يقدر على الخروج منه، وما تعطاه إلا لأنه محمول عليه ومقهور فيه، كما كشف عنه الحال، فدل ذلك قطعاً على أنه لو كان له أدنى تصرف يستقل به لما أنتج فعله الخسار.

ولما كان فساد ما قاله فرعون أظهر من أن يحتاج إلى بيان، أعرض المؤمن عنه تصريحاً، ولوّح إلى ما حكاه الله عنه من أنه محيط به الهلاك تلويحاً في قوله منادياً قومه ومستعطفاً لهم ثلاث مرات: الأولى على سبيل الإجمال في الدعوة، والأخريان على سبيل التفصيل، فقال تعالى عنه: {وقال الذي آمن} أي مشيراً إلى وهي قول فرعون بالإعراض عنه، وعبر بالفعل إشارة إلى أنه ينبغي لأدنى أهل الإيمان أن لا يحقر نفسه عن الوعظ: {يا قوم} أي يا من لا قيام لي إلا بهم فأنا غير متهم في نصيحتهم {اتبعون} أي

كلفوا أنفسكم اتباعي لأن السعادة غالباً تكون فيما يكره الإنسان {أهدكم سبيل} أي طريق {الرشاد *} أي الهدى لأنه مع سهولته واتساعه موصل ولا بد إلى المقصود، وأما ما قال فرعون مدعياً أنه سبيل الرشاد لا يوصل إلا إلى الخسار، فهو تعريض به شبيه بالتصريح.

ولما كان هذا دعاء على سبيل الإجمال، وكان الداء كله في الإقبال على الفاني، والدواء كله في الإقدام على الباقي، قال استئنافاً في جواب من سأل عن تفصيل هذه السبيل مبيناً أنها العدول عما يفنى إلى ما يبقى محقراً للدنيا مصغراً لشأنها لأن الإخلاد إليها أصل الشر كله، ومنه يتشعب ما يؤدي إلى سخط الله {يا قوم} كرر ذلك زيادة في استعطافهم بكونهم أهله فهو غير متهم في نصحهم لأنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه. ولما كانت الأنفس لكونها مطبوعة على الوهم لا تعد الحاصل إلا الحاضر أكد فقال: {إنما هذه الحياة} وحقرها بقوله: {الدنيا} إشارة إلى دناءتها وبقوله: {متاع} إشارة إلى أنها جيفة لأنها في اللغة من جملة مدلولات المتاع، فلا يتناول منها إلا كما يتناول المضطر من الجيفة لأنها دار القلعة والزوال والتزود والارتحال.

ولما افتتح بذم الدنيا، ثنى بمدح الآخرة فقال: {وإن الآخرة} لكونها المقصودة بالذات {هي دار القرار *} التي لا تحول منها أصلاً دائم كل شيء من ثوابها وعقابها، فهي للتلذذ والانتفاع والترفه والاتساع لمن توسل إلى ذلك بحسن الاتباع أو للشقاوة والهلاك، لمن اجترأ على المحارم واستخف الانتهاك قال الأصفهاني: قال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً

والآخرة خزفاً باقياً، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان، والآخرة ذهب باق بل أشرف وأحسن.

وكما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب، فكان الترغيب في نعيم الجنان، والترهيب من عذاب النيران، من أعظم وجوه الترغيب والترهيب، فالآية من الاحتباك: ذكر المتاع أولاً دليلاً على حذف التوسع ثانياً، والقرار ثانياً دليلاً على حذف الارتحال أولاً.

▲ تفسير الآيات رقم [40- 44]

{مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41)

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43)

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44)}

ولما حرك الهمم بهذا الوعظ إلى الإعراض عن دار الأنكاد والأمراض، والإقبال على دار الجلال والجمال بخدمة ذي العز والكمال، قال في جواب من سأل عن كيفية ذلك ما حاصله أنه بالإقبال على محاسن الأعمال، وترك السيء من الخلال، واصلاً بذلك على طريق البيان للبيان، ذاكراً عاقبة كل ليثبط عما يتلف، وينشط لما يزلف، مشيراً إلى جانب الرحمة أغلب،

مقدماً لما هم عليه من الســوء محذراً منه ليرجعوا {من عمل ســيئة} أي ما يسوء من أي صنف كان: الذكور والإناث والمؤمنين والكافرين {فلا يجزى} أي من الملك الذي لا ملك ســواه {إلا مثلها} عدلاً لا يزاد عليها مقدار ذرة ولا أصــغر منها ويدخل النار إن لم يكن له ما يكفرها، فهذا هو الملك الذي ينبغي الإقبال على خدمته لكونه الحكم العدل القادر على الجزاء والمســاواة في الجزاء، فالكافر لما كان على عزم إدامه الكفر كان عذابه دائماً والفاسق لما كان على نية التوبة لاعتقاده أنه في معصـية وشـر كان عذابه منقطعاً، والآية على عمومها، وما خرج منها بدليل كان مخصــوصــاً فيخرج عليها جميع باب الجنايات وغيره، ومن قال: إنها في شــيء معين، لزمه أن تكون مجملة، لأن ذاك المعين غير مذكور، والتخصــيص أولى من الإجمال كما قال أهل الأصول.

ولما بين العدل في العقاب، بين الفضــل في الثواب، تنبيهاً على أن الرحمة سبقت الغضب فقال: {ومن عمل صالحاً} أي ولو قل. ولما كان من يعهدون من الملوك إنما يســتعملون الأقوياء لاحتياجهم، بين أنه على غير ذلك لأنه لا حاجة به أصـلاً فقال: {من ذكر أو أنثى} ولما كان العمل لا يصـح بدون الإيمان قال مبيناً شـرطه: {وهو} أي عمل والحال أنه {مؤمن} ولما كان في مقام الترغيب في عدله وجوده وفضــله، جعل الجزاء مســبباً عن الأعمال فقال: {فأولئك} أي العالو الهمة والمقدار {يدخلون الجنة} أي بأمر من له الأمر كله بعد أن ضــاعف لهم أعمالهم فضــلاً، والآية من الاحتباك: ذكر المساواة أولاً عدلاً يدل على المضاعفة ثانياً فضلاً، وذكر إدخال الجنة ثانياً

يدل على إدخال النار أولاً، وسره أنه ذكر فضله في كل من الشقين {يرزقون فيها} أي من غير احتياج إلى تحول أصلاً ولا إلى أسباب، ولعل ذلك من أسرار البناء للمفعول {بغير حساب *} لخروج ما فيها بكثرته عن الحصر، فإن أدنى أهلها منزلة لو أضاف كل أهل الأرض لكفاهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، وهذا من باب الفضل، وفضل الله لا حد له، ورحمته غلبت غضبه، وأما جزاء السيئة فمن باب العدل، فلذلك وقع الحساب فيها لئلا يقع الظلم، قال الأصبهاني: فإذا عارضنا عمومات الوعيد بعمومات الوعد ترجح الوعد لسبق الرحمة الغضب، فأنهدمت قواعد المعتزلة.

ولما بلغ النهاية في نصحهم، وختم بإعلامهم بأن الناس قسمان: هالك وناج، وكان حاصل إرادتهم لأن يكون على ما هم عليه الهلاك بالنار، قال مبكتاً لهم بسوء مكافأتهم منادياً لهم مكرراً للنداء لزيادة التنبيه والإيقاظ من الغفلة. والتذكير بأنهم قومه واعضاده، وعاطفاً على ندائه السابق لأنه غير مفصل له ولا داخل في حكمه: {ويا قوم ما} أي أيّ شيء من الحظوظ والمصالح {لي} في أني {أدعوكم إلى النجاة} والجنة بالإيمان شفقة عليكم ورحمة لكم واعترافاً بحقكم {و} مالكم من ذلك في كونكم {تدعونني إلى النار *} والهلاك بالكفران، فالآية من الاحتباك: ذكر النجاة الملازمة للايمان أولاً دليلاً على حذف الجنة أولاً، ومراده هزهم وإثارة عزائمهم إلى الحياة منه بتذكيرهم أن ما يفعلونه معه ليس من شيم أهل المروءة يجازونه على إحسانه إليهم بالإساءة.

ولما أخبر بقلة إنصـافهم إجمالاً، بينه بقوله: {تدعونني} أي توقعون دعائي إلى معبوداتكم {لأكفر} أي لأجل أن أكفر {بالله} أي أسـتر ما يجب إظهاره بسـبب الذي أناله لأن له كل شـيء وله مجامع القهر والعز والعظمة والكبر {وأشـرك} أي أوقع الشـرك {به} أي أجعل له شـريكاً. ولما كان كل ما عداه سـبحانه ليس له من ذاته إلا العدم، أشـار إلى حقارته بالتعبير بأداة ما لا يعقل فقال: {ما ليس لي به علم} أي نوع من العلم بصـلاحيته لشـيء من الشـركة، فهو دعاء إلى الكذب في شـيء لا يحل الإقدام عليه إلا بالدليل القطعي الذي لا يحتمل نوعاً من الشـرك، وإذا لم يكن به علم لم يكن له عزة ولا مغفرة، فلم يكن له وجود لأن الملك لازم الإلهية وهو أشـهر الأشـياء، فما ادعى له أشـهر الأشـياء، فكان بحيث لا يعرف بوجه من الوجوه، كان عدماً محضاً.

ولما بين أنهم دعوه إلى ما هو عدم فضـلاً عن أن يكون له نفع أو ضـر في جملة فعليه إشـارة إلى بطلان دعوتهم وعدم ثبوتها، بين لهم أنه دعاهم إلا إلى ما له الكمال كله، ولا نفع ولا ضر إلا بيده، فقال مشيراً بالجملة الاسمية إلى ثبوت دعوته وقوتها: {وأنا ادعوكم} أي أوقع دعاءكم الآن وقبله وبعده {إلى العزيز} أي البالغ العزة الذي يغلب كل شـيء ولا يغلبه شـيء. ولما وصفه بهذا الوصف ترهيباً، صح قطعاً وصفه ترغيباً بقوله: {الغفار *} أي الذي يتكرر له دائماً محو الذنب عيناً وأثراً ولا يقدر على ذلك غير من هو بصفة العزة، ومن صح وصفه بهذين الوصفين فهو الذي لا يجهل ما عليه،

من صفات الكمال أحد، فالآية من الاحتباك: ذكراً أولاً عدم العلم دليلاً على العلم ثانياً، وثانياً العزة والمغفرة دليلاً على حذفهما أولاً.

ولما كان انتفاء العلم بالشيء من أهل العلم انتفاء ذلك الشيء في أصول الدين، كان ما دعوه إليه باطلاً، وكان ما دعاهم إليه هو الحق، فلذلك أنتج قطعاً قوله: {لا جرم} وهي وإن كانت بمعنى: لا ظن ولا اضطراب أصلاً- كما مضى في سورة هود عليه السلام فيها معنى العلة، أي فلأجل ذلك لا شك في {أنما} أي الذي {تدعونني إليه} من هذه الأنداد {ليس له دعوة} بوجه من الوجوه، فإنه لا يقوم عليها دليل بل ولا شبهة موهمة {في الدنيا} التي هي محل الأسباب، الظاهرة لأن شيئا منه ليس له واحد من الوصفين {ولا في الآخرة} لأن ما لا تعلم إلهيته كذلك يكون {وإن} أي ولا اضطراب في أن {مردنا} أي ردنا العظيم بالموت وموضع ردنا ووقته منتهٍ {إلى الله} أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال لما اقتضته عزته، فيجازي كل أحد بما يستحقه {وأنَّ} أي ولا شك في أن {المسرفين} أي المجاوزين للحدود العريقين في هذا الوصف {هم} أي خاصة لأجل حكم الله بذلك عليهم {أصحاب النار *} أي الذين يخلدون فيها لا يفارقونها كما يقتضيه معنى الصحبة لأن إسرافهم اقتضى إسراف ملازمتهم للنار التي طبعها الإسراف، وقد علم أن ربها لا يجزي بالسيئة إلا مثلها.

ولما تقرر أنه لا أمر لغير الله وأنه لا بد من المعاد، تسبب عنه بقوله: {فستذكرون} أي قطعاً بوعد لا خلف فيه مع القرب {ما أقول لكم} حين لا ينفعكم الذكر في يوم الجمع الأعظم والزحام الذي يكون فيه القدم على القدم

إذا رأيتم الأهوال والنكال والزلزال إن قبلتم نصـــحي وإن لم تقبلوه. ولما ذكر خوفهم الذي لا يحميهم منه شـــيء ذكر خوفه الذي هو معتمد فيه على الله ليحيمه منه فقال عاطفاً على «سـتذكرون» غير مراعى فيها معنى السـين: {وأفوض} أي أنا الآن بسبب أنه لا دعوة لغير الله {أمري} فيما تمكرونه بي {إلى الله} أي الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة فهو يحميني منكم: إن شاء، قال صـاحب المنازل: التفويض ألطف إشـارة وأوسـع من التوكل بعد وقوع السـبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاسـتسـلام، والتوكل شـعبة منه، وهو على ثلاث درجات: الأولى أن تعلم أن العبد لا يملك قبل علمه اســـتطاعة، فلا يأمن من مكر، ولا ييأس من معونة، ولا يعول على نية، والثانية معاينة الاضـــطرار فلا ترى عملاً منجياً ولا ذنباً مهلكاً ولا ســـبباً حاملاً، والثالثة شـهود انفراد الحق بملك الحركة والسـكون والقبض والبسـط والتفريق والجمع.

ولما علق تفويضـه بالاسـم العلم الجامع المقتضـي للإحاطة، على ذلك بياناً لمراده بقوله مؤكداً لأن عملهم في مكرهم به عمل من يظن أن ســـبحانه لا يبصـرهم ولا ينصـره {إن الله} وكرر الاسم الأعظم بياناً لمراده بأنه {بصـير} أي بالغ البصـــر {بالعباد *} ظاهراً وباطناً، فيعلم من يســـتحق النصـــرة لاتصـــافه بأوصـــاف الكمال ويعلم من يمكر فيرد مكره عليه بما له من الإحاطة.

▲ تفسير الآيات رقم [45- 50]

{فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآَلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45)
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)
وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47)
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48)
وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49)
قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50)}

ولما تسبب عن نصحه هذا لهم والتجائه إلى ملك الملوك حفظه منهم على عظم الخطر، قال تعالى مخبراً أنه صدق ظنه {فوقاه الله} أي جعل له وقاية تجنه منهم بما له سبحانه من الجلال والعظمة والكمال جزاء على تفويضه {سيئات} أي شدائد {ما مكروا} ديناً ودنيا، فنجاه مع موسى عليه السلام تصديقاً لوعده سبحانه بقوله {أنتما ومن اتبعكما الغالبون} [القصص: 35] ولما كان المكر السيء لا يحيق إلا بأهله قال: {وحاق} أي نزل محيطاً بعد إحاطة الإغراق {بآل فرعون} أي كلهم فرعون وأتباعه لأجل إصرارهم على الكفر ومكرهم، فالإحاطة بفرعون من باب الأولى وإن لم نقل : أن الآل

مشــترك بين الشــخص والأتباع، لأن العادة جرت أنه لا يوصــل إلى جميع أتباع الإنســان إلا بعد إذلاله وأخذه فهو مفهوم موافقة {ســوء العذاب *} أي العقوبة المانعة من كل مستعذب، ثم بين ذلك بقوله: {النار} أي حال كونهم {يُعرضون عليها} أي في البرزخ {غدواً وعشياً} أي غادين ورائحين في وقت استرواحهم بالأكل واستلذاذهم به- هذا دأبهم طول أيام البرزخ، وكان عليهم في هذا العرض زيادة نكد فوق ما ورد عاماً مما روى مالك والشـــيخان وغيرهم عن أن ابن عمر رضـــي الله عنهما أن رســول الله صــلى الله عليه وسلم قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» ولعل زيادة النكد أنهم هم المعروضــون، فيذهب بهم في الأغلال يســاقون لينظروا ما أعد الله لهم، وعامة الناس يقتصــر في ذلك على أن يكشــف لهم- وهو في محالّهم- عن مقاعدهم، ففي ذلك زيادة إهانة لهم، وهو مثل : عرض الأمير فلاناً على السيف إذا أراد قتله، هذا دأبهم إلى أن تقوم الساعة {ويوم تقوم الساعة} يقال لهم: {ادخلوا آل} أي يا آل {فرعون} هو نفسه وأتباعه لأجل اتباعهم له فيما أضـــــلهم به، وجعله نافع وحمزة والكســـائي ويعقوب وحفص فعل أمر من الإدخال، فالتقدير : نقول لبعض جنودنا : أدخلوا آله لأجل ضــلالهم به اليوم {أشــد العذاب} وإذا كان هذا لآله لأجله كان له أعظم منه من باب الأولى، وهذه الآية نص في عذاب القبر كما نقل عن عكرمة ومحمد بن كعب.

ولما كان هذا من خبر موسى عليه السلام وفرعون أمراً غريباً جداً، قل من يعرفه على ما هو عليه، لأنه من خفي العلم، أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: {وإذ} أي اذكر لهم هذا الذي أنبأناك به مما كان في الزمن الأقدم، ولا وصول له إليك إلا من جهتنا، لأنهم يعلمون قطعاً أنك ما جالست عالماً قط، واذكر لهم ما يكون في الزمن الآتي حين {يتحاجون} أي هؤلاء الذين نعذبهم {في النار} أي يتخاصمون فيما أتباعهم ورؤساؤهم بما لا يغنيهم: {فيقول الضعفاء} أي الأتباع {للذين استكبروا} أي طلبوا أن يكونوا كبراء.

ولما كانوا لشدة ما هم فيه يتبرأ كل منهم من صاحبه. أكدوا قولهم: {إنا كنا لكم} أي دون غيركم {تبعاً} أي أتباعاً، فتكبرتم على الناس بنا، وهو عند البصريين يكون واحداً كجمل ويكون جمعاً كخدم جمع خادم، ولعله عبر به إشارة إلى أنهم كانوا في عظيم الطواعية لهم على قلب رجل واحد ولما كان الكبير يحمي تابعه، سببوا عن ذلك سؤالهم فقالوا: {فهل أنتم} أي أيها الكبراء {مغنون} أي كافون ومجزون وحاملون {عنا نصيباً من النار *}.

ولما أتى بكلام الضعفاء مضارعاً على الأصل، وإشارة مع تصوير الحال لأنه أقطع إلى طول خصامهم لأنه أشد في إيلامهم، فتشوف السامع إلى جوابهم، استأنف الخبر عنه بصيغة الماضي تأكيداً لتحقيق وقوعه رداً قد يتوهمه الضعيف من أن المستكبر له قوة المدافعة وإباء الأنفة فقال: {قال الذين استكبروا} أي من شدة ما هم فيه. ولما كان الأتباع قد ظنوا أن المتبوعين يغنون عنهم، أكدوا إخبارهم لهم بما ينافي ذلك فقالوا: {إنّا كل} أي كلنا كائنون {فيها} أي النار، كل يناله من العذاب بقدر ما يستحقه سواء

إن جادلتمونا أو تركتم جدالنا ولا يظلم بك أحداً، فلة قدرنا على شيء لأغنينا عن أنفســـنا، ولو ســـألنا أن نزاد أو ننقص لما أجبنا . فإن هذه دار العدل فاتركونا وما نحن فيه.

ولما كان حكم الله تعالى مانعاً مما كان يفعل في الدنيا من فك المجرم وإيثاق غيره به، وكان سـؤالهم في الإغناء سـؤال من يجوز أن يكون حكمه على ما عليه الأحكام من حكام أهل الدنيا، عللوا جوابهم مؤكدين فقالوا: {إن الله} أي المحيط بأوصاف الكمال {قد حكم بين العباد *} أي بالعدل، فأدخل أهل الجنة دارهم، وأهل النار نارهم، فلا يغني أحد عن أحد شيئاً.

ولما دل على أنه لا يغني أحد عن أحد شـيئاً، أخبر انهم لما رأوا بعدهم من الله وأنهم ليسـوا بأهل لدعائه سـبحانه، علقوا آمالهم بتوسـط الملائكة، فأخبر عن ذلك منهم بقوله: {وقال الذين في النار} أي جميعاً الأتباع والمتبوعون {لخزنة} ووضع موضع الضمير قوله: {جهنم} للدلالة على أن سؤالهم لأهل الطبقة التي من شـأنها وشـأن خزنتها تجهم داخليها ليدل على أنهم لسـوء ما هم فيه لا يعقلون، فهم لا يضـــعون شـــيئاً في محله كما كانوا في الدنيا : {ادعوا ربكم} أي المحسـن إليكم بأنكم لا تجدون ألماً من النار {يخفف عنه يوماً} أي مقداره {من العذاب *} أي بعضه.

ولما سألوهم، استأنفوا جوابهم إشارة إلى ما حصل من تشوف السامع إليه، معرفين لهم بسـياقه بالسـبب، الجاعل لهم في محل الاطراح والسـفول عن التأهل لأن يســمع لهم كلام، فقال تعالى مخبراً عنهم: {قالوا} أي الخزنة. ولما كان التقدير : ألم تكن لكم عقول تهديكم إلى الاعتقاد الحق، عطف

عليه قوله إلزاماً لهم الحجة وتوبيخاً وتنديماً بتفويت أوقات الدعاء المجاب : {أولم} ولما كان المقام خطراً، والمرام وعراً عســـراً، فكانوا محتاجين إلى الإيجاز، قالوا مشـــيرين بذكر فعل الكون مع اقتضـــاء الحال للإيجاز إلى عراقة الرســل عليهم الســلام في النصــح المنجي من المخاوف بالمعجزات والرفق والتلّطف وطول الأناة والحلم والصبر مع شرف النسب وطهارة الشيم وحسن الأخلاق وبداعة الهيئات والمناظر ولطافة العشرة وجلالة المناصب: {تك} بإسقاط النون مع التصوير للحال بالمضارع {تأتيكم} على سبيل التجدد شـئياً في أثر شــيء {رسـلكم} أي الذين هم منكم فأنتم جديرون بالإصـغاء إليهم والإقبال عليهم، لأن الجنس إلى الجنس أمثل، والإنســان من مثله أقبل {بالبينات} أي التي لا شـيء أوضـح منها {قالوا} أي الكفار: {بلى} أي أتونا كذلك، ثم اســتأنفوا جوابهم لما حصــل من التشــوف إليه بما حاصــله عدم إجابتهم فســببوا عن إخبارهم بعدم إجابتهم للرســل عدم إجابة دعائهم فقال تعالى مخبراً عنهم: {قالوا} أي الخزنة: {فادعوا} أي أنتم الآن الله أو أهل الله من رسل البشر أو الملائكة أو غيرهم، أو لا تدعوا فإنه لا يسمع لكم.

ولما كان أمرهم بالدعاء موجباً لأن يظنوا نفعه، أتبعوه بما أيأســهم لأن ذلك أنكأ وأوجع وأشـد عليهم وأفظع بقولهم: {وما} دعاؤكم– هكذا كان الأصـل، ولكنه أتى بالوصــف تعليقاً للحكم به فقال: {دعاءُ الكافرين} أي الســاترين لمرائي عقولهم عن أنوار العقل المؤيد بصحيح النقل {إلا في ضلال *} أي ذهاب في غير طريق موصل كما كانوا هم في الدنيا كذلك فإن الدنيا مزرعة

الآخرة، من زرع شـيئاً في الدنيا حصـده في الآخرة، والآخرة ثمرة الدنيا لا تثمر إلا من جنس ما غرس في الدنيا.

▲ تفسير الآيات رقم [51– 55]

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51)
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)
وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53)
هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54)
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55)}

ولما كان حاصـل ما مضـى من هذا القص الذي هو أحلى من الشـراب، وأغلى من الجوهر المنظم في أعناق الكواعب الأتراب، لأنه سـبحانه نصـر الرسـل على أممهم حين هموا بأخذهم، فلم يصـلوا إليهم ثم أهلكهم الله هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فعذبهم أشـد العذاب، وكذلك نصـر موسـى عليه السـلام والمؤمن الذي دافع عنه، وكان نصـر اهل الله قاطبة خفياً، لأنهم يُبتلون ثم يكون لهم العاقبة، فكان أكثر الجامدين وهم أكثر الناس يظن أنه لا نصـره لهم، قال الله تعالى لافتاً القول إلى مظهر العظمة، لأن النصـرة عنها تكون على سبيل الاستنتاج مما مضـى مؤكداً تنبيهاً للأغبياء على ما يخفى عليهم: {إنا} أي بما لنا من العظمة {لننصـر رسـلنا} أي على من ناوأهم {والذين آمنوا} أي اتسموا بهذا الوصف وإن كانوا في أدنى رتبة.

ولما كانت الحياة تروق وتحلو بالنصـــرة وتتكدر بضـــدها، ذكرها لذلك ولئلا يتوهم لو ســـقطت أن نصـــرتهم تكون رتبتها دنية فقال: {في الحياة الدنيا} بالزامهم طريق الهدى الكفيلة بكل فوز وبالحجة والغلبة، وإن غلبوا في بعض الأحيان فإن العاقبة تكون لهم، ولو بأن يقيض سـبحانه لأعدائهم من يقتض ولو بعد حين، وأقل ذلك أن لا يتمكن أعداؤهم من كل ما يرون منهم {ويوم يقوم الأشـهاد *} أي في الدار الآخرة من الملائكة والنبيين وسـائر المقربين، جمع شهيد كشريف وأشراف، إشارة إلى أن شهادتهم بليغة في بابها، لما لهم من الحضـور التام، وإلى ذلك يشـير تذكير الفعل والتعبير بجمع القلة، ولكن الجياد قليل مع أنهم بالنســبة إلى أهل الموقف كالشــعرة البيضـــاء في جلد الثور الأســـود، وإنما عبر بذلك إشـــارة إلى أهل الحكم بصـــفات الجبروت للقسط، فيرفع أولياءه بكل اعتبار، ويهين أعداءهم كل إهانة.

ولما وصـــف اليوم الآخر بما لا يفهمه كثير من الناس، أتبعه ما أوضـــحه على وجه بين نصـــره لهم غاية البيان، فقال مبدلاً مما قبله: {يوم لا ينفع الظالمين} الذين كانوا عريقين في وضـــع الأشـــياء في غير مواضـــعها {معذرتهم} أي اعتذارهم وزمانه ومكانه- بما أشـار إليه كون المصـدر ميمياً ولو جل- بما أشـار إليه قراءة التذكير للفعل فعلم بذلك أنهم لا يجدون دفاعاً بغير الاعتذار وأنه غير نافعهم لأنهم لا يعتذرون إلا بالكذب {والله ربنا ما كنا مشـركين} [الأنعام: 23] أو بالقدر {ربنا غلبت علينا شقوتنا} [المؤمنون: 106] {ولهم} أي خاصـة {اللعنة} أي البعد عن كل خير، مع الإهانة بكل ضـير {ولهم} أي خاصـة {سوء الدار *} وهي النار الحاوية لكل سوء- هذا

مع ما يتقدمها من المواقف الصـــعبة، وإذا كان هذا لهم فما ظنك بما هو عليهم، وقد علم من هذا أن لأعدائهم- وهم الرســـل وأتباعهم- الكرامة والرحمة ولهم قبول الاعتذار وحســـن الدار، فظهرت بذلك أعلام النصـــرة، وصح ما أخبر به من تمام القدرة.

ولما كان التقدير: فلقد نصـــرنا موســـى رســـولنا مع إبراق فرعون وإرعاده، عطف عليه قوله دالاً على الكرامة والرحمة، مؤكداً لإزالة ما اســـتقر في النفوس من أن ملوك الدنيا لا يغلبهم الضـــعفاء: {ولقد آتينا} أي بما لنا من العزة {موسى الهدى} أي في الدين اللازم منه أن يكون له العاقبة وإن تناهت ضخامة من يعانده، لأنه ضال عن الهدى، والضال هالك وإن طال المدى، وذلك بما آتيناه من النبوة والكتاب.

ولما كانت النبوة خاصـــة والكتاب عاماً قال: {وأورثنا} أي بعظمتنا {بني إسـرائيل} بعد ما كانوا فيه من الذل {الكتاب *} أي الذي أنزلنا عليه وآتيناه الهدى به- وهو التوراة- إيتاء هو كالإرث لا ينازعهم فيه أحد، ولا أهل له في ذلك الزمان غيرهم، حال كونه {هدى} أي بياناً عاماً لكل من تبعه {وذكرى} أي عظة عظيمة {لأولي الألباب *} أي القلوب الصـافية والعقول الوافية الشافية، فذكر إيتاء موسى الثمرة وذكر إيراثهم السبب إشارة إلى أنهم من جنى ثمرته فاهتدي، ومنهم من ضـــل، وذلك تحذير للاتباع، وتشـــريف للأنبياء بما نالوه من مراتب الارتفاع.

ولما كان التقدير بعد أن تقدم الوعد المؤكد بنصـــرة الرســـل وأتباعهم: ولقد آتيناك الهدى والكتاب كما آتينا موسـى، ولننصـرنك مثل ما نصـرناه وإن زاد

إبراق قومك وإرعادهم، فإنهم لا يعشـــرون فرعون فيما كان فيه من الجبروت والقهر والعز والســـلطان والمكر ولم ينفعه شــــيء منه، ســـبب عنه قوله: {فاصبر} أي على أذاهم فإنا نوقع الأشياء في أتم محالها على ما بنينا عليه أحوال هذه الدار من إجراء المســــببات على أســــبابها، ثم علل ذلك بقوله صــــارفاً القول عن مظهر العظمة الذي هو مدار النصــــرة إلى اســـم الذات الجامع لجميع الكمالات التي من أعظمها إنفاذ الأمر وصــــدق الوعد: {إن وعد الله} أي الذي له الكمال كله {حق} أي في إظهار دينك وإعزاز أمرك، فقد رأيت ما اتفق لموسى عليه السلام مع أجبر أهل ذلك الزمان وما كان له من العاقبة، قال القشيري: الصبر في انتظار الموعود من الحق على حسب الإيمان والتصــــديق، فمن كان تصــــديقه ويقينه أتم وأقوى كان صــــبره أكمل وأوفى.

ولما تكفل هذا الكلام من التثبيت بانجاز المرام، وكان من الأمر المحتوم أن لزوم القربات يعلى الدرجات فيوصل إلى قوة التصرفات، أمر بالإعراض عن ارتقاب النصر والاشتغال بتهذيب الأحوال لتحصيل الكلام، موجهاً الخطاب إلى أعلى الخلق ليكون من دونه من باب الأولى فقال: {واستغفر لذنبك} أي وهو كل عمل كامل لأن ذلك غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فتســــتن بك أمتك، وسماه ذنباً من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

ولما أمره بالاســــتغفار عند الترقية في درجات الكمال، المطلع على بحور العظمة ومفاوز الجلال، أمره بالتنزيه عن شــــائبة نقص والإثبات لكل رتبة كمال، لافتاً القول إلى صفة التربية والأحسان لأنه من أعظم مواقعها فقال:

{وسبح} أي نزه ربك عن شائبة نقص كلما علمت بالصعود في مدارج الكمال نقص المخلوق في الذات والأعمال ملتبساً {بحمد ربك} أي إثبات الإحاطة باوصاف الكمال للمحسن إليك المربي لك، ولا تشتغل عنه بشيء فإن الأعمال من أسباب الظفر. ولما كان المقام لإثبات قيام الساعة، وكان العشي أدل عليها، قدمه فقال: {بالعشي والإبكار *} فإن تقلبهما دائماً دل على كمال مقلبهما وقدرته على إيجاد المعدوم الممحوق كما كان وتسويته، ومن مدلول الآية الحث على صلاتي الصبح والعصر، وهما الوسطى لأنهما تشهدهما ملائكة الليل وملائكة النهار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل على الصلوات الخمس– نقله البغوي. وذلك لأن العشى من زوال الشمس، والأبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

▲ تفسير الآيات رقم [56 –61]

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58)

إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61)}

ولما كان الأمر بشــغل هذين الوقتين أمراً بشــغل غيرهما من باب الأولى، لأن أول النهار وقت الاشــتغال بالأعمال والاهتمام بالابتداء والتمام، وآخره وقت التهيؤ للراحة والمقيل بالأكل والشــرب وما يتبعهما، وكان ذلك موجباً للاشتغال عن أعداء الدين رأساً، وكان ذلك أمراً على النفوس شاقاً علله بما يقتضــي المداومة على الأعمال والإعراض عنهم لأن خذلانهم أمر قد فرغ منه فقال معللاً للمداومة على الطاعة: {إن الذين يجادلون} أي يناصــبون بالعداوة لنقل أهل هذا الدين عنه إلى ما هم عليه من الباطل، ولفت القول إلى الجلالة الدالة على نهاية العظمة تهويناً لشأنهم فقال: {في آيات الله} أي الملك الأعظم الدالة على تمام قدرته اللازم منه قدرته على البعث الذي في تذكره صلاح الدين والدنيا {بغير سلطان} أي أمر مسلط ودليل مسلك {أتاهم إن} أي ما {في صدورهم} بصدودهم عن سواء السبيل، وآذن ذكر الصدور دون القلوب لعظم الكبر جداً بأنه قد ملأ القلوب وفاض منها حتى شــغل الصدور التي هي مساكنها {إلا كبر} أي عن اتباع الحق مع إشراق ضيائه واعتلاء لألائه إرادة إطفائه أو إخفائه، والكبر إرادة التقدم والتعظم والرئاســة، وأن يكون مريد ذلك فوق كل أحد {ما هم ببالغيه} أي ببالغي مقتضــاه من إبطال الدين تكبراً عن أن يكونوا تحت أوامره، لا يبلغون ذلك بوجه من الوجوه، ولا بد أن يظهر الدين بنصــر الرسـول ومن تبعه من المؤمنين على

أهل الكتاب والمشركين وغيرهم من أنواع الكافرين، ثم يبعثون فيكون أعداؤهم أسفل سافلين صغرة داخرين.

ولما ظهر من أول هذا الكلام وآخره تصريحاً وتلويحاً بما أفاده أسلوب كلام القادرين المصوغ لأعم من يمكن أن يخطر في البال أنه تعالى وصف نفسه في مطلع السورة بأنه غالب لكل شيء ولا يغلبه شيء وأن الذي بهم إنما هو إرادة أن يكونوا عالين غالبين، عنه قوله تعالى: {فاستعذ} أي اطلب العوذ {بالله} المحيط بكل شيء من شر كبرهم كما عاذ به موسى عليه السلام لينجز لك ما وعدك كما أنجز له، ثم علل ذلك بقوله: {إنه} أي على ما له من البطون {هو} أي وحده {السميع} لكل ما يمكن أن يسمع. ولما كان السياق للعياذ من شياطين الإنس الذين لهم المكر الظاهر والباطن، ختم بقوله: {البصير *} الصالح للبصر والبصيرة فيعم المحسوس والمعلوم، وختم آيتي الأعراف وفصلت المسبوقتين لنزغ الشيطان الذي هو وساوس وخطرات باطنة بالعليم.

ولما كان أعظم النظر في آية المجادلة المكررة من أول السورة إلى هنا إلى البعث وصيرورة العباد إلى الله بالحشر ليقع فيه الحكم الفصل، وتتحقق نصرة الأنبياء وأتباعهم يوم يقوم الأشهاد، دل على قدرته عليه بما هو كالتعليل لما نفى في آية المجادلة من بلوغهم لما قصدوا من الكبر، فقال مؤكداً تنزيلاً للمقر العالم منزلة الجاهل المعاند لمخالفة فعله لاعتقاده: {لخلق السماوات} أي خلق الله لها على عظمها وارتفاعها وكثرة منافعها واتساعها {والأرض} على ما ترون من عجائبها وكثرة متاعها {أكبر} عند

كل من يعقل من الخلق في الخلق {من خلق الناس} أي خلق الله لهم لأنهم شـعبة يسـيرة من خلقهما، فعلم قطعاً أن الذي قدر على ابتدائه على عظمه قادر على إعادة الناس على حقارتهم {ولكن أكثر الناس} وهم الذين ينكرون البعث وغيره مما يمكن أن تتعلق به القدرة وصـح به السـمع {لا يعلمون *} أي لا علم لهم أصـلاً، بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم، فهم لا يستدلون بذلك على القدرة على البعث كما أن البهائم ترى الظاهر فلا تدرك به الباطن، بل هم أنزل رتبة من البهائم، لأن هذا النحو من العلم في غاية الظهور فهو كالمحسوس، فمن توقف فيه كان جماداً.

ولما ثبت بهذا القياس الذي لا خفاء به لا دافع له ولا مطعن فيه أن القادر على خلق الكبير ابتداء قادر على تسوية الصغير إعادة، وثبت به أيضاً أن خلق الناس ليس مستنداً إلى طبائع السماوات والأرض وإلا لتساووا في العلم والجهل، والقدر والهيئة والشكل، لأن اقتضاء الطبائع لذلك على حد سواء لا تفاوت فيه، وهي لا اختيار لها، وكان من الناس من يقول : إن هذا الإيجاد إنما هو للطبائع، ومن هؤلاء فرعون الذي مضـــى في هذه السـورة كثير من كشف عواره وإظهار عاره، دل على إبطاله بأن ذلك قول يلزمه التساوي فيما نشأ عن ذي الطبع لأن لا اختيار له ونحن نشاهد الأشياء مختلفة، فدل ذلك قطعاً على أنها غير مسـتندة إلى طبيعة بل إلى فاعل مختار، فكان التقدير بما أرشد إليه سياق الآية قطعاً مع ختمها بنفي العلم وعطف ما بعدها على غير مذكور : وأقلهم يعلمون، فثبت أن خالقهم الذي فاوت بينهم قادر مختار لا شـريك له، فإنه ما يسـتوي العالم والجاهل: {وما يسـتوي} أي بوجه من

الوجوه من حيث البصر {الأعمى والبصير *} وذلك موجب للعلم بأن استناد المتخالفين ليس إلى الطبيعة، بل إلى فاعل مختار.

ولما ذكر الظلام والنور الحسيين، أتبعه المعنويين نشراً مشوشاً ليكشف قسما الظلام قسمي النور إشارة إلى أن المهتدي عزيز الوجود، كالذهب الإبريز بين النقود، فقال: {والذين آمنوا{ أي أوجدوا هذه الحقيقة ثبتت أو لا {وعملوا الصالحات} كذلك فكانوا محسنين {ولا المسيء} أي الثابت الإساءة الذي كفر وعمل الصالحات، ووقع التغاير في العطف لأن المراد– والله أعلم– نفس التساوي بين أفراد الأعمى وأفراد البصير والمحسن والمسيء، ولكنه لما كان في المخاطبين الغبي والذكي، عطف البصير بغير «لا» ليكون ظاهر ذلك نفي المساواة بين نوعي الأعمى والبصير، لأن نفي المساواة بين أفراد الأنواع دقيق، واقتصر على الواو في عطف {الذين آمنو} لأنه لا ينتظم أن يراد جعل الأعمى والبصير فريقاً والمؤمن الموصوف فريقاً، وينتفي التساوي بينهما لأنه لا لبس في أن المؤمنين الموصوفين كالبصير، وليس فيهم من يتوهم مساواته للأعمى، فكان من الجلي معرفة أن المراد نفي مساواة الأعمى للبصير ونفي مساواة المؤمن الموصوف للمسيء، وزيدت «لا» في المسيء وعبر فيه بالإفراد إشارة للفطن إلى أن المراد نفي التساوي بين أفراد كل نوع لأن ذلك أدل على القدرة، وأنها بالاختيار، وهذا بخلاف الظلمات في سورة فاطر لأنه لو تركت «لا» هناك لتوهم متوهم أن المنفي المساواة بين الأعمى والبصير وبين الظلمات، فيوجد حينئذ الطعن بأن الظلمات مساوية لهما باعتبار أن الظلمة منها كثيف جداً لا يمكن نفوذ البصر فيه،

ومنها خفيف جداً يكون تسميته ظلاماً بالنسبة إلى النور الساطع، والآية من الاحتباك: ذكر عمل الصالحات أولاً دليلاً على ضدها ثانياً، والمسيء ثانياً دليلاً على المحسنين أولاً، وسره أنه ذكر الصلاح ترغيباً والإساءة ترهيباً.

ولما تقرر هذا على هذا النحو من الوضوح الذي لا مانع للإنسان من فهمه ورسوخه في علمه إلا عدم تذكره لحسه حتى في نفسه قال تعالى: {قليلاً ما يتذكرون} أي المجادلون أو أيها المجادلون أو الناس لأن المتذكر غاية التذكر- بما دل عليه الإظهار- منكم قليل- على قراءة الكوفيين بالخطاب لأنه أقوى في التبكيت، وأدل على الغضب.

ولما ثبت بهذا كله تمام القدرة وانتفى ما توهمه من لا بصر له من الطبائع ثبت قطعاً قوله: {إن الساعة} أي القيامة التي يجادله فيها المجادلون {لآتية} وعزتي! للحكم بالعدل في المقارنة بين المسيء والمحسن لأنه لا يسوغ في الحكمة عند أحد من الخلق أن يساوي أحد بين محسن عبيده ومسيئهم، فكيف يظن ذلك بأحكم الحاكمين الذي نشاهده يميت المسيء وهو في غاية النعمة والمعصية، والمحسن وهو في غاية البلاء والطاعة، والمظلوم قبل أن ينتصف من الظالم، ولهذا الأمر الظاهر قال: {لا ريب فيها} أي لا شك في إتيانها بوجه من الوجوه، لأفضي فيها بالعدل فأدخل فيها ناساً دار رحمتي، وآخرين نقمتي.

ولما وصل الحال في أمرها إلى حد لا خفاء به أصلاً، نفى الإيمان دون العلم فقال تعالى: {ولكن أكثر الناس} أي بما فيهم من النوس وهو الاضطراب، وراعى معنى الأكثر فجمع لأن الجمع أدل على المراد وأقعد

في التبكيت : {لا يؤمنون *} أي لا يجعلون المخبر لهم بإتيانها آمناً من التكذيب مع وضوح علمها لديهم، وما ذاك إلا لعناد بعضهم وقصور نظر الباقين على الحس.

ولما كان التقدير : فعل ذلك ربكم ليقضي بين عباده بالعدل فيدخل المحسن الجنة نصرة له، والمسيء النار خذلاناً وإهانة له، لما برز به وعده من أنه ينصر رسله وأتباعهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وقال لعباده كلهم: آمنوا لأسلمكم من غوائل تلك الدار، عطف عليه قوله: {وقال ربكم} أي المحسن إليكم بهدايتكم ووعدكم النصرة: {ادعوني} أي استجيبوا لي بأن تعبدوني وحدي فتسألوني ما وعدتكم به من النصرة على وجه العبادة، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم «الدعاء هو العبادة» فقد حصر الدعاء في العبادة سواء كانت بدعاء أو صلاة أو غيرهما، فمن كان عابداً خاضعاً لله تعالى بسؤال أو غيره كانت عبادته دعاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: وحدوني اغفر لكم. وعن الثوري أنه قيل له: ادع، فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء : {أستجب} أي أوجد الإجابة إيجاداً عظيماً كأنه ممن يطلب ذلك بغاية الرغبة فيه {لكم} في الدنيا أي بإيجاد ما دعوتم به، أو كشف مثله من الضر، أو إدخاره في الآخرة، ليظهر الفرق بين من له الدعوة ومن ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تتكلوا على ما سبق به الوعد فتتركوا الدعاء فتتركوا العبادة التي الدعاء مخها، فكل ميسر لما خلق له، قال القشيري، وقيل: الدعاء مفتاح الإجابة، وأسنانه لقمة الحلال- انتهى- والآية بمعنى آية البقرة {أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي} [آية: 186].

ولما كان السبب في ترك الدعاء في العادة الكبر، فكان كأنه قيل: ولا تتركوا دعائي تكونوا مســـتكبرين، علله ترهيباً في طيه ترغيب بقوله: {إن الذين يســـتكبرون} أي يوجدون الكبر، ودل على أن المراد بالدعاء العبادة بقوله: {عن عبادتي} أي عن الاســتجابة لي فيما دعوت من العبادة بالمجادلة في آيـاتي والإعراض عن دعـائي في جميع مـا ينوبهم في الشــــدة والرخـاء {ســيدخلون} بوعد لا خلف فيه {جهنم} فتلقاهم جزاء على كبرهم بالتجهم والعبوســـة والكراهة {داخرين *} أي صـــاغرين حقيرين ذليلين، فالآية من الاحتباك: ذكر الدعاء أولاً دليلاً على حذفه ثانياً، والعبادة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً. ولما ختم ذلك أيضـــاً بأمر الســـاعة، زاد في الدلالة عليه وعلى الفعل بالاختيار والحكمة التي لا يسوغ معها إهمال الخلق من غير حساب، في دار ثواب وعقاب، بعد الإتقان لدار العمل بالخطإ والصواب، فقال معللاً مفتتحاً بالاسـم الأعظم الذي لا يتخيل أن المسـمى به يهمل المتكبرين عليه مع الإبلاغ في الإحسان إليهم {الله} أي المحيط بصفات الكمال {الذي جعل لكم} لا غيره {الّيل} أي مظلماً {لتسـكنوا فيه} راحة ظاهرية بالنوم الذي هو الموت الأصـــغر، وراحة حقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة {والنهار مبصــــراً} لتنتشــــروا فيه باليقظة التي هي إحياء في المعنى، فالآية من الاحتباك: حذف الظلام أولاً لكونه ليس من النعم المقصـودة في أنفسـها لما دل عليه من الإبصـار الذي هو المقصـود من نعمة الضـياء المقصـود في نفسـه، وحذف الانتشار لأنه بعض ما ينشأ عن نعمة الإبصار لما دل عليه

من الســـكون الذي هو المقصـــود الأعظم من الليل : للراحة لمن أرادها، والعبادة لمن اعتمدها واستزادها.

ولما كان بعض الكفرة ينســب الأفعال كما مضـــى للطبائع ويجعلها بغير اختيار، قال مستأنفاً أو معللاً مؤكداً: {إن الله} أي ذا الجلال والإكرام {لذو الفضـــل} أي عظيم جداً باختياره {على الناس} أي كافة باختلاف الليل والنهار وما يحتويان عليه من المنافع. ولما بلغت هذه الآيات من الدلالة على الوحدانية والبعث ونفى أمر الطبائع حداً قل أن يوجد في غيرها، فكان المخالف مذموماً لذلك غاية الذم، فكان التعميم بالذم للمخالفين واقعاً في أوفق محاله، وكان الاســـم قد يراد بعض مدلومه، وكان المراد هنا التعميم، أظهر للإفهام إرادة ذلك، ولم يضـــمر ليتعلق الحكم بالوصــف المفهم للنوس المشير إلى أن صاحبه قاصر عن درجة أول أسنان المؤمنين فيعلم أن هذا النوع مطبوع على ذلك فقال: {ولكن أكثر الناس} أي بما لهم من الاضطراب وعدم الثبات في لزوم الصواب {لا يشكرون *} فينسبون أفعاله سبحانه إلى غيره جهلاً، أو يعملون بما يســلب عنهم اســم الشــكر من الشــرك وغيره، ويجوز أن يكون المراد بالناس أولاً كل من يتأتى منه النوس، وهو كل من برز من الوجود، وبهم ثانياً الجن والإنس- والله أعلم.

▲ تفسير الآيات رقم [62- 65]

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62)
كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64)
هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65)}

ولما ثبت بآية الخافقين وآية الملوين ثبوتاً لا شك فيه أصلاً شمول القدرة بالاختيار، قال معظماً بأداة البعد وميم الجمع: {ذلكم} أي أيها المخاطبون!- الواحد القهار العظيم الشأن الذي علم بما ذكر من أفعاله أنه لا يشاركه أحد {الله} أي الملك الأعظم المعلوم لكل أحد المتميز عن كل شيء بالأفعال التي لا يشاركه أحد ولذلك قال: {ربكم} أي المربى لكم والمحسن إليكم بقدرته واختياره المتفرد بربوبيتكم لا رب لكم سواه. ولما كان في سياق الامتنان بالنعم للدلالة على الساعة التي ينكرونها ويجادلون في أمرها، قدم الخلق على التهليل فقال: {خالق كل شيء} أي بما ثبت من تمام قدرته بإبداع الخافقين ثائبين والملوين متعاقبين دائبين، ولا مانع له من إعادة الثقلين لأنه {لا إله إلا الله} بل كان ذلك واجباً في الحكمة، لأن المنعم عليهم انقسموا إلى شاكر وكافر، فوجب في الحكمة إقامة الساعة للفصل بينهم، وجاء ذلك على ترتيب مطلع السورة، فإن العزيز ناظر إلى كمال القدرة على الإيجاد والإعدام، والعليم هو المتوحد بكمال الذات، فإن إحاطة العلم تستلزم كل

كمال، والقدرة قد لا تســتلزم العلم كما للحيوانات العجم، وهذا بخلاف ما مضى في آية الأنعام، فإن السياق هناك لإنكار الشرك وإثبات الوحدانية بما دل عليها من عموم الخلق طبق ما مضى أيضاً في مطلعها.

ولما أنتجت هذه الأخبار- التي كل منها مقرر لما قبله بكونه كالعلة له- الوحدانية المطلقة اللازم منها كل كمال، ســبب عنها قوله منكراً مبكتاً: {فأنى} أي فكيف ومن أي وجه {تؤفكون *} أي تقلبون عن وجوه الأدلة إلى أقفائها فتعبدون الأوثان وتجادلون في الســاعة التي يلزم من الطعن فيها الطعن في الحكمة التي الطعن فيها طعن في الإلهية التي الطعن فيها طعن في وجود هذا الوجود ومكابرة فيه، وذلك مؤدٍ إلى ســقوط المتكلم به بكل اعتبار لمكابرته في المشــاهد المحســوس، وفي المعقول المركوز في جميع النفوس.

ولما كشــف هذا السياق عن أن هذا الصــرف أمر لا يقدم عليه عاقل، كان كأنه قيل: هل وقع لأحد غير هؤلاء مثل هذا؟ فأجيب بقوله: {كذلك} أي مثل هذا الصــرف الغريب البعيد عن مناهيج العقلاء {يؤفك} أي يصــرف صرف سيئاً- بناه للمفعول إشارة إلى تمام قدرته عليه بكل سبب كان، ولأنه المتعجب منه {الذين كانوا} مطبوعين على أنهم {بآيات الله} أي ذي الجلال والجمال {يجحدون *} أي ينكرون عناداً ومكابرة، فدل هذا على أن كل من تكبر عن حق فأنكره مع علمه به عوقب بمسخ القلب وعكس الفهم، فصــار له الصــــرف عن وجوه الدلائل إلى أقفائها ديدناً بحيث يموت كافراً إن لم يتداركه الله برحمة منه.

ولما تقرر أنه ســبحانه ربنا وحده، وأن مدعي ربوبية ما ســواه معاند، لأنه سبحانه متميز بأفعاله التي لا يشاركه فيها أحد، دل على ذلك بوجه مركوز في الطبائع صحته، واضح في العقول معرفته، كالمعلل لتسمية هذا الإنكار جحوداً، فقال دالاً بالخافقين بعد الدلالة بما نشـــأ عنهما من الملوين، وأخر هذا لأنه مع كونه أجلى ســبب بقرارية الأرض وفلكية الســماء لذاك، بما حصــل فيه من الاختلاف، فقال: {الله} أي الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء {الذي جعل} أي وحده {لكم الأرض} أي مع كونها فراشاً ممهداً {قراراً} مع كونها في غاية الثقل، ولا ممسك لها سوى قدرته {والسماء} على علوها وسعتها مع كونها افلاكاً دائرة بنجوم طول الزمان سائرة، ينشأ عنها الليل والنهار والإظلام والإبصــار {بناء} مظلة كالقبة من غير عماد حامل، ومن المعلوم لكل ذي عقل أن الأجســام الثقيلة تقتضــي بطبعها تراص بعضــها على بعض، فلا يمنع بعضها من السقوط على بعض إلا بقوة وقسر، فالآية من الاحتباك: ذكر القرار أولاً دليلاً على الدوران ثانياً، والبناء ثانياً دليلاً على الفراش أولاً.

ولما ذكر المسكين ذكر الساكن دالاً على أنه الفاعل في الكل باختياره وتمام قدرته بتصويره الإنسان بصورة لا يشبهها صورة شيء من الحيوانات، وفاوت بين أفراده في هيئة تلك الصورة على أنحاء لا تكاد تنضبط في نفسها، ولا تشبه واحدة منها الأخرى، ولا في الخافقين شيء يشبهها محال تصويرها عليه فقال: {وصوركم} والتصوير على غير نظام واحد لا يكون بقدرة قادر تام القدرة مختار لا كما يقول أهل الطبائع {فأحسن صوركم} على أشكال

وأحوال مع أنها أحسن الصور ليس في الوجود ما يشبهها، وليس فيها صورة تشبه الأخرى لتسدوا انطباع تصويرها إليه، فثبت قطعاً أنه هو المصور سبحانه على غير مثال كما أنه الذي أبدع الموجود كله كذلك.

ولما ذكر المسكن والساكن، ذكر ما يحتاج إليه في مدة السكن فقال: {ورزقكم من الطيبات} الشهية الملائمة للطبائع النافعة على وجه لا احتياج معه بوجه، فلا دليل أدل على تمام العلم وشمول القدرة ووجود الاختيار من هذا التدبير في حفظ المسكن والسقف وتدبير ما به البقاء على وجه يكفي الساكن من جميع الوجوه على مر السنين وتعاقب الأزمان، وبث من الساكن- مع أنه قطعة يسيرة جداً من أديم الأرض- أنسالاً شعبهم شعباً فرعها إلى فروع لا تسعها الأرض، فدبر بحكمته وسعة علمه وقدرته تدبيراً وسع لهم به الأرض، وعمهم به الرزق، كما روى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن الحسن أنه قال: لما خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام وذريته قالت الملائكة عليهم السلام: إن الأرض لا تسعهم، قال: فإني جاعل موتاً، قالوا: إذا لا يهنأهم العيش، قال: فإني جاعل أملاً.

ولما دل هذا قطعاً على التفرد، قال على وجه الإنتاج: {ذلكم} أي الرفيع الدرجات {الله} أي المالك لجميع الملك، ودلهم على ما مضى بتربيتهم وما فيها من بديع الصنائع فقال: {ربكم} أي لا غيره، ولما أفاد هذا الدليل تربية لا مثل لها، دالة على إحاطة العلم وتمام القدرة على وجه لا حاجة معه مع حسنه وثباته تسبب عنه ولا بد قوله: {فتبارك} أي ثبت ثباتاً عظيماً مع اليمن والخير وحسن المدد والفيض {الله} أي المختص بالكمال، ورقى

الخطاب وعظم إيضــاحاً للدلالة فقال: {رب العالمين *} كلهم أنتم وغيركم، ثم دل على ما أفاده الدليل معللاً بقوله: {هو} أي وحده {الحي} وكل ما عداه لا حياة له، لأنه ليس له من ذاته إلا العدم، فأنتج ذلك قطعاً قوله: {لا إله إلا هو} فتسـبب عنه قوله: {فادعوه} أي وحده بالقول والفعل على وجه العبادة، وذلك معنى {مخلصين له الدين} أي من كل شرك جلي أو خفي.

ولما أمر بقصــر الهمم عليه، علله بقوله: {الحمد} أي الإحاطة بأوصــاف الكمال، وأظهر موضع الإضمار إشارة إلى أن له من الصفات العلي ما لا ينحصــر: {لله} أي المســمى بهذا الاســم الجامع لجميع معاني الأســماء الحســـنى لذاته. ولما كان هذا الوجود على ما هو عليه من النظام، وبديع الارتســـام، دالاً دلالة قطعية على الحمد، قال واصـــفاً بما هو كالعلة للعلم بمضمون الخبر: {رب العالمين *} أي الذي رباهم هذه التربية فإنه لا يكون إلا كذلك، وعن ابن عباس رضـــي الله عنهما قال: من قال {لا إله إلا الله} فليقل على أثرها {الحمد لله رب العالمين}.

▲ تفسير الآيات رقم [66- 70]

{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69)

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70)}

ولما أمر سبحانه بما دل على استحقاقه إياه، أنتج قطعاً قوله: {قل} أي لهؤلاء الذين يجادلونك في التوحيد والبعث مقابلاً لإنكارهم بالتأكيد: {إني نهيت} أي ممن لا ناهي غيره، نهياً عاماً ببراهين العقل، ونهياً خاصاً بأدلة النقل {أن أعبد} ولما أهلوهم لأعلى المقامات، عبر عنهم إرخاء للعنان بقوله: {الذين تدعون} أي يؤهلونهم لأن تدعوهم، ودل على سفولهم بقوله تعالى: {من دون الله} أي الذي له الكمال كله، ودل على أنه ما كان متعبداً قبل البعث بشرع أحد بقوله: {لما جاءني البينات} أي الحجج الواضحة جداً من أدلة العقل والنقل ظاهرة، ولفت القول إلى صفة الإحسان تنبيهاً على أنه كما يستحق الإفراد بالعبادة لذاته يستحقها شكراً لإحسانه فقال: {من ربي}

أي المربي لي تربية خاصــة هي أعلى من تربية كل مخلوق سـواي، فلذلك أنا أعبده عبادة تفوق عبادة كل عابد.

ولما أخبر بما يتخلى عنه، أتبعه الأمر بما يتحلى به فقال: {وأُمرت أن أسـلم} أي بأن أجدد إسـلام كليتي في كل وقت على سـبيل الدوام {لرب العالمين *} لأن كل ما سـواه مربوب فالإقبال عليه خسـار، وإذا نهى هو صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمر بهذا لكون الآمر والناهي ربه لأنه رب كل شيء، كان غيره مشاركاً له في ذلك لا محالة.

ولما قامت الأدلة وسطعت الحجج على أنه سبحانه رب العالمين الذين من جملتهم المخاطبون، ولا حكم للطبيعة ولا غيرها، أتبع ذلك آية أخرى في أنفسـهم هي أظهر مما مضـى، فوصل به على طريق العلة لمشـاركتهم له صلى الله عليه وسلم في الأمر والنهي في التي قبلها قوله تعالى: {هو} لا غيره {الذي} ولما كان الوصف بالتربية ماضياً، عبر عنه به فقال: {خلقكم من تراب} أي أصلكم وأكلكم التي تربى به أجسادكم {ثم من نطفة} من مني يمنى {ثم من علقة} مباعداً حالها لحال النطفة كما كان النطفة مباعداً لحال التراب، {ثم} بعد أن جرت شؤون أخرى {يخرجكم} أي يجدد إخراجكم شيئاً بعد شـيء {طفلاً} لا تملكون شيئاً ولا تعلمون شـيئاً، ثم يدرجكم في مدارج التربية صـــاعدين بالقوة في أوج الكمال طوراً بعد طور وحالاً بعد حال {لتبلغوا أشـدكم ثم} يهبطكم بالضـعف والوهن في مهاوي السـفول {لتكونوا شيوخاً} ضعفاء غرباء، قد مات أقرانكم، ووهت أركانكم، فصرتم تخشون كل أحد.

ولما كان هذا مفهماً لأنه حال الكل، بين أنه ما أريد به إلا البعض لأن المخاطب الجنس، وهو يتناول البعض كما يتناول الكل فقال: {ومنكم من يتوفى} بقبض روحه وجميع معانيه. ولما كان الموت ليس مستغرقاً للزمن الذي بين السنين وإنما هو في لحظة يسيرة مما بينهما، أدخل الجار على الظرف فقال: {من قبل} أي قبل حال الشيخوخة أو قبل حال الأشدية.

ولما كان المعنى: لتتفاوت أعماركم وأحوالكم وأعمالكم، عطف عليه قوله: {ولتبلغوا} أي كل واحد منكم {أجلاً مسمى} أي له سماه الملك الذي وكل به في بطن أمه عن إذننا وبأمرنا الذي قدرناه في الأزل، فلا يتعداه مرة، ولا بمقدار ذرة فيتجدد للملائكة إيمان في كل زمان.

ولما كانت هذه الأمور مقطوعاً بها عند من يعلمها، وغير مترجاة عند من يجهلها، فإنه لا وصول للآدمي بحيلة ولا فكر إلى شيء منها، فعبر فيها اللام، وكان التوصل بالتفكر فيها والتدبر إلى معرفة أن الإله واحد في موضع الرجاء للعاقل قال: {ولعلكم تعقلون *} أي فتعلموا بالمفاوتة بين الناس فيها ببراهين المشاهدة بالتقليب في أطوار الخلقة وأدوار الأسنان، وإرجاع أواخر الأحكام على أوائلها أن فاعل ذلك قادر مختار حكيم قهار، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.

ولما نظم سبحانه هذا الدليل في صنع الآدمي من التراب، وختمه بأن دلالته على البعث- بإجراء سنته في إرجاع أواخر الأمور على أوائلها وغير ذلك- لا يحتاج إلى غير العقل، أنتج عنه قوله: {هو} لا غيره {الذي يحيي ويميت} كما تشاهدونه في أنفسكم وكما مضى لكم الإشارة إليه بخلق

السماوات والأرض، فإن من خلقهما خلق ما بينهما من الآجال المضروبة باختلاف الليل والنهار والشهور والأعوام لبلوغ الأفلاك مواضعها، ثم رجوعها عوداً على بدء مثل تطوير الإنسان بعد الترابية من النطفة إلى العلقة إلى ما فوقها، ثم رجوعه في مدارك هبوطه إلى أن تصير تراباً كما كان، فليست النهاية بأبعد من البداية.

ولما كانت إرادته لا تكون إلا تامة نافذة، سبب عن ذلك قوله معبراً بالقضاء: {فإذا قضى أمراً} أي أراد أيّ أمر كان من القيامة أو غيرها {فإنما يقول له كن} ولما كانت {إذا} شرطية أجابها في قراءة ابن عامر بقوله: {فيكون *} وعطفها في قراءة غيره على {كن} بالنظر إلى معناه، أو يكون خبراً لمبتدأ أي فهو يكون، وعبر بالمضارع تصويراً للحال وإعلاماً بالتجدد عند كل قضاء، وقد مضى في سورة البقرة إشباع الكلام في توجيه قراءة ابن عامر بما تبين به أنها أشد من قراءة غيره.

ولما علم من هذا أنه لا كلفة عليه في شيء من الأشياء بهذه الأمور المشاهدة في أنفسهم وفي الآفاق، أنتج التعجب من حالهم لمن له الفهم الثاقب والبصيرة الوقادة، وجعل ذلك آياته الباهرة وقدرته القاهرة الظاهرة، فلذلك قال لافتاً الخطاب إلى أعلى الخلق لأن ذم الجدال بالباطل من أجل مقصود هذه السورة: {ألم تر} أي يا أنور الناس قلباً وأصفاهم لباً، وبين بعدهم بأداة النهاية فقال: {إلى الذين يجادلون} أي بالباطل، ونبه على ما في هذه الآيات من عظمته التي لا نهاية لها بإعادة الاسم الجامع فقال: {في آيات الله} أي الملك الأعظم {أنَّى} أي وكيف ومن أي وجه {يُصرفون

*} عن الآيات الحقة الواضحة التي سبقت بالفطرة الأولى إلى جذور قلوبهم، فلا حجة يوردون ولا عذاب عن أنفسهم يردون، لأنه سبحانه استاقهم- كما قال ابن برجان- بسلاسل قهره المصوغة من خالص عزماتهم وعزائهم إرادتهم من حقيقة ذواتهم إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة- فصل ما جادلوا فيه واصفاً لهم بما يزيد في التعجيب من شدة جهلهم وتعاظم عماهم فقال: {الذين كذبوا} وحذف المفعول إشارة إلى عموم التكذيب: {بالكتاب} أي بسببه في جميع ما له من الشؤون التي تفوت الحصر والعظمة في كل أمر كان أشير بأداة الكمال إلى أنه لكماله كأنه لا كتاب غيره لأن من سمعه فكأنما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم لإعجازه، فمن كذب بحرف منه فقد كذب بكل كتاب الله.

ولما كان التذكيب به تكذيباً بجميع الرسالات الإلهية، أكد عظمته بذلك وبالإضافة إلى مظهر العظمة، تحذيراً للمكذبين من سطواته، وتذكيراً لهم بأن العمل مع الرسول عمل مع من أرسله، فلذا لفت الكلام على الاسم الجامع لصفتي الجلال والإكرام فقال تعال: {وبما أرسلنا} أي على ما لنا من العظمة {به رسلنا} من جميع الملل والشرائع بكتاب كان أو بغيره، وهو بحيث لا يحاط بكنه جلاله وعظمه حاله، ولذا تسبب عنه تهديدهم في قوله تعالى: {فسوف يعلمون *} أي بوعيد صادق لا خلف فيه، ما يحل بهم من سطوتنا.

▲ تفسير الآيات رقم [71- 77]

{إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71)
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72)
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73)
مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74)
ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75)
ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77)}

ولما كانوا في الدنيا قد جمعت أيديهم إلى أذقانهم بجوامع السطوة، ثم وصلت بسلاسل القهر يساقون بها عن مقام الظفر بالنجاح إلى أهويات الكفر بالجدال بالباطل ومهامه الضلال المبين كما قال تعالى {إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً} [يس: 8] الآية، فجعل باطن تلك السلاسل الدنيوية والأغلال ظاهراً في ذلك المجمع قال: {إذ} أي حين تكون {الأغلال} جمع غل، قال في ديوان الأدب، هو الذي يعذب به الإنسان. وقال القزاز: الغل من الحديد معروف، ويكون من القد، وقال في النهاية: هو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، ويقال لها جامعة أيضاً- انتهى. وأصله الإدخال، يدخل فيه العنق واليد فتجمعان به، وذلك معنى قول الصغاني في مجمع البحرين: في رقبته غل من حديد، وقد غلت يده إلى عنقه {في

أعناقهم} أي جامعة لأيديهم إلى تراقيهم، وعبر بإذ ومعناها المضـــي مع سـوف ومعناها الاسـتقبال، لأن التعبير بالمضـي إنما هو إشـارة إلى تحقق الأمر مع كونه مستقبلاً {والسلاسل} أي في أعناقهم أيضاً يقيدهم ذلك عن كل تصـرف لكونهم لم يتقيدوا بكتاب ولا رسـول، والسـلسـلة من: تسـلسـل الشيء: اضطرب، قال الراغب: كأنه تصور منه تسلسل متردد، فردد لفظه تنبيهاً على تردد معناه، وما سـلسـل متردد في مقره حتى صـفا، حال كونهم {يسحبون *} أي بها، والسحب: الجر بعنف {في الحميم *} أي الماء الحار الحاضـــر الذي يكســـب الوجوه ســـواداً، والأعراض عاراً، والأرواح عذاباً والأجسـام ناراً، والقلوب هماً واللحوم ذوباناً واعتصـاراً، وذلك عوض ترفيعهم لأنفسـهم عن سـحبها بأسـباب الأدلة الواضـحات في كلف العبادات ومرارات المجاهدات وحرارات المنازلات.

ولما أخبر عن تعذيبهم بالماء الحار الذي من شـــأنه أن يضـــيق الأنفاس، ويضـــعف القوى، ويخفف القلوب، أخبر بما هو فوق ذلك فقال: {ثم في النار} أي عذابها خاصـة {يسـجرون *} أي يلقون فيها وتوقد بهم مكردسـين مركوبين كما يسـجر التنور بالحطب- أي يملأ- وتهيج ناره، وكما يسـجر- أي يصب- الماء في الحلق، فيملؤونها فتحمى بهم ويشتد اضطرامها لكونهم كانوا في الدنيا وقود المعاصـــي، والفتن بهم يشـــب وقودها ويقوى عودها، ويثبت عمودها، لأنهم لم يلقوا أنفسهم في نيران الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومخـالفـات الشـــهوات في أبواب الأوامر والنواهي، التي هي في الظاهر نيران، وفي الحقيقة جنان.

ولما كان المدعو إنما يدخر لأوقات الشـــدائد، قال موبخاً لهم مندماً مقبحاً لقاصـر نظرهم لأنفسـهم بانياً للمفعول لأن المنكئ هذا القول مطلقاً لا لكونه من قائل معين: {ثم قيل لهم} أي بعد أن طال عذابهم، وبلغ منهم كل مبلغ، ولم يجدوا ناصراً يخلصـهم ولا شـافعاً يخصصـهم: {أين} والتعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في أحكم مواضـعه في قوله: {ما كنتم} أي دائماً {تشـركون *} أي بدعائكم لهم في مهماتكم دعاء عبادة مع تجديده في كل وقت؛ ثم بين سفولهم بقوله لافتاً القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه فقال: {من دون الله} أي المحيط بجميع العز وكل العظمة، لتطلبوا منهم تخليصـكم مما أنتم فيه أو تخفيفه: {قالوا} أي مسـترسـلين مع الفطرة وهي الفطرة الأولى على الصدق: {ضلوا عنا} فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا.

ولما رأوا أن صـدقهم قد أوجب اعترافهم بالشـرك، دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب، فاسترسـلوا معها فبادروا أن أظهروا الغلظ فقالوا ملبسـين على من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصـــدور ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا: {بل لم نكن ندعو} أي لم يكن ذلك في طباعنا. ولما كان مرادهم نفي دعائهم أصـلاً ورأساً في لحظة فما فوقها، لا النفي المقيد بالاسـتغراق، فإنه لا ينفي ما دونه، أثبتوا الجار فقالوا: {من قبل} أي قبل هذه الإعادة {شـيئاً} لنكون قد أشـركنا به، فلا يقدرهم الله إلا على ما يزيد في ضرهم ويضاعف ندمهم ويوجب لعن أنفسهم ولعن بعضهم بعضـاً بحيث لا يزالون في ندم كما كان حالهم في الدنيا {انظر كيف كذبوا على أنفســـهم وضـــل عنهم ما كانوا يفترون} [الأنعام: 24] فالآية من

الاحتباك: ذكر الإشـــراك أولاً دليلاً على نفيهم له ثانياً، والدعاء ثانياً دليلاً على تقديره أولاً.

ولما كان في غاية الإعجاب من ضـــلالهم، كان كأنه قيل: هل يضـــل أحد من الخلق ضـــلال هؤلاء، فأجيب بقوله: {كذلك} أي نعم مثل هذا الضـــلال البعيد عن الصـواب {يضـل الله} أي المحيط علماً وقدرة، عن القصـد النافع من حجة وغيرها {الكافرين *} أي الذين سـتروا مرائي بصـائرهم لئلا يتجلى فيها ثم صار لهم ذلك ديدناً.

ولما تم جواب الســـؤال عن التعجب من هذا الضـــــلال، رجع إلى خطاب الضـلال فقال معظماً لما ذكر من جزائهم بأداة البعد وميم الجمع نصـاً على تقريع كل منهم: {ذلكم} أي الجزاء العظيم المراتب، الصعب المراكب الضخم المواكب {بما كنتم} أي دائماً {تفرحون} أي تبالغون في السـرور وتسـتغرقون فيه وتضـعفون عن حمله للإعراض عن العواقب. ولما كانت الأرض سجناً، فهي في الحقيقة دار الأحزان، حسن قوله: {في الأرض} أي ففعلتم فيها ضد ما وضـعت له، وزاد ذلك حسـناً قوله: {بغير الحق} فأشـعر أن السـرور لا ينبغي إلا إذا كان مع كمال هذه الحقيقة، وهي الثبات دائماً للمفروح به، وذلك لا يكون إلا في الجنة {وبما} أي وبســبب ما {كنتم تمرحون *} أي تبالغون في الفرح مع الأشـــر والبطر والنشـــاط الموجب الاختيال والتبختر والخفة بعدم احتمال الفرح.

ولما كان السـياق لذم الجدال، وكان الجدال إنما يكون عن الكبر، وكان الفرح غير ملازم للكبر، لم يسـبب دخول النار عنه، بل جعله كالنتيجة لجميع ما مضى فقال: {ادخلوا} أي أيها المكذبون.

ولما كان في النار أنواع من العذاب، دل على تعذيبهم بكل نوع بذكر الأبواب جزاء على ما كانوا يخوضـون بجدالهم في كل نوع من أنواع الأباطيل فقال: {أبواب جهنم} أي الدركة التي تلقي صاحبها بتكبر وعبوسة وتجهم {خالدين فيها} أي لازمين لما شرعتم فيه بالدخول من الإقامة لزوماً لا براح منها أصلاً.

ولما كانت نهاية في البشـاعة والخزي والسـوء، وكان دخولهم فيها مقروناً بخلودهم سبباً لنحو أن يقال: فهي مثواكم، تسبب عنه قوله: {فبئس مثوى} دون أن يقال: مدخل {المتكبرين *} أي موضـع إقامتهم المحكوم بلزومهم إياه لكونهم تعاطوا ما ليس لهم، ولا ينبغي أن يكون إلا الله يقول الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعنيهما قصـمته» ولم يؤكد جملة {بئس} هنا لأن مقاولتهم هذه بنيت على تجدد علمهم في الآخرة بأحوال النار، وأحوال ما سـببها، والتأكيد يكون للمنكر ومن في عداده، وحال كل منهما مناف للعلم، وزاد ذلك حسناً أن أصل الكلام مع الأعلم للسر الذي تقدم– صلى الله عليه وسلم فبعد جداً من التأكيد. ولما كان هذا في الجزاء أعظم الشماتة بهم، فكان فيهم أعظم التسلية لمن جادلوه وتكبروا عليه، سبب عنه قوله: {فاصـبر} أي ارتقاباً لهذه النصـرة، ثم علل بقوله مؤكداً لأجل تكذيبهم بالوعد: {إن وعد الله} أي الجامع لصـفات الكمال {حق} أي في

نصـــرتك في الدارين فلا بد من وقوعه، وفيه أعظم تأســية لك ولذلك ســبب عنه مع صــرف القول إلى ما يأتي الاعتراض إشـــارة إلى أنه لا يســأل عما يفعل، قوله تعالى : {فإما نرينك} وأكده ب «ما» والنون ومظهر العظمة لأنكارهم لنصرته عليهم ولبعثهم {بعض الذي نعدهم} أي بما لنا من العظمة مما يسرك فيهم من عذاب أو متاب قبل وفاتك، فذاك إلينا وهو علينا هين.

ولما ذكر فعل الشرط وحذف جوابه للعلم به، عطف عليه قوله: {أو نتوفينَّك} أي قبل أن ترى ذلك فيهم وأجاب هذا المعطوف بقوله : {فإلينا} أي بما لنا من العظمة {يرجعون *} أي معي في الدنيا فتريهم بعد وفاتك من نصـــر أصـحابك عليهم بما تسرك به في برزخك فإنه لا بقاء لجولة باطلهم، وحساً في القيامة فنريك فيهم فوق ما تؤمل من النصـــرة المتضـــمنة لتصـــديقك وتكذيبهم، وإكرامك وإهانتهم، والآية من الاحتباك: ذكر الوفاة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً، والرؤية أولاً دليلاً على حذفها ثانياً.

▲ سورة فصلت

▲ تفسير الآيات رقم [1- 12]

{حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2)

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4)

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5)

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6)

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9)

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10)

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)
فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)}

مكية- آياتها أربع وخمسون وتسمى حم السجدة مقصودها الإعلام بأن العلم إنما هو ما اختاره المحيط بكل شيء قدره وعلماً من علمه لعباده فشرعه، لهم، فجاءتهم به عنه رسله، وذلك العلم هو الحامل على الإيمان بالله والاستقامة على طاعته المقترن بهما- كما تقدم في الزمر في قوله {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} [آية: 9] فتكون عاقبته الكشف الكلي حين يكون سبحانه سمع العالم الذي يسمع به، "بصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها" -إلى آخر الحديث القدسي الذي معناه أنه يوفقه سبحانه فلا يفعل إلا ما يرضيه، وعلى ذلك دل اسمها {فصلت} بالإشارة إلى ما في الآية المذكورة فيها هذه الكلمة من الكتاب المفصل لقوم يعلمون.

والسجدة بالإشارة إلى ما في آيتها من الطاعة له بالسجود الذي هو أقرب مقرب من الملك الديان، والتسبيح الذي هو المدخل الأول للإيمان {بسم الله} الذي لم يرض لإحاطته بأوصاف الكمال من جلال الكتاب إلا ما اقترن بجمال العمل {الرحمن} الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ففصل الكتاب

تفصـــيلاً وبينه غاية البيان {الرحيم} الذي خص العلماء العاملين بســماع الدعوة ونفوذ الكلمة {حم*} أي حكمة محمد التي أعجزت الخلائق.

ولما ختمت غافر الكفرة جادلوا في آيات الله بالباطل، وفرحوا بما عندهم من علم ظاهر الحياة الدنيا، وأنهم عند البأس انســلخوا عنه وتبرؤوا منه ورجعوا إلى ما جاءت به الرسل فلم يقبل منهم، فعلم أن كل علم لم ينفع عند الشدة والبأس فليس بعلم، بل الجهل خير منه، وكان ذلك شــاقاً على النبي صــلى الله عليه وسلم خوفاً من أن يكون آخر أمر أمته الهلاك، مع الإصرار على الكفر إلى مجيء البأس، وأن يكون أغلب أحواله صـــلى الله عليه وســـلم النذارة، افتتح سبحانه هذه السورة بأن هذا القرآن رحمة لمن كان له علم وله قوة توجب له القيام فيما ينفعه، وكرر الوصـــف بالرحمة في صـــفة العموم وصفة الخصوص إشارة إلى أن أكثر الأمة مرحوم، وأعلم أن الكتاب فصل تفصـيلاً وبين تبييناً لا يضـره جدال مجال، وكيد مماحك مماحل، وأنه مغن بعجز الخلق عنه عن اقتراح الآيات فقال مخبراً عن مبتدأ: {تنزيل} أي بحســـب التدريج عظيم {من الرحمن} أي الذي له الرحمة العامة للكافر والمؤمن بإنزال الكتب وإرســـال الرســـل {الرحيم*} أي الذي يخص رحمته بالمؤمنين بإلزامهم ما يرضيه عنهم.

ولما تشـوف السـامع إلى بيان هذا التنزيل المفرق بالتدريج، بين أنه مع ذلك حاوٍ لكل خير فقال مبدلاً من تنزيل: {كتاب} أي جامع قاطع غالب.

ولما كان الجمع ربما أدى إلى اللبس قال: {فصــلت} أي تفصــيل الجوهر {آياته} أي بينت بياناً شـافياً في اللفظ والمعنى مع كونها مفصـلة إلى أنواع

من المعاني، وإلى مقاطع وغايات ترقى جلائل المعاني إلى أعلى النهايات، حال كونه {قرآناً} أي جامعاً مع التفصيل، وهو مع الجمع محفوظ بما تؤديه مادة " قرا " من معنى الإمساك، وهو مع جمع اللفظ وضبطه وحفظه وربطه منشور اللواء منتشر المعاني لا إلى حد، ولا نهاية وعد، بل كلما دقق النظر جل المفهوم، ولذلك قال تعالى: {عربياً} لأن لســان العرب أوســع الألســن ســاحة، وأعمقها عمقاً وأغمرها باحة، وأرفعها بناء وأفصــحها لفظاً، وأبينها معنى وأجلها في النفوس وقعاً، قال الحرالي: وهو قرأن لجمعه، فرقان لتفصـــيله، ذكر لتنبيهه على ما في الفطر والجبلات، وجوده حكيم لإنبائه الاقتضـــاءات الحكمية، مجيد لإقامته قســطاس العدل، عربي لبيانه عم كل شــيء، كما قال تعالى في سوره أحسن القصص، وتفصيل كل شــيء مبين لمحوه الكفر بما أبان من إحاطة أمر الله، محفوظ لإحاطته حيث لم يختص فيقبل العدول عن سنن.

ولما كان لا يظهر إلا لمن له قابلية ذلك، وأدمن اللزوم ذلاً للأعتاب، والقرع خضوعاً وحباً للأبواب، قال معلقاً بـ " فصلت أو تنزيل " أو " الرحمن الرحيم ": {لقوم} أي ناس فيهم قوة الإدراك لما يحاولونه {يعملون*} أي فيهم قابلية العلم وتجدد الفهم لما فيهم من سلامة الطبع وسلاسة الانقياد لبراهين العقل والسمع وحدة الأذهان وفصاحة اللسان وصحة الأفكار وبعد الأغوار، وفي هذا تبكيت لهم في كونهم لا ينظرون محاسنه فيهتدوا بها كما يعتنون بالنظر في القصــائد حتى يقضــوا لبعضــها على بعض حتى أنهم ليعلقون بعضــها على الكعبة المشــرفة تشــريفاً له، وفيه حث لهم– وهم أولو العزائم الكبار–

على العلم بع ليغتنوا عن سـؤال اليهود، وفيه بشـرى بأنه تعالى يهب العرب بعد هذا الجهل علماً كثيراً، وعن هذا الكفر إيماناً عظيماً كبيراً، وفي الآية إشـــارة إلى ذم المقترحين المشـــار إليهم آخر التي قبلها بأنهم قد أتاهم ما أغناهم عنـه من آيات هذا الكتاب الذي عجزوا عن مباراتـه، ومناظرتـه ومجاراتـه وذلك في غايـة الغرابـة، لأنـه كلام من جنس كلامهم في كونـه عربياً، وقد خالفت كلامهم وأسجاعهم، مع كونه ليس شعراً ولا سجعاً أصلاً ولا هم من أنواع نثرهم، ولا من ضـروب خطبهم، فعجزوا عن الإيتان بشـيء من مثله في مر الأحقاب وكر الدهور والأعضار، وكفى بذلك معجزة شديدة الغرابة بمن ينيب.

ولما كان حال الإنســـان إن مال إلى جانب الخوف الهلع أو إلى جانب الرجاء البطر، فكان لا يصلحه إلا الاعتدال، بالتوسط الموصل إلى الكمال، بما يكون لطبعه بمنزلة حفظ الصحة ودفع المرض لبدنه، قال واصفاً لــــ " قرآناً " {بشيراً} أي لمن اتبع {ونذيراً} أي لمن امتنع فانقطع.

روى أبو نعيم في الحلية في تلاجمة إمامنا الشافعي رضـي الله عنه وأرضـاه أنـه روي عن علي بن أبي طـالـب كرم الله وجـه أنـه قـال في خطبـة لـه : وأعجب ما في الإنسـان قلبه، وله مواد من الحكمة وأضـداد من خلافها إن سنح له الرجاء ادلهمه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسـف، وإن عرض له الغضـب اشـتد به الغيظ، وإن سـعد بالرضـى نسـي التحفظ، وإن ناله الخوف شـغله الحزن، وإن أصـابته مصـيبة

قصمه الجزع، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة شغله البلاء، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف، فكل تقصير به مضر وكل إفراط به مفسد.

ولما كانت عادتهم دوام الاحتياط في كل بشـــارة ونذارة بأمر دنيوي، ســـبب عن هذا مخالفتهم لعادتهم في ترك الحزم بالجزم بالإعراض فقال: {فأعرض أكثرهم} أي عن تجويز شيء من بشائره أو نذائره {فهم} لذلك {لا يسمعون*} أي يفعلون فعل من لا يسمع فهم لا يقبلون شيئاً مما دعا إليه وحث عليه.

ولما أخبر عن إعراضـــهم، أخبر عن مباعدتهم فيه فقال: {وقالوا} أي عند إعراضـــهم ممثلين لمباعدتهم في عدم قبولهم: {قلوبنا في أكنَّة} أي أغشـــية محيطة بها، ولما كان الســـياق في الكهف للعظمة كان الأنســـب له أداة الاستعلاء فقال {إنا جعلنا على قلوبهم أكنة} وعبروا هنا بالظرف إبعاداً لأن يسمعوا {مما} أي مبتدئة تلك الأغشية وناشئة من الأمر الذي {تدعونا} أيها المخبر بأنه نبي {إليه} فلا سبيل له إلى الوصول إليها لنفيه أصلاً.

ولما كان القلب أفهم لما يرد إليه من جهة الســـمع قالوا: {وفي آذاننا} التي هي أحد الطرق الموصلة إلى القلوب {وقر} أي ثقل قد أصمها عن سماعه {ومن بيننا وبينك} أي مبتدئ من الحد الذي فصـلك منا والحد الذي فصـلنا منك في منتصـف المسـافة قي ذلك {حجاب} سـاتر كثيف، فنحن لا نراك لنفهم عنك بالإشارة، فانسدت طرق الفهم لما نقول {فاعمل} أي بما تدين به.

ولما كان تكرار الوعظ موضعاً للرجاء في رجوع الموعوظ قطعوا ذلك الرجاء بالتأكيد بأداته، وزادوه بالنون الثالثة والتعبير بالاسمية فقالوا: {إننا عاملون*} أي بما ندين به فلا مواصـــلة بيينا بوجه ليســـتحي أحد منا من الآخر في

عملـه أو يرجع إليـه، ولو قـال {وبيينـا} من غير {من} لأفهم أن البينين بأسـرهما حجاب، فكان كل من الفريقين ملاصـقاً لبينه، وهو نصـف الفراغ الحاصل بينه وبين خصمه، فيكون حينئذ كل فريق محبوساً بحجابة لا يقدر على عمل فينا في ما بعده أو يكون بينهما اتصـال أقله بالإعلام بطرق من أراد من المتباينين الحجاب، فأفادت " من " التبعيض مع إفادة الابتداء، فإنهم لا يثبتون الحجاب في غير أمور الدين.

ولما أخبروا باعراضـهم وعللوا بعدم فهمهم بما يدعو إليه، أمره سـبحانه بجواب يبين أنهم على محض العناد فقال: {قل} أي لهؤلاء الذين عجزوا عن رد شـيء من أمرك بشـيء يقبله ذو عقل فادعوا ما ينادي عليهم بالعجز: {إنما أنا بشـر مثلكم} لا غير بشـر مما لا يرى، والبشـر يرى بعضـه بعضـاً ويسـمعه ويبصـره فقولكم أنه لا وصـول لكم إلى رؤيتي ولا إدراك شـيء مما أقول مما لا وجه له أصلاً.

ولما كان ادعاؤهم لعدم المواصـلة بينهم قد تضـمن شـيئين: أحدهما فيه، والآخر فيما يدعو إليه، ونقض الأول، قال في الثـاني: {يوحى إليّ} أي بطريق يخفى عليكم {إنما إلهكم} أي الذي يستحق العبادة {إله واحد} لا غير واحد، وهذا مما دلت عليه الطرق النقلية، وانعقد عليه الإجماع في أوقات الضـرورات النفسـانية، أي لسـت مغايراً للبشـر ممن يخفى عليكم شـخصـه كالملك، ولا يعجم عليهم مراده بصـوته كسـائر الحيوانات، ومع كوني بشـراً فلست بمغاير لكم في الصنف بكوني أعجمياً، بل أنا مثلكم سواء في كوني عربياً، ومع ذلك كله فأصـل ما أوحي إلي ليس معبراً عنه بجمل طوال تمل

أو تنسى، أو يشكل فهمها، وإنما هو حرف واحد وهو التوحيد، فلا عذر لكم أصلاً في عدم فهمه ولا سماعه ولا رؤية قائله.

ولما قطع حجتهم وأزال علتهم، سبب عن ذلك قوله: {فاستقيموا} أي اطلبوا واقصدوا وأوجدوا القوام متوجهين وإن كان في غاية البعد عنكم {إليه} غير معرجين أصلاً على نوع شرك بشفيع ولا غيره.

ولما كان أعظم المراد من الوحي العلم والعمل، وكان رأس العلم التوحيد فعرفه وأمر بالاستقامة فيه، أتبعه رأس العمل وهو ما أنبأ عن الاعتراف بالعجز مع الاجتهاد فقال: {واستغفروه} أي اطلبوا منه غفران ذنوبكم، وهو محوها عيناً وأثراً حتى لا تعاقبوا عليها ولا تعاتبوا بالندم عليها، والإقلاع عنها حالاً ومآلاً.

واما أمر بالخير، رغب فيه ووهب من ضده، فكان التقدير للترغيب: فالفلاح والفوز لمن فعل ذلك، فعطف عليه ما السياق له فقال: {وويل} أي وسواة وهلاك {للمشركين*}.

ولما كانت العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، وكان أفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بوحدانيته، فكان أخس الأعمال التي بين العبد وربه الإخلال بذلك، وكان أخس الأعمال التي بين العبد وربه الإخلال بذلك، وكان أخس الأعمال التي بين العبد وبين الخلق منع ما أوجه الله في الزكاة، وكان معنى الشرك الحكم بأن ما لا شيء له أصلاً وما لا يمكن أن يكون له ملك تام على شيء أصلاً قد شارك من له الكل خلقاً وتصرفاً فيما هو عليه من

الملك التام الذي لا شـوب فيه، وكانت الزكاة إشـراك من له ملك غير تام لمثله في جزء يسير من ماله.

قال ذاماً لمن أبى أن يشارك الخلائق وأشرك بالخالق: {الذين لا يؤتون} أي أمثالهم من أولاد آدم {الزكاة} من المال الذي لا صـنع لهم في خلقه، فهو مخلف عن أبيهم آدم، فالقياس يقتضـي اشـتراكهم كلهم فيه على حد سـواء، ولكنا رحمناهم بتخصـيص كل واحد منهم بما ملكت يمينه منه بطريقة، فقد حكموا في أمر ربهم بما لا يرضـونه لأنفسـهم، فإنهم أبوا أن يشـركوا ببذل الزكاة بعض أخوانهم في بعض مالهم الذي ملكهم له ضعيف، وأشركوا ما لا يملك شيئاً أصلاً بما لا نفع مع المالك المطلق.

ولما كان مما تضـمنه إشـراكهم وإنكارهم البعث أنهم أداهم شـحهم إلى اسـتغراقهم في الدنيا والأقبال بكلياتهم على لذاتها، فأنكروا الآخرة، فصـار محط حالهم أنهم أثبتوا لمن لا فعل أصلاً فعلاً لا يمكنه تعاطيه بوجه، ونفوا عن الفاعل المختار الذي هم لأفعاله الهائلة في كل وقت يشـاهدون، وإليه في منافعهم ومضارهم يقصدون، ما أثبت لنفسه من فعله، فقال مؤكداً تنبيهاً على أن إنكارهم هذا مما لا يكاد يصدق: {وهم بالآخرة} أي الحياة التي بعد هذه ولا بعد لها {هم} أي بخاصة من بين أهل الملل {كافرون*} فاختصموا بإنكار شـيء لم يوافقهم عليه أحد في حق من يشـاهدون في كل وقت من أفعاله أكثر من ذلك، وأثبتوا لمن لم يشـاهددوا له فعلاً قط ما لا يمكنه فعله أصلاً، وهم يدعون العقول الصحيحة والآراء المتينة ورضوا لأنفسهم بالدناءة في منع الزكاة وحكموا بأعظم منها على الله وهم يدعون مكارم الأخلاق

ومعالي الهمم، فأقبح بهذه عقولاً وأسفل بها همماً فقد تضمنت الآية أن الويل لمن اتصف بصفات ثلاثة: الشرك الذي هو ضد التعليم لأمر الله، والامتناع من الزكاة الذي هو ضد الشفقة على خلق الله وإنكار القيامة المؤدي إلى الاستغراق فيما أبغض الله في طلب الدنيا ولذاتها وهو من الاستهانة بأمر الله، قال الأصبهاني: وتمام الكلام في أنه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام: أمس واليوم والغد، فمعرفة كيف ينبغي وقوع الأحوال في الاليوم الحاضر هو بالإحسان إلى أهل العلم بقدر الطاقة، ومعرفة الأحوال في اليوم المستقبل بالإقرار بالبعث والقيامة، فإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال.

ولما ذكر ما للجاهلين وعيداً وتحذيراً، ذكر ما لأضدادهم وعداً وتبشيراً، فقال مجيباً لمن تشوف لذلك مؤكداً لإنكار من ينكره: {إن الذين آمنوا} أي بما آتاهم الله من العلم النافع {وعملوا الصالحات} من الزكاة وغيرها ليكون عملهم شرعياً نافعاً، ولما كان افتتاح السورة بالرحمن الرحيم مشعراً بأن الأسباب الظاهرية انمحت عند السبب الحقيقي الذي هو رحمته، أعرى الخبر عن الفاء، فقال إيذاناً بعظم الجزاء لأن سببه رحمة الرحيم، ولو كان بالفاء لآذنت أنه على مقدار العمل الذي هو سببه: {لهم أجر} أي عظيم {غير ممنون*} أي مقطوع– جزاء على سماحهم بالفاني اليسير من أموالهم في الزكاة وغيرها وما أمر الله به من أقوالهم في الآخرة والدنيا، والممنون:

المقطوع من مننت الحبل أي قطعته بقطع مننه ومنه قولهم: قد منه السـفر أي قطعه وأذهب منته.

ولما ذكر سبحانه سفههم في كفرهم بالآخرة، شرع في ذكر الأدلة على قدرته عليها وعلى كل ما يريد بخلق الأكوان وما فيها الشـامل لهم ولمعبوداتهم من الجمادات وغيرها الدال على أنه واحد لا شريك له، فقال منكراً عليهم ومقرراً بالوصف لأنهم كانوا عالمين بأصل الخلق: {قل} أي لمن أنكر الآخرة منكراً عليه بقولك: {أئنكم} وأكد لإنكارهم التصريح بما يلزمهم من الكفر {لتكفرون} أي توجدون حقيقة السـتر لأنوار العقول الظاهرة {بالذي خلق الأرض} أي على سـعتها وعظمتها من العدم {في يومين} فتنكرون قدرته على إعادة ما خلقه منها ابتداء مع اعترافكم بأنه ابتدأ خلقها وخلق ذلك منها، وهذا اليومان الأحد والاثنين– نقل هذا عن ابن عباس رضي الله عنه ما وعبدالله بن سلام رضـي الله عنه– قال ابن الجوزي: والأكثرين، وحديث مسـلم الذي تقدم في سـورة البقرة {خلق الله التربة يوم السـبت} يخالف هذا، فإن البداءة فيه بيوم السبت وهو مصـرح بأن خلق الأرض وما فيها في ستة أيام كما هو ظاهر هذه الآية، ويجاب بأن المراد بالخلق فيه إخراج أقواتها بالفعل، والمراد هنا تهيئتها لقبول ذلك، ويشكل أيضاً بأن الأيام إنما كانت بدوران الأفلاك، وإنما كان ذلك بعد تمام الخلق بالفعل، فالظاهر أن المراد باليوم ما قاله الحرالي: مقدار ما يتم فيه أمر ظاهر أو مقدار يومين تعرفونها من أيام الدنيا.

ولما ذكر كفرهم بالبعث وغيره، عطف على {تكفرون} قوله: {وتجعلون} أي مع هذا الكفر {له أنداداً} مما خلقه، فتثبتون له أفعالاً وأقوالاً مع أنكم لم تروا

شيئاً من ذلك، فأنكرتم ما تعملون مثله وأكبر منه، وأثبتّم ما لم تعملوه أصلاً، هذا هو الضلال المبين.

ولما بكتهم على قبيح معتقدهم، عظم ذلك بتعظيم شأنه سبحانه فقال: {ذلك} أي الإله العظيم {رب العالمين*} أي موجدهم ومربيهم، وذلك يدل قطعاً على جميع ما له من صفات الكمال.

ولما ذكر ما هم به مقرون من إبداعها، أتبعه ما جعل فيها من الغرائب، فقال عاطفاً على ما تقديره: أبدع الأرض على ما ذكر: {وجعل} ولا يجوز عطفه على صلة الموصول للفصل بأجنبي {فيها رواسي} هي أشدها وهي الجبال، ونبه على أنها مخالفة للرواسي في كونها تحت ما يراد إرساؤه فقال: {من فوقها} فمنعتها من الميد، فعل ذلك لكونه أدل على القدرة، فإنها لو كانت من تحت لظن أنها، أساطين حاملة، ولتظهر منافع الجبال بها أنفسها وبما فيها، ويشاهد أنها أثقال مفتقرة إلى حامل.

ولما هيأها لما يراد منها، ذكر ما أودعها فقال: {وبارك فيها} أي جعلها قابلة ميسرة للسير إليه والإقبال عليه، ودالة على جميع صفاته الحسنى وأسمائه العلى وغير ذلك من المعارف والقدر والقوى {وقدر فيها أقواتها} أي جعلها مع البركة على مقدار لا تتعداه، منهاج بديع دبره في الأزل وارتضاه، وقدره فأمضاه، ومن ذلك أنه خص بعض البلاد بشيء لا يوجد في غيرها لتنظيم عمارة الأرض كلها باحتياج بعضهم إلى بعض، فكان جميع ما تقدم من إيداعها وإيداعها ما ذكر من متاعها، دفعة واحدة لا ينقص عن حاجة المحتاجين أصلاً، وإنما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم إليه فلا يجد له

حينئذ ما يكفيه، وفي الأرض أضـــعاف كفايته، ثم ذكر فذلكة خلق الأرض وما فيها فقال: {في أربعة أيام} وهذا العدد عن ضم اليومين الماضيين إلى يومي الأقوات وهما الثلاثاء والأربعاء، أو يكون المعنى في تتمته أربعة أيام، ولا يحمل على الظاهر ليكون ستة لأنه سيأتي للسماوات يومان فكانت تكون ثمانية، فتعارض آية {ألم السـجدة} {الله الذي خلق السـماوات والأرض وما بينهما في سـتة أيام} وفصـل مقدار ما خلقها فيه ومقدار ما خص الأقوات والمنافع لأحاطة العلم بأنه يخص كل أمر من الأمرين يومان، ونص على الأولين ليكون ذلك أدل على القدرة فيحسـن موقع النعي عليهم بما فصـل به الآيتين من اتخاذ الأنداد، وإنما كان أدل على القدرة، لأنـه إيجاد ذوات محسوسة من العدم قائمة بأنفسها بخلاف البركة، وتقدير الأقوات فإنه أملا لا يقوم بنفســـه، فلم يفرد يوميه بالذكر، بل جعلهما تابعين كما أن ما قدر فيهما تابع، ولم يفعل ذلك في أقل من لمح البصر مع تمام القدرة عليه، لأن هذا أدل على الاختيار وأدخل في الابتلاء والاختيار، ليضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، فيكون أعظم لأجورهم لأنه أدل على تســـليمهم، وجعل مدة خلقها ضــعف مدة الســماء مع كونها أصــغر من الســماء دلالة على أنها هي المقصـــودة بالذات لما فيها من الثقلين، فزادت بما فيها من كثرة المنافع وتباين أصـناف الأعراض والجواهر لأن ذلك أدخل في المنة على سـكانها، والاعتناء بشـــأنهم وشـــأنها، وزادت أيضـــاً بما فيها من الابتلاء بالتهيئة للمعاصــــي والمجاهدات والمعالجات التي يتنافس فيها الملأ الأعلى ويتخاصم- كل ذلك دلالة على أن المدة ما هي لأجل القدرة بل لأجل التنبيه

على ما في المقدر من المقدور وعجائب الأمور، وليعلم أيضاً بخلق السماء التي هي أكبر جرماً وأتقن جسـماً وأعظم زينة وأكثر منافع بما لا يقايس في أقل من مدة خلق الأرض أن خلقها في تلك المدة ليس للعجز عن إيجادها في أقل من اللمح، بل لحكم تعجز عن حملها العقول، ولعل تخصـــيص السـماء بقصـر المدة دون العكس لإجراء أمرها على ما نتعارفه من أن بناء الســـقف أخف من بناء البيت تنبيهاً على أنه بنى أمر دارنا هذه على الأسباب تعليماً للتأني وتدريباً على السكينة والبعد من العجلة.

ولما كان لفظ {سـواء} الذي هو بمعنى العدل الذي لا يزيد عن النصـف ولا ينقص يطلب اثنين، تقول: سـواء زيد وعمرو {إلى كلمة سـواء بيننا وبينكم} قال تعالى مزيلاً لما أوهمه قوله: {أربعة أيام} من أنها للأقوات والبركة ليكون مع يومين من الأرض ستة، ناصباً على المصدر: {سواء} أي التوزيع إلى يومين ويومين على السواء {للسـائلين*} أي لمن سـأل أو كان بحيث يسـأل ويشـتد بحثه بسـؤال أو نظر عن التوفيق بين ظاهر هذه الآية وبين غيرها، لا بد في كل يوم منها من زيادة عن الذي قبله أو نقص، ومجموع الأربعة كأربعة من أيام الدنيا لا تزيد عليها ولا تنقص، وقراءة يعقوب بجر " سـواء " معينة لأن تكون نعتاً لـــــــ " أربعة " وقراءة أبي جعفر بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، وعن خلقها وتتميمها في أربعة أيام كانت فصـولها أربعة، قال ابن برجان: ألا ترى الأمر إلى السـماء أولاً في إنزال الماء فيخلقه فيما هنالك ثم ينزله إلى الأرض والنبات والحيوان عن الماء الذي ينزل من الســـماء إلى الأرض بمنزلة النسل بين الذكر والأنثى وبمنزلة تسخير السماء والأرض وما

بينهما لما وجدنا له فافهم- أمر قويم وحكمة شـــائعة آية قضــــاؤه بركات الأرض في أربعة أيام بواســـطة ما قدر في الســـماء من أمر وهي الأربعة الفصول من السنة.

الشــتاء الربيع الصـيف والخريف، فهذه الأيام معلومة بالمشـاهدة، فيهن يتم زرع الأرض وبركات الدنيا وجميع ما يخرجه منها من فؤائد وعجائب، قال: وقوله " الســـائلين " تعجيب وإغراب وتعظيم للمراد المعنى بالخطاب، وقد يكون معنى الســواء زائداً إلى ما تقدم أن بهذه الأربعة الأيام اسـتوت السـنة مطالعها ومغاربها وقربها وبعدها وارتفاعها ونزولها في شـــمالي بروجها وجنوبيها باحكام ذلك كله وتوابعه- انتهى.

ولما كانت الســـماوات أعظم من الأرض في ذاتها بنور أبنيتها واتســـاعها وزينتها ودوران أفلاكها وارتفاعها، نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخي، ولفظ الاستواء وحب الغاية الدال على عظيم العناية فقال: {ثم استوى} أي قصد قصداً هو القصد منتهياً قصده {إلى السماء وهي} أي والحال أنها {دخان} بعد ما فتقها من الأرض، قالوا: كان ذلك الدخان بخار الماء فهو مســتعار من المرتفع من النار، وهو تشبيه صوري، فالسماء متقدمة في الدخانية على الأرض، تقدم الذكر على الأنثى ثم خلقت ذات الرض وبعد تصـوير السماء أولاً إيجاداً وتتميماً لتسوية السماء بعد أن كانت دخاناً، ويومان لتتميم المنافع فتداخلت الأعداد لتداخل الأفعال، {فقال لها } أي عقب مقارنتين لما قدرته فيكما وأردته منكما من إخراج المنافع من المياه والنبات والمعادن وغيرها، ووضع المصدر موضع الحال مبالغة فقال: {طوعاً أو كرهاً} أي طائعين أو

كارهتين في إخراج ما أودعتكما من الأمانة في أوقاتها وعلى ما ينبغي من مقاديرها وهيآتها طوع تســـخير لا تكليف {قالتا أتينا} أي نحن وما فينا ما بيننا.

ولما جعلهما موضــــع المخاطبة للتي هي للعقلاء والتكلم، قال جامعاً لهما باعتبار أفرادهما وما فيهما جمع من يعقل: {طائعين*} أي في كل ما رســمته فينا لا نحمل من ذلك شــيئاً بل نبذله على ما أمرت به لا نغير ولا نبدل، وذلك هو بذلهما للأمانة، وعدم حملها، وجمع الأمر لهما في الإخبار لا يدل على جمعه في الزمان، بل قد يكون القول لهما متعاقباً {فقضــاهن} أي خلقهن وصنعهن حال كونهن معدودات {سبع سماوات}

صنعاً نافذاً هو كالقضاء لا تخلف فيه {في يومين} أي الخميس والجمعة إذا حسب مقدار ما يخصهن من التكوين في الستة الأيام التي كان فيها جحميع الخافقين، وما بينهما كان بمقدار ما خص واحداً من الأرض ومن أقواتها لا يزيد على مدة منهما ولا ينقص، فيكون الذي خصــــهما ثلث المجموع، قال ابن جرير: وإنما سمي يوم الجمعة لأن الله تعالى جمع فيه خلق السماوات والأرض.

يعني فرغ من ذلك وأتمه {وأوحى} أي ألقى بطريق خفي وحكم مبتوت قوي {في كل ســـماء أمرها} أي الأمر الذي دبرها ودبر منافعها به على نظام محكم لا يختل، وزمام مبرم لا ينحل.

ولما عم، خص ما للتي تلينا إشــارة إلى تشــريفنا، فقال صــارفاً القول إلى مظهر العظمة تنبيهاً على ما في هذه الآية من العظم: {وزينّا} أي بما لنا

من العظمة {السماء الدنيا} أي القربى إليكم لأجلكم {بمصابيح} من زواهر النجوم، وشفوفها عنها لا ينافي أن تكون في غيرها مما هو أعلى منها، ودل السياق على أن المراد: زينة {و} حفظناها بها {حفظاً} من الشياطين، فالآية من الاحتباك: حذف فعل الحفظ بدلالة المصدر، ومصدر الزينة بما دل عليه من فعلها.

ولما كان هذا أمراً باهراً، نبه على عظمته بقوله صارفاً الخطاب إلى صفتي العز والعلم إعلاماً بأنهما أساس العظمة ومدارها: {ذلك} أي الأمر الرفيع والشأن البديع {تقدير العزيز} الذي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء {العليم*} المحيط علماً بكل شيء وكما قدر سبحانه ذلك بعزته وعلمه قضى أنه لا يفيد العز الدائم إلا ما شرعه من العلم، وفي ختمه بالوصفين بشارة للأمة التي خوطبت بهما أنه يوتيها من عزه وعلمه لا سيما بالهبة وما شاكلها من الطبائع وغيرها ما لم يؤت أمه من الأمم قبلها، وسر خلقه سبحانه العالم في مدة ولم يكن قي لمحة وجعلها ستة لا أقل ولا أكثر أنه لو خلقه في لمحة لكان ذلك شبهة لمن يقول: إنه فاعل بالذات لا بالاختيار، فاقتضى الحال عدداً، ثم اقتضى الحال أن يكون ستة لأنها أول عدد يدل على الكمال لأنها عدد تام كسورها لا تزيد عنها ولا تنقص، فآذن ذلك بأن للفاعل نعوت الكمال وأوصاف التمام والتعال، ولم يخلقه فيما دون ذلك من العدد لأنه ناقص، وخلق الأرض في يومين مكررين باعتبار الذات والمنافع إيذاناً بما يقع فيها من المعصية بالشرك الذي هو تثنية وإفك، ولم يكرر في السماء لأن آياتها أدل على التوحيد ولم يحصل من أهلها ما يدل على

الوعيد، وليكون إيجادها في أقل من مدة الأرض- مع أنها أكبر جرماً وأعجب صنعاً وأتقن جسماً- أدل على الفعل بالاختيار بعجائب الحكم وغرائب الأسرار الكبار.

▲ تفسير الآيات رقم [13- 16]

{فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14)
فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15)
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16)}

ولما كان هذا القدر من العلم موجباً للانقياد لكل خير من الوحدانية وغيرها، والإقبال على الحق في كل أمر، فكان المتمادي على إعراضه قبل الوعظ به كأنه جدد إعراضاً غير إعراضه الأول، قال مفصلاً بعض قوله {فأعرض أكثرهم}: {فإن أعرضوا} أي استمروا على إعراضهم، أو أعرض غيرهم عن قبول ما جئتهم به من الذكر بعد هذا البيان الواضح في هذه الآيات التي دلت على الوحدانية والعلم والقدرة وغيرها من صفات الكمال أتم دلالة {فقل} أي لهم: إن لكم سلفاً سلكتم طريقهم في العناد، فإن أبيتم إلا الإصرار ألحقناكم بهم كأمثالهم وهو معنى {أنذرتكم صاعقة}، أي حلول صاعقة مهيأة

لمن كشـــف له الأمر فعاند، فإن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه، قال البغوي وابن الجوزي : والصـــاعقة المهلكة من كل شـــيء- انتهى . والحاصل أنه عذاب شديد الوقع كأنه في شدة وقعه صاعقة.

ولما كان التخويف بما تســهل مشـــاهدة مثله أوقع في النفس قال : {مثل صاعقة عاد وثمود *} أي الذين تنظرون ديارهم وتستعظمون آثارهم، وعلل إيقاع ذلك بهم بقوله: {إذا} ويجوز أن يكون ظرفاً لصاعقة وظرفيته لا تنافي عليته أي حين {جاءتهم الرسل} لأن الزمان الطويل يجوز نسبة ما وقع في جزء منه إليه، ولما كانت الرســـل إنما أتت بالفعل في بعض الزمان أدخل الجار فقال: {من بين أيديهم} أي من قبلهم لأن النذير الأول نذير لكل من أتى بعده بأنه إن واقع ما واقعه أتاه ما عذب به {ومن خلفهم} وهم من أتى إليهم لأنهم لم يكونوا يعلمون إتيانهم، فالخلف كناية عن الخفاء، والقدام عن الجلاء، ولا شك أن الإنسان لما انقاد له من قبله فسمعه منه أقبل مما رآه بعينه، لأن النفس لا تنقاد لما خالفها إلا بعد جدال وجهاد، فإذا تطاول الزمن وانقاد له الغير، ســـهل عليها الأمر، وخف عليها الخطب، وأيضـــاً الآتي إلى ناس إنما يأتيهم بعد وجودهم وبلوغهم حد التكليف، فهو بهذا آتٍ إليهم من ورائهم أي بعد وجودهم أو يكون ما بين الأيدي هو من جاءهم لأنهم علموا بمجيئه علم من ينظر من قدامه، وما خلفهم ما غاب عنهم ممن تقدمهم، فلم تنقل إليهم أخبارهم إلا على وجوه تحتمل الطعن، أو المعنى: أتاهم رسولهم الذي هو بإظهار المعجزة كجميع الرسل بالوعظ من كل جانب يخفى عليهم أو يتضح لهم وأعمل فيهم كل حيلة بكل حجة حتى

لم يدع لهم شبهة، ثم بين أن مجيء الرسل ينفي عبادة غير الله وقصر العبادة عليه، فقال مظهراً مع العبادة الاسم الذي هو أولى بها: {أن} أي بأن قولوا لهم {لا تعبدوا إلا الله} أي الذي له جميع صفات الكمال.

ولما كان هذا موضعاً لتشوف السامع إلى خبرهم عند ذلك إجابة بقولهم: {قالوا} أي كل منهم: {لو شاء ربنا} أي والذي ربانا أحسن تربية وجعلنا من خواصه بما حبانا به من النعم أن يرسل إلينا رسولا {ملائكة} فأرسلهم إلينا بما يريده منا لكنه لم ينزل ملائكة فلم يشأ أن يرسل رسولاً، فتسبب عما قالوه من القياس الاستثنائي الذي استنتجوا فيه من نقيض تاليه نقيض مقدمه، لما جعلوا بين المقدم والتالي من الملازمة بزعمهم قولهم: {فإنا بما} أي بسبب الذي ولما كانوا لم ينكروا مطلق رسالتهم، إنما أنكروا كونها من الله، بنوا للمجهول قولهم مغلباً تعالى في الترجمة عنهم للخطاب على الغيبة لأنه أدخل في بيان قلة أدبهم: {أرسلتم} أي أيها الرسل ومن كان على مثل حالهم من البشر {به} أي على ما تزعمون خاصة لا بغير ما أرسلتم به مما أنزل به ملائكة مثلاً {كافرون *} لأن قياسنا قد دل على أنه تعالى لم يشأ الإرسال، فأنتم لستم بمرسل عنه لأنكم بشر لا ملائكة وقد كذبوا في قياسهم الذي لم يأخذوه عن عقل ولا نقل لأنه لا ملازمة بين مشيئة الإرسال إلى الناس كافة أو إلى أمة منهم وبين أن يكون المرسل إليهم كلهم ملائكة.

ولما جمعهم فيما اجتمعوا فيه حتى كأنهم تواصوا به، فصل ما اختلفوا فيه فقال مسبباً عما مضى من مقالهم: {فأما عاد} أي قوم هود عليه الصلاة والسلام {فاستكبروا} أي طلبوا الكبر وأوجدوه {في الأرض} أي كلها التي

كانوا فيها بالفعل وبقيتها بالقوة، أو في الكل بالفعل لكونهم ملكوها كلها. ولما كان الكبر قد يكون بالحق كما على من خالف أمر الله قال: {بغير الحق} أي الأمر الذي يطابقه الواقع، وهو إنكار رسالة البشر، فإن الواقع إرسالهم {وقالوا} أي وضموا إلى استكبارهم على قبول ما جاءهم من الحق أن قالوا متعاظمين على أمر الله بما أتاهم الله من فضله: {من أشد منا قوة} فنحن نقدر على دفع ما يأتي من العذاب الذي يهددنا به هود عليه الصلاة والسلام لأنهم كانوا أشد الناس قوى وأعظمهم أجساماً.

ولما كان التقدير أن يقال إنكاراً عليهم: ألم يروا أن الله لو شاء لجعلهم كغيرهم، عطف عليه قوله: {أو لم يروا} أي يعلموا علماً كما هو كالمشاهدة لأنه غريزة في الفطرة الأولى فهو علم ضروري {أنّ الله} أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً {الذي خلقهم} ولم يكونوا شيئاً {هو أشد منهم قوة} ومن علم أن غيره أقوى منه وكان عاقلاً انقاد له فيما ينفعه ولا يضره، واجتماع قوتهم التي هي شدة البنية وقوته سبحانه التي هي كمال القدرة وهي صفة قائمة بذاته سبحانه إنما هو في الآثار الناشئة عن القوة، فلذلك جمعاً بأشد.

ولما بين أنهم أوجدوا الكبر، عطف عليه من غرائزهم ما هو أصل لكل سوء، فقال مبيناً قرط جهلهم باجترائهم على العظمة التي شأنها قصم الظالم وأخذ الآثم: {وكانوا} أي طبعاً لهم {بآياتنا} على ما لها من العظمة بنسبتها إلينا {يجحدون *} أي ينكرون إنكاراً يضمحل عنده كل إنكار عناداً مع علمهم بأنها من عندنا {فأرسلنا} بسبب ذلك على ما لنا من العظمة، ودل على صغارهم وحقارتهم بأداة الاستعلاء فقال: {عليهم} وزاد في تحقيرهم بأن

أخبر أنه أهلكهم لأجل ما تعززوا به من قوة أبدانهم ووثاقة خلقهم بما هو من ألطف الأشياء جسماً وهو الهواء فقال: {ريحاً} أي عظيمة {صرصراً} أي شديدة البرد والصوت والعصوف حتى كانت تجمد البدن ببردها فتكون كأنها تصره- أي تجمعه- في موضع واحد فتمنعه التصرف بقوته، وتقطع القلب بصوتها، فتقهر شجاعته، وتحرق بشدة بردها كل ما مرت عليه.

ولما تقدم في هذا السياق استكبارهم على الوجه المذكور وادعاؤهم أنهم أشد الناس قوة اقتضى الحال تحقيرهم في إهلاكهم، فذكر الأيام دون الليالي وإن تضمنتها فقال تعالى: {في أيام} ولما كان جمع القلة قد يستعار للكثرة حقق أن المراد القلة بوصفه بجمع السلامة فقال: {نحسات} وكان ذلك أدل على هذا المراد من إفراد اليوم كما في القمر لأنه قد يراد به زمان يتم فيه أمر ظاهر ولو طالت مدته، ويصح للجنس فيشمل مع القليل ما يصلح له جمع الكثرة. وفيه- مع أنه نذارة- رمز للمنزل عليه هذا الوحي صلى الله عليه وسلم بأعظم بشارة لما أومأ إليه افتتاح السورة باسمي الرحمة، وقوله تعالى {بشيراً ونذيراً} ومن جعل أيام هذا العذاب ثمانية، أشار إلى الحلم والتأني كما أشار إليه ما تقدم من خلق هذا الوجود في ستة أيام، وقد كان قادراً على كل من التعذيب والإيجاد في لحظة واحدة، فأشار ذلك إلى أنه في السنة السادسة من الهجرة يكون الفتح السببي بعمرة الحديبية التي كانت سبب نزول سورة الفتح، وفي السابعة يكون الاعتمار الذي كان عليهم أشد من وقوع الصارم البتار، حتى ذهب عمرو بن العاص من أجل ذلك إلى الحبشة لئلا يرى من دخول النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله

عنهم ما لا صـــبر له عليه، وفي الثامنة يكون الفتح الحقيقي بعشـــرة آلاف مقاتل أكثرهم دارع لا يُرى منهم إلا الحدق، حتى خالوا بياض لأمهم السراب، فظنوا بهم غاية العذاب، فكانوا رحمة، وعاد رأوا الســحاب فظنوه رحمة فكان عذاباً ونقمة، ووصـــفها بالنحس مبالغة مثل رجل عدل ليدل على أنها كانت قابلة لانفعال الجســد وما كان فيه من القوى بهذه الريح، وهو مصــدر جمع لاختلاف أنواع النحس فيها– هذا على قراءة الجماعة بســـكون الحاء، وأما قراءة ابن عامر والكوفيين بكسر الحاء فهي صفة من فعل بالكسر مثل: فرح فهو فرح، وأول هذه الأيام الأربعاء في قول يحيى بن سلام، وقال غيره: وما عذب قوم إلا يوم الأربعاء {لنذيقهم} وأضــاف الموصـوف إلى صـفته على المبالغة من وادي رجل عدل فقال: {عذاب الخزي} أي الذي يهيئهم ويفضــحهم ويذلهم بما تعظموا وافتخروا على كلمة الله التي أتتهم بها رسـله، وصف العذاب بالخزي الذي هو للمعذب به مبالغة في إخزائه له {في الحياة الدنيا} ليذلوا عند من تعظموا عليهم في الدار التي اغتروا بها فتعظموا فيها فإن ذلك أدل على القدرة عند من تقيد بالوهم {ولَعذاب الآخرة} الذي أعد للمتكبرين {أخزى} أي أشـــد إخزاء كما قالوا: هو أعطاهم للدراهم وأولادهم للمعروف، وأكد لإنكارهم له.

ولما انتفت مدافعتهم عن أنفسـهم، نفى دفع غيرهم فقال: {وهم} أي أصــابهم هذا العذاب وسـيصـيبهم عذاب الآخرة والحال أنهم {لا يُنصـرون *} أي لا يوجد ولا يتجدد لهم نصر أبداً بوجه من الوجوه.

▲ تفسير الآيات رقم [17- 21]

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17)

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18)

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19)

حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20)

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)}

ولما أنهى أمر صاعقتهم، شرع في بيان صاعقة ثمود فقال: {وأما ثمود} وهم قوم صالح عليه الصلاة والسلام {فهديناهم} أي بينا لهم طريق الهدى من أنا قادرون على البعث وعلى كل شيء فلا شريك لنا، وكان بيان ذلك بالناقة غاية البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم التي هي سبب أبصار بصائرهم غايه الإبصار، فكرهوا ذلك لما يلزمه من تنكب طريق آبائهم وأقبلوا على لزوم طريق آبائهم: {فاستحبوا العمى} اي الضلال الناشئ عن عمى اليصر أو البصيرة أو هما معاً {على الهدى} أي أوجدوا من الأفعال والأقوال ما يدل على حب ذلك وعلى طلب حبه فعموا فضلوا، وقال القشيري: قيل: إنهم آمنوا وصدقوا ثم ارتدوا وكذبوا، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستئصال. {فأخذتهم} أي بسبب ذلك أخذ قسر وهوان {صاعقة العذاب} وأبلغ في وصفه بجعله نفس الهون فقال: {الهون} أي ذي الهون، قامت ضمته مقام ما في

الهوان من الصـيغة فعلم أن المراد أنه المهين المخزي {بما كانوا} أي دائماً {يكسبون *} أي يتجدد تحصيلهم له وعدهم له فائدة، فالآية من الاحتباك: ذكر الهداية أولاً دليلاً على حذف الضـــلال ثانياً والعمى ثانياً دليلاً على حذف الإبصـار أولاً، وسره أنه نسب إليه أشرف فعليه، وأسند إليهم ما لا يرضاه ذو الروح.

ولما أتم الخبر عن الكافرين من الفريقين، أتبعه الخبر عن مؤمنيهم بشـــارة لمن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم ونذارة لمن صد عنه فقال: {ونجينا} أي تنجية عظيمة {الذين آمنوا} أي أوجدوا هذا الوصـف ولو على أدنى وجوهه من الفريقين {وكانوا} أي كوناً عظيماً {يتقون *} أي يتجدد لهم هذا الوصف في كل حركة وسكون فلا يقدمون على شيء بلا دليل.

ولما ذكر حالهم في الدنيا، وأشار إلى حال الآخرة، أتبعه تفصيل ذلك فقال: {ويوم} أي اذكر أيام أعداء الله في الدنيا في إنزال عذابه بهم وإحلال مثلاته بساحاتهم، واذكر يوم يحشرون- هكذا كان الأصل، ولكنه بين ما عذبوا به ليعم كل من اتصف به من الأولين والآخرين فقال: {يحشر} أي يجمع بكثرة بأمر قاهر لا كلفة علينا فيه- هذا على قراءة الجماعة بالبناء للمفعول، وعلى قراءة نافع ويعقوب بالنون مبنياً للفاعل يكون ناظراً إلى ســياق «ونجينا» وفي كلتا القراءتين معنى العظمة، فلذلك ناسبهما الاسم الأعظم الذي هو أعظم من مظهر العظمة الذي وقع الصـرف عنه لما في ذكره من زيادة التوبيخ لهم والتهجين لفعلهم والتخسيس لعقولهم في قولهم: {أعداء الله} أي الملك الأعظم ولا يخفى إعرابه بحســب كل قراءة {إلى النار} دار

الأشـقياء {فهم} بسـبب حشـرهم {يوزعون *} أي يدفعون ويرد بأيسـر أمر أولهم على آخرهم، ومن يريد أن يعرج منهم يميناً أو شــمالاً ظناً منه أنه قد يخفى بسبب كثرتهم ويزجرون زجر إهانة، ويجمع إليهم من شذ منهم، ة فإن كل شيء من ذلك نوع من العذاب.

ولما بين إهانتهم بالوزع، بين غاياتها فقال: {حتى إذا} وأكد الكلام لإنكارهم مضــمونه بزيادة النافي ليكون اجتماعه مع الإثبات نفياً للضــد فيفيد غاية القوة بمضـمون الخبر في تحقيقه وثباته واتصـاله بالشـهادة على الفور فقال: {ما جاؤوها} أي النار التي كانوا بها يكذبون {شهد عليهم} حين التكوير فيها مركومين بعضــهم على بعض. ولما كان في مقام الترهيب، وكان التفصـيل أهول قال: {سمعهم} أفرده لتقارب الناس فيه {وأبصارهم} جمع لعظم التفاوت فيها {وجلودهم بما} وأثبت الكون بياناً لأنهم كانوا مطبوعين على ما أوجب لهم النار من الأوزار فقال: {كانوا يعملون *} أي يجددون عمله مسـتمرين عليه، فكأن هذه الأعضـــاء تقول في ذلك الحين إقامة للحجة البالغة: أيها الأكوان والحاضـرون من الإنس والملائكة والجان، اعلموا أن صـاحبي كان يعمل بي كذا وكذا مع الإصرار، فاستحق بذلك النار، وغضـب الجبار– ثم يقذف به.

ولما أخبر بهذا الذي يفتت الحجارة لو علقت ســاعة ما، أخبر أنه لم يفدهم الرجوع عن طبعهم الجافي وبلادتهم الكثيفة، فقال عاطفاً على ما تقديره: فلم تفدهم هذه الشــهادة خجلاً من الله ولا خضــوعاً في أنفســهم ولا رجوعاً عن الجدال والعناد كما لم يفدهم ذلك مجرد علم الله فيهم: {وقالوا لجلودهم}

ودخل فيها ما صـــرح به من منافعها بها لفقد ما يدعو إلى التفصـــيل. ولما فعلت فعل العقلاء خاطبوها مخاطبتهم فقالوا: {لم شهدتم علينا}.

ولما كان هذا محل عجب منهم، وكان متضـــمناً لجهلهم بظنهم أنه كان لها قدرة على السكوت، وكان سؤالهم عن العلة ليس على حقيقته وإنما المراد به اللوم، أجيب من تشـــوف إلى الجواب بقوله معبراً لنطقها بصـــيغة ما يعقل: {قالوا} معتذرين: {أنطقنا} قهراً {الله} الذي له مجامع العز على وجه لم نقدر على التخلف عنه. ولما كان حال الكفار دائماً دائراً بين غباوة وعناد، أقاموا لهم على ذلك دليلين شـــهوديين فقالوا: {الذي أنطق كل شـــيء} أي فعلاً أو قوة أو حالاً ومقالاً.

ولما كانت الأشياء كلها متساوية الأقدام في الإنطاق والإخراس وغيرهما من كل ما يمكن بالنســـبة إلى قدرته ســـبحانه، نبهوهم على ذلك بقولهم: {وهو خلقكم أول مرة} والعلم القطعي حاصـــل عندكم بأنكم كنتم عدماً ثم نطفاً لا تقبل النطق في مجاري العادات بوجه، ثم طوركم في أدوار الأطوار كذلك إلى أن أوصلكم إلى حيز الإدراك، فقسركم على النطق بحيث لو أردتم سلبه عن أنفسكم ما قدرتم. ولما كان الخلق شيئاً واحداً فعبر عنه بالماضي وكان الرجوع تارة بالحس وتارة بالمعنى وكان الذي بالمعنى كثير التعدد بكثرة التجدد قال: {وإليه} أي إلى غيره {ترجعون *} أي في كل حين بقســـركم بأيســـر أمر على كل ما يريد من أول ما خلقتم إلى ما لا نهاية له، فلو كان لكم نوع علم لكفاكم ذلك واعظاً في الدنيا تعلمون به أنكم في غاية العجز،

وأن له العظمة والكبر والقدرة والقهر، روى مســـلم في صـــحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

»هل تدرونممّ أضـحك؟ قلنا: الله ورسـوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، اقل: فيقول: فإني لا أجيز إلا شـاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسـك اليوم شـهيداً وبالكرام الكاتبين شـــهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسـحقاً فعنكن كنا أناضل».

▲ تفسير الآيات رقم [22– 26]

{وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22)

وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23)

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24)

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25)

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)}

ولما اعتذروا بما إخبارهم به في هذه الدنيا وعظ وتنبيه، وفي الآخرة توبيخ وتنديم، قالوا مكررين للوعظ محذرين من جميع الكون: {وما كنتم} أي بما هو لكم كالجبلة {تستترون} أي تتكفلون الستر عند المعاصي وأنتم تتوهمون،

وهو مراد قتادة بقوله؛ تظنون. {أن يشـهد عليكم} بتلك المعاصـي. ولما كان المقصـود الإبلاغ في الزجر، أعاد التفصـيل فقال: {سـمعكم} وأكد بتكرير النافي فقال: {ولا أبصـاركم} جمع وأفرد لما مضـى {ولا جلودكم ولكن} إنما كان استتاركم لأنكم {ظننتم} بسبب إنكاركم البعث جهلاً منكم {أن الله} الذي له جميع الكمال {لا يعلم} أي في وقت من الأوقات {كثيراً مما تعملون *} أي تجددون عمله مسـتمرين عليه، وهو ما كنتم تعدونه خفياً فهذا هو الذي جرأكم على ما فعلتم، فإن كان هذا ظنكم فهو كفر، وإلا كان عملكم عمل من يظنه فهو قريب من الكفر والمؤمن حقاً من علم أن الله مطلع على سـره وجهره، فلم يزل مراقباً خائفاً هائباً، روى الشـيخان في صـحيحيهما واللفظ للبخاري في كتاب التوحيد عن عبد الله بن مسـعود رضـي الله عنه قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشـي أو قرشـيان وثقفي كثيرة شـحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسـمع ما نقول؟ قال الآخر: يسـمع إن جهرنا ولا يسـمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسـمع إذا جهرنا فأنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله {وما كنتم}– الآية، قال البغوي؛ قيل: الثقفي عبد ياليل وختناه، والقرشيان: ربيعة وصفوان بن أمية.

ولما كان ذكر المعصـية وما جرأ عليها يقتضـي انتقاصـاً يقدح في الإلهية، بين أنه الموجب للغضـب فقال: {وذلكم} أي الأمر العظيم في القباحة، ثم بينه بقوله: {ظنكم} أي الفاسد، ووصفه بقوله: {الذي ظننتم بربكم} أي الذي طال إحسانه إليكم من أنه لا يعلم حالكم، ثم أخبر عنه بقوله: {أرداكم} أي تسـبب عنه خاصـة أنه أهلككم. وأما معاصـي الجوارح مع التوحيد والتنزيه

فأمرها أسـهل، والحاصـل أن كل ظن كان غير مأذون فيه من الشـارع فهو يردي صاحبه.

ولما كان الصـباح محل رجاء الأفراح، فكان شـر الأتراح ما كان فيه، قال: {فأصـبحتم} أي بسـبب أن ما أعطيتموه من النعم لتسـتنقذوا به أنفسـكم من الهلاك كان سـبب هلاككم {من الخاسـرين *} أي العريقين في الخسـارة، المحكوم بخسارتهم في جميع ذلك اليوم، وصوره بأقبح صورة وهو الصباح، فالمعنى أنه إذا صـــار حالكم حال من أصـــبح كذلك لم يكن للربح وقت يتدارك فيه بخلاف ما لو وجد ذلك عن المســاء فإنه كان ينتظر الصـــباح للسعي في الربح، ويوم القيامة لا يوم بعده يسعى فيه للربح، فينبغي للمؤمن أن يكون حال خلوته أشد ما يكون هيبة لله.

ولما كان ذلك، تسبب عنه قوله لافتاً القول عن خطابهم إيذاناً بشدة الغضب وإشـارة ألى أنهم لما وصـلوا إلى ما ذكر من الحال أعيا عليهم المقال، فلم يقدروا على نطق بلسـان، ولا إشـارة برأس ولا بنان: {فإن يصـبروا} أي على ما جوزوا به فليس صبرهم بنافعهم، وهو معنى قوله: {فالنار مثوى} أي منزلاً {لهم وإن يسـتعتبوا} أي يطلبوا الرضـى بزوال العتب وهو المؤاخذة بالذنب {فما هم من المعتبين *} أي المرضـــيين الذين العتب عليهم ليعفي عنهم ويترك عذابهم.

ولما ذكر وعيدهم في الدنيا والآخرة، أتبعه كفرهم الذي هو ســبب الوعيد، وعطفه على ما تقديره: فإنا طبعناهم طبيعة سـوء تقتضـي أنهم لا ينفكون عما يوجب العتب، فأعرضـوا ولم تنفعهم النذرى بصـاعقة عاد وثمود، فقال

صـــارفاً القول إلى مظهر العظمة إشـــارة إلى أن التصـــرف في القلوب أمر عظيم جداً: {وقيضـــنا} أي جئنا وأتحنا وبعثنا وســـببنا ووكلنا وهيأنا، من القيض الذي هو المثل، وقشـــر البيضـــة الأعلى اليابس {لهم قرناء} أي أشـــخاصـــاً أمثالهم في الأخلاق والأوصـــاف أقوياء وهم مع كونهم شـــديدي الالتصـاق بهم والإحاطة في غاية النحس والشدة في اللؤم والخبث واللجاجة فيما يكون به ضيق الخير واتساع الشر من غواة الجن والإنس {فزينوا لهم} أي من القبائح {ما} وعم الأشـياء كلها فلم يأت بالجار فقال: {بين أيديهم} أي يعلمون قباحته حتى حسـنوه لهم فارتكبوه ورغبوا فيه {وما خلفهم} أي ما يجهلون أمره ولا يزالون في كل شـــــيء يزينونه ويلحون فيه ويكررونه حتى يقبل، فإن التكرير مقرون بالتأثير، قال القشـــيري: إذا أراد الله بعبد ســـوءاً قيض له إخوان ســـوء وقرناء ســـوء يحملونه على المخالفات ويدعونه إليها، وإذا أراد الله بعبد خيراً قيض له قرناء خير يعينونه على الطاعات ويحملونه عليها ويدعونه إليها، ومن ذلك الشـيطان، وشـــر منه النفس وبئس القرين، تدعو اليوم إلى ما فيه الهلاك وتشهد غداً عليه.

ولما كان التقدير: فلم يدعوا قبيحة حتى ارتكبوها، عطف عليه قوله: {وحق} أي وجب وثبت {عليهم القول} أي بدوام الغضب.

ولما كان هذا مما يوجب شدة أسفه صلى الله عليه وسلم، خفف منه بقوله: {في} أي كائنين في جملة {أمم} أي كثيرة. ولما عبر عنهم بما يقتضـــي تعظيمهم بأنهم مقصـودون، حقرهم بمضـير التأنيث فقال: {قد خلت} أي لم

تتعظ أمه منهم بالأخرى. ولما كان الخلو قد يكون بالموت في زمانهم، بين أنه مما مضى وفات.

ولما كان بعض من مضى غير مستغرق لجميع الزمان، عبر ب «من» فقال: {من قبلهم} أي في الزمان، وقدم الأقوى لتفهم القدرة عليه القدرة على ما دونه من باب الأولى، فإن الإنس كانوا يعدون أنفسهم دون الجن فيعوذون بهم فقال: {من الجن والأنس} ثم علل حقوق الشقاء عليهم بقوله منبهاً بالتأكيد على أنهم ينكرون أن تكون القبائح موجبة للخسر {إنهم} أي جميع المذكورين منهم وممن قبلهم: {كانوا} أي طبعاً وفعلاً {خاسرين *} فعلى العاقل أن يجتهد في اختيار أصحابه وأخدانه وأحبابه، فإن العاقبة فيهم حسنة جسيمة أو قبيحة وخيمة، روى صاحب الفردوس عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

»إذا أراد الله بعبد شراً قيض له قبل موته شيطاناً فلا يرى حسناً إلا قبحه ولا قبيحاً إلا حسنه عنده». ولأحمد وأبي داود والنسائي وأبي يعلى وابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أراد الله بوالي خيراً جعل له وزير صدق، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه». وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما والنسائي عن أبي هريرة وحده رضي الله عنه والبخاري أيضاً عن أبي أيوب رضي الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانة تأمره بالمعروف وتحضه

عليه، وبطانة تأمره بالشـــر وتحضـــه عليه، والمعصـــوم من عصـــمه الله تعالى». وفي رواية النســـائي: «ما من وال إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، فمن وقي شـــرها فقد وقي، وهو إلى من يغلب عليه منهما»، ورواية البخاري عن أبي أيوب نحوها.

ولما أخبر بخســرانهم، دل عليه بما عطف على ما أرشـد إليه السـياق من تقديره من وقولي: فأعرضـوا- أي هؤلاء العرب- وقالوا- هكذا كان الأصـل ولكنه قال تنبيها على الوصـف الذي أوجب إعراضـهم: {وقال الذين كفروا} أي ستروا ما دلتهم عليه عقولهم من الحق {لا تسمعوا} أي شيئاً من مطلق الســماع {لهذا القرآن} تعييناً بالإشـــارة احترازاً من غيره من الكتب القديمة كالتوارة، قال القشيري: لأنه يغلب القلوب ويسلب العقول، وكل من استمع له صـبا إليه {وألغوا} أي أهذوا من لغي- بالكسـر يلغى- بالفتح- إذا تكلم بما لا فائدة فيه {فيه} أي اجعلوه ظرفاً للغو بأن تكثروا من الخرافات والهذيانات واللغو بالمكاء والتصدية أي الصفير والتصفيق وغيرهما في حال تلاوته ليقع تاليه في السـهو والغلط، قال القشـيري: قالوا ذلك ولم يعلموا أن من نور قلبه بالإيمان وأيد بالفهم وأمد بالبصـيرة وكوشـف بسـماع السـر من الغيب، فهو الذي يســمع ويؤمن، والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمان قلبه، ولا يباشر السماع سره.

{لعلكم تغلبون *} أي ليكون حـالكم حـال من يرجى لـه أن يغلـب ويظفر بمراده في أن يميل إليه أحد، أو يســكت أو ينســى ما كان يقول، وهذا يدل

على أنهم عارفون بأن من سمعه ولا هوى عنده مال إليه وأقبل بكليته عليه، وقد فضحوا أنفسهم بهذا فضيحة لا مثل لها، وذلك لأنهم تحدوا به في أن يأتوا بشيء من مثله ليعدوا غالبين فلم يجدوا شيئاً يترجون به الغلب إلا الصفير والتصفيق ونحوه من اللغو في معارضة ما علا من أعلى ذرى الكلام إلى حيث لا مطمع ولا مرام، فلا يفيد ما أتوا به معنى غير أنهم عاجزون عن المعارضة قاطعون بأنهم متى أتوا بشيء منها افتضحوا، وقطع كل من سمعه بأنهم مغلوبون.

▲ تفسير الآيات رقم [27– 30]

{فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27)
ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28)
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)
إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)}

ولما استحقوا بهذا العقوبة، سبب عن ذلك مؤكداً لإنكارهم قوله تعالى: {فلنذيقن} وأظهر في موضع الإضمار تعميماً بالوصف فقال: {الذين كفروا} أي هؤلاء وغيرهم {عذاباً شديداً} في الدنيا بالحرمان وما يتبعه من فنون

الهوان وفي الآخرة بالنيران {ولنجزينهم} أي بأعمالهم. ولما كان من قدر على الأغلظ، قدر على ما دونه قال: {أسوأ} أي جزاء أسوأ العمل {الذين كانوا} بما هو لهم كالغرائز {يعملون *} مواظبين عليه.

ولما أبلغ سبحانه في الترهيب من عقابهم، زاد في تعظيمه وفضله لطفاً لمن أراد هدايته من عباده وإقامة الحجة على غيرهم فقال: {ذلك} أي الجزاء الأسوأ العظيم جداً {جزاء} ولما كانت عداوة من لا يطاق آمراً زائد العظمة، نبه على ذلك بصرف الكلام عن مظهرها إلى أعظم منه فقال: {أعداء الله} أي الملك الأعظم، لأنهم ما كانوا يفعلون ما دون الأسوأ إلا عجزاً عنه لأن جبلتهم تقتضي ذلك، وبينه بقوله: {النار} وفصل بعض ما فيها بقوله: {لهم فيها} أي النار {دار الخلد} أي المحل المحيط بهم الدائر من غير علم من زاوية أو غيرها يعرف به خصوص موضع منه، مع إيذانه بالدوام واللزوم وعدم الانفكاك، أو هو على التجريد بمعنى: هي لهم دار خلود كما كان لهم في الدنيا دار سرور بمعنى أنها كانت لهم نفسها دار لهو وغرور.

ولما كانوا على أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب مصرين إصراراً يمتنع انفكاكهم عنه، زاد حسناً قوله: {جزاء} أي وفاقاً {بما كانوا} أي جبلة وطبعاً، ورد الكلام إلى مظهر العظمة المقتضي للنكال فقال: {بآياتنا} أي على ما لها من العظمة {يجحدون *} أي ينكرون عناداً من غير مراعاة لعلوها في نفسها ولا علوها بنسبتها إلينا، فلأجل جحودهم كانوا يقدمون على ما لا يرضاه عاقل من اللهو وغيره.

ولما تراءى لهم أن الذي أوجب لهم هذا السـوء جلودهم بالشـهادة عليهم وقرناؤهم بإضلالهم لهم وكان التباغض والعداوة قد وقع بين الجميع، فصار تمني كل للآخر السوء زيادة في عذابهم، وكانت مساءة جلودهم مساءتهم، خصـوا القرناء بإرادة الانتقام منهم، فحكى سـبحانه قولهم بقوله عطفاً على {وقالوا لجلودهم} أو على ما تقديره: فعلموا حينئذ أنهم كانوا على ضـلال لتقصـيرهم في النظر وتقليدهم لغيرهم: {وقال الذين كفروا} أي غطوا أنوار عقولهم داعين بما لو يسـمع لهم، فهو زيادة في عقوبتهم، وحكايته لنا وعظ وتحذير:

{ربنا} أي أيها الذي لم يقطع قط إحسـانه عنا {أرنا} الصـنفين {اللّذين أضـلاّنا} عن المنهج الموصـل إلى محل الرضـوان {من الجن والإنس} المزينين لنا ارتكاب السـوء خفية وجهراً، قرأ الجماعة بكسـر الراء من أرنا، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب والسـوسـي عن أبي عمرو وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء هنا خاصة.

قال الأصـبهاني: يحكى عن الخليل أنك إذا قلت: أرني ثوبك- بالكسـر فالمعنى بصـرنيه، وإذا قلته بالسـكون فهو اسـتعطاء، ومعناه أعطني ثوبك، ونظيره اشـتهار الإيتاء في معنى الإعطاء، وأصـله الإحضـار- انتهى. {نجعلهما تحت أقدامنا} في النار إذلالاً لهما كما جعلانا تحت أمرهما {ليكونا من الأسـفلين *} أي من أهل الدرك الأسـفل وممن هو دوننا كما جعلانا كذلك في الدنيا في حقيقة الحال بإتباعنا لهما فيما أراد بنا، وفي

الآخرة بهذا المال، والظاهر أن المراد أن كل أحد يتمنى أن يعرف من أضله من القبيلتين ليفعل بهم ذلك إن قدر عليه.

ولما ذكر الأعداء وقرناءهم نذارة، أتبعه ذكر الأولياء وأوداءهم بشـارة، فقال مبيناً لحالهم القابل للإعراض وثمراته جواباً لمن يســأل عنهم مؤكداً لأجل إنكار المعاندين: {إن الذين} قال أبو حيان: قال ابن عباس رضـي الله عنهما: نزلت في الصـديق رضـي الله عنه وأرضـاه. {قالوا} أي قولاً حقيقياً مذعنين به بالجنان وناطقين باللســان تصــديقاً لداعي الله في دار الدنيا متذللين حيث ينفع الذل جامعين بين الأسّ الذي هو المعرفة والاعتقاد، والبناء الذي هو العمل الصــالح بالقول والفعل على الســداد، فإن أصــل الكمالات النفســانية يقين مصــلح وعمل صــالح، تعرف الحق لذاته والخير لتعمل لـه ورأس المعارف اليقينية ورئيســها معرفة الله، ورأس الأعمال الصــالحة الاســتقامة على حد الاعتدال من غير ميل إلى طرف إفراط أو تفريط: {ربنا} أي المحســن إلينا {الله} المختص بالجلال والإكرام وحده لا شريك له.

ولما كان الثبات على التوحيد ومصحححاته إلى الممات أمراً في علو رتبته لا يرام إلا بتوفيق ذي الجلال والإكرام، أشــار إليه بأداة التراخي فقال: {ثم اســتقاموا} طلبوا وأوجدوا القوام بالإيمان بجميع الرســل وجميع الكتب ولم يشركوا به صنماً ولا ثناً ولا آدمياً ولا ملكاً ولا كوكباً ولا غير بعبادة ولا رياء، وعملوا بما يرضيه وتجنبوا كل ما يسخطه وإن طال الزمان، امتثالاً لما أمر به أول الســورة في قوله {إنما إلهكم إله واحد فاســتقيموا إليه} فمن كان له

أصـــــل الاســــتقامة في التوحيد أمن من النار بالخلود، ومن كان له كمال الاســتقامة في الأصــول والفروع أمن الوعيد {تتنزل} على ســبيل التدريج المتصــل {عليهم} من حين نفخ الروح فيهم إلى أن يموتوا ثم إلى أن يدخلوا الجنة باطناً فظاهراً {الملائكة} بالتأييد في جميع ما ينوبهم فتستعلي الأحوال الملكية على صفاتهم البشرية وشهواتهم الحيوانية فتضمحل عندها، وتشرق مرائيهم، ثم شرح ما يؤيدونهم به وفسره فقال: {ألا تخافوا} أي من شي مثله يخيف، وكأنهم يثبتون ذلك في قلوبهم {ولا تحزنوا} أي على شيء فاتكم، فإن ما حصل لكم أفضل منه، فأوقاتكم الأخراوية فيها بل هي كلها روح وراحة، فلا يفوتهم لذلك محبوب ولا يلحقهم مكروه {وابشــروا} أي املأوا صــدوركم سروراً يظهر أثره على بشرتكم بتهلل الوجه ونعمة سائر الجسد {بالجنة التي كنتم} أي كوناً عظيماً على ألســنة الرسـل {توعدون *} أي يتجدد لكم ذلك كل حين بالكتب والرســـل، وقال الرازي في اللوامع : يبشـــرون في ثلاثة مواضـــع : عند الموت، وفي القبر، ويوم البعث- انتهى. وهذا محول على الكلام الحقيقي وما قبله على أنهم يفعلون معه ما ترجمته ذلك.

▲ تفسير الآيات رقم [31- 33]

{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31)

نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)}

ولما أثبتوا لهم الخير، ونفوا عنهم الضير، عللوه بقولهم: {نحن أولياؤكم} أي أقرب الأقرباء إليكم، فنحن نفعل معكم كل ما يمكن أن يفعله القريب {في الحياة الدنيا} نجتلب لكم المسرات ونبعد عنكم المضرات ونحملكم على جميع الخيرات بحيث يكون لكم فيها ما تؤثره العقول بالامتناع مما تهواه النفوس وإن تراءى للرائين في الدنيا أن الأمر بخلاف ذلك، فنوقظكم من المنام، ونحملكم على الصلاة والصيام، ونبعدكم عن الآثام، ضد ما تفعله الشياطين مع أوليائهم {وفي الآخرة} كذلك حيث يتعادى الأخلاء إلا الأتقياء {ولكم فيها} أي الآخرة في الجنة وقبل دخولها في جميع أوقات الحشر {ما تشتهي} ولو على أدنى وجوه الشهوة بما يرشد إليه حذف المفعول {أنفسكم} لأجل ما منعتموها من الشهوات في الدنيا {ولكم}.

ولما كان السياق للذين استقاموا العام للسابقين وأصحاب اليمين على ما أشير إليه الختم بصفة المغفرة وتقديمها، قيد بالظرف بخلاف ما في يس

فقال: {فيها} أي الآخرة {ما تدعون *} أي ما تؤثرون دعاءه وطلبه وتسألونه وتمنونه بشهوة نفوسكم ورغبة قلوبكم.

ولما كان هذا كله بالنسبة إلى ما يعطون شيئاً يسيراً، نبه عليه بقوله: {نزلاً} أي هذا كله يكون لكم كما يقدم إلى الضـــيف عند قدومه إلى أن يتهيأ ما يضـاف به. ولما كان من حوسب عذب، فلا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، أشـــار إلى ذلك بقوله: {من} أي كائناً النزل من {غفور} له صــفة المحو للذنوب عيناً وأثراً على غاية لا يمكن وصفها {رحيم *} أي بالغ الرحمة بما ترضـاه الإلهية، فالحاصـل أن المفسـد يقيض الله له قرناء السـوء من الجن والإنس يزيدونه فســاداً والمصــلح ييســر الله له أولياء الخير من الإنس والملائكة يعينونه ويحببونه في جميع الخيرات ويبعدونه ويكرهونه في جميع المضرات- والله يتولى الصالحين.

ولما كان هذا لمن كمل نفسـه، أتبعه بمن أكمل غيره إشـارة إلى أن السـعادة التامة أن يكتسـب الإنسـان من الصـفات الفاضـلة مما يصـير بها كاملاً في نفسـه، فإذا فرغ اشتغل بتكميل الناقص عاطفاً على ما تقديره: ما أحسن هذا الذي كمل نفســـه، وقاله تنويهاً بعلو قدر النفع المتعدي وحثاً على مداومة الدعاء وإن أبوا وقالوا {قلوبنا في أكنة} ثم قالوا {لا تسمعوا لهذا القرآن} فإنهم لم يقولوا من ذلك شـــيئاً إلا ذكرت أجوبته الشـــافية الكافية فاندفعت جميع الشـبهات وزالت غياهب الضـلالات، فصـار تحذير الدعاء موضـعاً للقبول {ومن أحسـن قولاً} أي من جهة القول {ممن دعا} وحد الضـمير دلالة على قلة هذا الصــنف {إلى الله} أي الذي عم بصــفات كماله جميع الخلق فهو

يستعطف كل أحد بما تعرف إليه سبحانه به من صفاته {وعمل} أي والحال أنه قد عمل {صالحاً} في نفسه ليكون ذلك أمكن لدعائه أعم من أن يكون ذلك لصالح نية أو قولاً أو عملاً للجوارح الظاهرة سراً كان أو علناً، ولذا حذف الموصوف لئلا يوهم تقيده بالأعمال الظاهرة وللاغناء عنها بقوله «دعا» بخلاف ما كان سياقه للتوبة كآية الفرقان أو اعتقاد الحشر كآية الكهف، فإنه لا بد فيه من إظهار العمل ليكون شاهداً على صحة الاعتقاد وكمال التوبة، والدعاء هنا مغنٍ عن ذلك {وقال} مؤكداً عند المخالف والمؤالف قاطعاً لطمع المفسد فيه: {إنني من المسلمين *} أي الراسخين في صفة الإسلام متظاهراً بذلك لا يخاف في الله لومة لائم وإن سماه أبناء زمانه كذا جافياً وغليظاً عاسياً لتصلبه في مخالفته إياهم فيما هم عليه بتسهله في انقياده لكل ما أمره به ربه سبحانه.

▲ تفسير الآيات رقم [34- 37]

{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)}

ولما كان التقدير: لا أحد أحسن قولا منه، بل هو المحسن وحده، فلا يستوي هذا المحسن وغيره أصلاً، رداً عليهم أن حالهم أحسن من حال الدعاة إلى الله، وكان القيام بتكميل الخلق يحتاج إلى جهاد للنفس عظيم من تحمل المشاق والصبر على الأذى، وغير ذلك من جميع الأخلاق، عطف عليه التفرقة بين عمليهما ترغيباً في الحسنات فقال: {ولا تستوي} أي وإن اجتهدت في التحرير والاعتبار {الحسنة} أي لا بالنسبة إلى أفراد جنسها ولا بالنسبة إلى عامليها عند وحدتها، لتفاوت الحسنات في أنفسها، والحسنة الواحدة باعتبار نيات العاملين لها واجتهادهم فيها ولا بالنسبة إلى غيرها، وإلى ذلك إشارة بالتأكيد في قوله: {ولا السيئة} أي في نفسها ولا بالنسبة إلى جنس آخر.

ولما أنتج هذا الحث على الإقبال على الحسن والإعراض عن السيء، وأفهم أن كلاً من القسمين متفاوت الجزئيات متعالي الدرجات، وكان الإنسان لا ينفك عن عوارض تحصل له من الناس ومن نفسه يحتاج إلى دفع بعضها، أنتج عند قصد الأعلى فقال: {ادفع} أي كل ما يمكن أن يضرك من نفسك ومن الناس {بالتي} أي الخصال والأحوال التي {هي أحسن} على قدر الإمكان من الأعمال الصالحات فالعفو عن المسيء حسن، والإحسان أحسن منه {فإذا الذي بينك وبينه عداوة} عظيمة قد ملأت ما بين البينين فاجأته حال كونه {كأنه ولي} أي قريب ما يفعل القريب {حميم *} أي في غاية القرب لا يدع مهماً إلا قضاه وسهله ويسره، وشفا علله، وقرب بعيده، وأزال درنه، كما يزيل الماء الحار الوسخ.

ولما كانت هذه الخصـــلة أمّا جامعاً لجميع مصـــالح الدين والدنيا قال منبهاً على عظيم فضـــلها وبديع نبلها حاثاً على الاســتظلال بجميع ظلها مشــيراً بالبناء للمفعول إلى أنها هي العمدة المقصـــودة بالذات على وجه منبه على أنها مخالفة لجبلة الإنسان حثاً على الرغبة في طلبها من واهبها {وما يلقّاها} أي يجعل لاقياً لهذه الخصـلة التي هي مقابلة الإسـاءة بأحسـن الحسـن وهو الإحسان الذي هو أحسن من العفو والحلم والصبر والاحتمال بأن يعلق الله تعالى إرادته على وجه الشــدة والمبالغة بإلقائها إليه {إلا الذين صــبروا} أي وجدت منهم هذه الحقيقة وركزت في طباعهم، فصـــــاروا يكظمون الغيظ ويحتملون المكاره، وكرر إظهار البناء للمفعول للتنبيه على أنه لا قدرة عليها أصـــــلاً إلا بتوفيق الخالق بأمر وطني يقذفه الله في القلب قذفاً وحياً تظهر ثمرته على ســائر البدن، فقال دالاً باعادة النافي على زيادة العظم وعلى أن أصحاب هذه الخصلة على رتبتين كل رتبة منهما مقصودة في نفسها {وما يلقّاها} على ما هي عليه من العظمة {إلا} وأفرد هنا بعد جمع الصابر دلالة على ندرة المسـتقيم على هذه لخصــلة {ذو حظ} أي نصـيب وقسـم وبخت {عظيم *} أي جليل في الدنيا والآخرة عند الله وعند الناس.

ولما كان التقدير : فإن لقيت ذلك وأعاذك الله من الشـــيطان فأنت أنت، عطف عليه قوله معبراً بأداة الشك المفهمة لجواز وقوع ذلك في الجملة، مع العلم بأنه صلى الله عليه وسلم معصوم إشارة إلى رتبة الإنسان من حيث هو إنسـان وإلى أن الشـيطان يتوهم مع علمه بالعصـمة أنه يقدر على ذلك فيعلق أمله به، وكأنه لذلك أكد لأن نزغه له في محل الإنكار {وإمّا} ولما

كانت وسوسة الشيطان تبعث على ما لا ينبغي، وكان العاقل لا يفعل ما لا ينبغي إلا بالالجاء، شـــبه المتعاطي له بالمنخوس الذي حمله النخس على ارتكاب ما يضر فقال: {ينزغنك} أي ينخسنك ويطعننك طعناً مفسداً فيحصل لك تألم {من الشيطان} البعيد من الرحمة المحترق باللعنة. ولما كان المقام خطراً لأن الطبع مساعد للوسواس، جعل النزغ نفسه نازغاً إشارة إلى ذلك فقال: {نزغ} أي وسوسة تحرك نحو الموسوس من أجله وتبعث إليه بعث المنخوس إلى الجهة التي يوجه إليها، فإن ينبعث إلى تلك الجهة بعزم عظيم {فاستعذ بالله} أي استجر بالملك الأعلى واطلب منه الدخول في عصمته مبادراً إلى ذلك حين نخس بالنزغة فإنه لا يقدر على الإعاذة منه غيره ولا تذر النزغة تتكرر بل ارجع إلى المحيط علماً وقدرة في أول الخطرة، فإنك إن لم تخالف أول الخطرة صارت فكرة فيحصل العزم فتقع الزلة فتصير قسوة فيحصل التمادي– نبه عليه القشيري.

ولما كانت الاستعاذة هنا من الشيطان، وكان نزغه مما يعلم لا مما يرى وكانت صفة السمع نعم ما يرى وما لا يرى، قال مؤكداً لوقوف الجامدين مع الظواهر: {إنه هو} أي وحده {السميع} وختم بقوله: {العليم *} الذي يسمع كل مسموع من استعاذتك وغيرها، ويعلم كل معلوم من نزغه وغيره، فهو القادر على رد كيده، وتوهين أمره وأيده، وليس هو كما جعلتموه له من الأنداد الصم البكم التي لا قدرة لها على شيء أصلاً.

ولما ذكر أنهم جعلوا له أنداداً مع أنه خلق الأرض في يومين، وختم ذلك بأن أحسن الحسن الدعاء إلى الله، وختم الأمر بالدعاء بصفة العلم، أتبعه

دلائل التوحيد إعلاماً بأن التوحيد أحسن الحسن يطرد كل شيء، وتنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تنوير الدلائل الدالة على الذات والصفات، وذلك ببيان الأفعال وآثارها وهو العالم بجميع ما فيه من الأجزاء والأبعاض جوهراً وعرضاً، وبدأ بذكر الفلكيات لأنها أدل، فقال عاطفاً على ما تقديره: فمن آياته الناشئة عن شمول علمه المستلزم لشمول قدرته المنتجة لإعادته لمن يريد ونفوذ تصرفه في كل ما يشاء المستلزم لتفرده بالإلهية أنه خلق الخافقين كما مضى في ستة أيام: {ومن آياته} الدالة على وحدانيته:

وفي كل شيء له آية *** تدل على أنه الواحد

ولما كانت الظلمة عدماً والنور وجوداً والعدم مقدم قال: {الليل والنهار} أي الدالّآن باختلافهما وهيئتهما على قدرته على البعث وعلى كل مقدور {والشمس والقمر} اللذان هما الليل والنهار كالروح لذوي الأجساد، وهذه الموجوات- مع ما مضى من خلق الخافقين- كتاب الملك الديان، إلى الإنس والجان، المشهود لهم بالعيان كما قيل يا إنسان:

تأمل سطور الكائنات فإنها *** من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطة *** إلا كل شيء ما خلا الله باطل

ولما ثبت له سبحانه التفرد بالخلق والأمر، وكان باطناً إلا عند من نور الله أو كانت الشمس والقمر من آياته المعرفة المشيرة في وجود الدنيا والآخرة إليه، وكانا مشاهدين، وكان الإنسان قاصر العقل مقيد الوهم بالمشاهدات لما عنده من الشواغل إلا من عصم الله، أنتج قوله محذراً من عبادتهما لما يرى لهما من البهاء وفيهما من المنافع: {لا تسجدوا للشمس} التي هي

أعظم أوثانكم فإنها من جملة مبدعاته، وأعاد النافي تأكيداً للنفي وإفادة لأن النهي عن كل منهما على حدته ولذلك أظهر موضـع الإضـمار فقال: {ولا للقمر} كذلك.

ولما نهى عن السـجود لهما، أمر بالسـجود بما يبين اسـتحقاقه لذلك وعدم استحقاقهما أو استحقاق شـيء غيرهما له فقال: {واسجدوا} ونبه على مزيد عظمته بالإظهار موضـع الإضـمار فقال: {لله} أي الذي له كل كمال من غير شائبة نقص من أقول أو تجدد حلول {الذي خلقهن} أي الأربعة لأجلكم فهو الذي يســـتحق الإلهية، وأنث لأن ما لا يعقل حكمه حكم المؤنث في الضمير وهي أيضاً آيات، وفيه إشارة إلى تناهي سفولها عما أهلوها له وذم عابديها بالإفراط في الغباوة، ويمكن أن يكون عد القمر أقماراً لأنه يكون تارة هلالاً وأخرى بدراً وأخرى محواً، فلذلك جمع إشارة إلى قهرهما بالتغيير له في الجرم ولمهما بالتسيير، ولذلك عبر بضمير المؤنث الذي يكون لجمع الكثرة مما لا يعقل.

ولما ظهر أن الكل عبيده، وكان السيد لا يرضى بإشراك عبده عبداً آخر في عبادة سيده قال: {إن كنتم إياه} أي خاصـة بغاية الرسوخ {تعبدون *} كما هو صريح قولكم في الدعاء في وقت الشدائد لا سيما في البحر، ومحصل قولكم {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} فإن أشركتم به شيئاً بسجود أو غيره فما خصـصـتموه بالعبادة لأن السـجود من العبادة وفعله ولو في وقت واحد لغيره إشـراك في الجملة، ومن أشـرك به لم يعبده وحده، ومن لم يعبده وحده لم يعبده أصـــلاً، لأنه أغنى الأغنياء، لا يقبل إلا الخالص وهو أقرب

إلى عباده من كل شـــيء فيوشـك أن ينتقم بإشـراككم، وفي الآية إشــارة إلى الحث على صيانة الآدميين عن أن يقع منهم سجود لغيره رفعاً لمقامهم عن أن يكونوا ســاجدين لمخلوق بعد أن كانوا مســجوداً لهم، فإنه ســبحانه أمر الملائكة الذين هم أشـــرف خلقه بعدهم بالســـجود آدم وهم في ظهره فتكبر اللعين إبليس، فابد لعنه، فشتان ما بين المقامين.

▲ تفسير الآيات رقم [38– 41]

{فَإِنِ اسْـتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَـبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـأَمُونَ (38)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِـعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41)}

ولما كانوا في هذا الأمر بين طاعة ومعصـــية، وكان درء المفاســـد مقدماً، سبب عن ذلك قوله معبراً بأداة الشك تنبيهاً لهم على أن استكبارهم بعد إقامة هذه الأدلة ينبغي أن لا يتوهم، وصـــرف القول إلى الغيبة تحقيراً لهم وإبعاداً على تقدير وقوع ذلك منهم {فإن استكبروا} أي أوجدوا الكبر عن اتباعك فيما أمرتهم به من التوحيد فلم يوحدوا الله ولم ينزهوه تعالى عن الشـــريك {فالذين عند} وأظهر موضع الإصـخار معبراً بوصـف الإحسـان بشـارة له ونذارة لهم {ربك} خاصـــة لا عندهم لكونهم مقربين لديه في درجة الرضـــاء والكرامة

ولكونهم مما يستغرق به الآدميون ولكون الكفار لا قدرة لهم على الوصول إليهم بوجه: {يسبحون له} أي يوقعون التنزيه عن النقائص ويبعدون عن الشركة لأجل علوه الأقدس وعزه الأكبر لا لشيء غيره إخلاصاً في عبادته وهم لا يستكبرون.

ولما كان حال الكفار في الإخلاص مختلفاً في الشدة والرخاء، أشار إلى تقبيح ذلك منهم بتعميم خواصه عليهم الصلاة والسلام بالإخلاص حالتي الإثبات الذي هو حالة بسط في الجملة، والمحو الذي هو حالة قبض كذلك يجددون هذا التنزيه مستمرين عليه في كل وقت فقال: {بالليل والنهار} أي على مر الملوين وكر الجديدين لا يفترون. ولما كان في سياق الفرص لاستكبارهم المقتضي لإنكارهم، أكد بالعاطف والضمير فقال مؤذناً بأن هذا ديدنهم لا ينفكون عنه: {وهم} أي والحال أنهم على هذا الدوام {لا يسئمون *} أي لا يكاد لهم في وقت من الأوقات فتور ولا ملل، فهو غني عن عبادة هؤلاء بل وعن عبادة كل عابد، والحظ الأوفر لمن عنده وأما هو سبحانه فلا يزيده شيئاً ولا ينقصه شيء فدع هؤلاء أن استكبروا وشأنهم، فيعلمون من الخاسر، فالآية من الاحتباك: ذكر الاستكبار أولاً دليلاً على حذفه ثانياً والتسبيح ثانياً دليلاً على حذفه أولاً، وسر ذلك أنه ذكر أقبح ما لأعدائه وأحسن ما لأوليائه.

ولما ذكر بعض آيات السماء لشرفها، ولأن بعضها عبد، ومن آثار الإلهية، فذكر دلالتها على وحدانيته اللازم منه إبطال عبادتها، أتبعه بعض آيات الأرض بخلاف ما في يس، فإن السياق هناك للبعث وآيات الأرض أدل

فقال: {ومن آياته} أي الدالة على عظم شـــأنه وعلو ســـلطانه {أنك ترى الأرض} أي بعضـها بحاسـة البصـر وبعضـها بعين البصـيرة قياساً على ما أبصرته، لأن الكل بالنسبة إلى القدرة على حد سواء.

ولما كان الســـياق للوحدانية، عبر بما هو أقرب إلى حال العابد بخلاف ما مضـى في الحج فقال: {خاشعة} أي يابسـة لا نبات فيها فهي بصـورة الذليل الذي لا منعة عنده لأنه لا مانع من المشي فيها لكونها متطأمنة بعد الساتر لوجهها بخلاف ما إذا كانت مهتزة رابية متزخرفة تختال بالنبات.

ولما كان إنزال الماء مما اســـتأثر به ســـبحانه، فهو من أعظم الأدلة على عظمة الواحد، صــرف القول إلى مظهر العظمة فقال: {فإذا أنزلنا} بما لنا من القدرة التامة والعظمة {عليها الماء} من الغمام أو ســـقناه إليها من الأماكن العالية وجلبنا به إليه من الطين ما تصـــلح به للانبات وإن كانت ســبخة كأرض مصــر {اهتزت} أي تحركت حركة عظيمة كثيرة ســريعة، فكانت كمن يعالج ذلك بنفســه {وربت} أي تشـققت فارتفع ترابها وخرج منها النبات وســما في الجو مغطياً لوجهها، وتشــعبت عروقه، وغلظت ســوقه، فصار يمنع سلوكها على ما كان فيه من السهولة، وصار بحسن زيه بمنزلة المختال في أثواب ثرية بعد أن كان عارياً ذليلاً في أطمار رثة وحل زرئ وكذلك القلوب إذا خشـعت لاسـتشـعارها بما ألمت به من الذنوب أقبل الحق ســـبحانه عليها فطهرها بمياه المعارف فظهرت فيها بركات الندم وعفا عن أربابها ما قصـروا في صـدق القدم وأشـرقت بحلى الطاعات وزهت بملابس القربات، وزكت بأنواع التجليات.

ولما كان هذا دليلاً مشـــاهداً على القدرة على إيجاد المعدوم، وإعادة البالي المحطوم، أنتج ولا بد قوله مؤكداً لأجل ما هم فيه من الإنكار صـارفاً القول عن مظهر العظمة إلى ما ينبه على القدرة على البعث ولا بد : {إن الذي أحياها} بما أخرج من نباتها الذي كان بلي وتحطم وصـــار تراباً {لمحيي الموتى} كما فعل بالنبات من غير فرق . ولما كانوا مع إقرارهم بتمام قدرته كأنهم ينكرون قدرته لإنكارهم البعث قال معللاً مؤكداً: {أنه على كل شـيء قدير *} لأن الممكنات متساوية الأقدام بالنسبة إلى القدرة، فالقادر قدرة تامة على شيء منها قادر على غيره.

ولما بين أن الدعوة إلى الله أعظم المناصــب، وأشــرف المراتب، وبين أنها إنما تحصل ببيان دلائل التوحيد التي من اعظمها البعث، وبينه إلى أن كان بهذا الحد من الوضــوح، كان مجز التهديد من أعرض عن قبوله: فقال في عبارة عامة له ولغيره، مؤكداً تنبيهاً على أن فعلهم فعل من يظن أنه سبحانه لا يطلع على أعماله: {إن الذين يلحدون *} أي يميلون بصـــرف المعاني عن القصد وسنن العدل بنحو قولهم {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى}، أو يماحلون باللغو بالمكاء والتصــــدية وغير ذلك من أنواع اللغط وكل ما يشمله معنى الميل عما تصح إرادته.

ولما كان الاجتراء على الإلحاد قادحاً في الاعتراف بالعظمة، أعاد مظهرها فقال : {في آياتنا} على ما لها من العظمة الدالة على ما لنا من الوحدانية وشـمول العلم وتمام القدرة: ولما كان العلم بالإسـاءة مع القدرة سـبباً للأخذ، قال مقرراً للعلم بعد تقرير القدرة: {لا يخفون علينا} أي في وقت من الأوقات

ولا وجه من الوجوه، ونحن قادرون على أخذهم، فمتى شئنا أخذنا، ولا يعجل إلا ناقص يخشى الفوت.

ولما كان الإلحاد سبباً لإلقاء صاحبه في النار، وكان التقدير: ونحن نحلم عن العصاة فمن رجع إلينا أمن كل مخوف، ومن أعرض إلى الممات ألقيناه في النار، سبب عنه قوله تعالى: {أفمن يلقى في النار} أي على وجهه بأيسر أمر بسبب إلحاده في الآيات وإعراضه عن الدلالات الواضحات، فيكون خائفاً يوم القيامة لما يرى من مقدمات ذلك حتى يدهمه ما خاف منه {خير أم من يأتي} إلينا {آمناً يوم القيامة} حين نجمع عبادنا للعرض علينا للحكم بينهم بالعدل فيدخل الجنة دار السلام فيدوم أمنه، والآية من الاحتباك: ذكر الإلقاء في النار أولاً دليلاً على دخول الجنة ثانياً، والأمن ثانياً دليلاً على الخوف أولاً، وسره أنه ذكر المقصود بالذات، وهو ما وقع الخوف لأجله أولاً، والأمن الذي هو العيش في الحقيقة ثانياً.

ولما كان هذا راداً ولا بد للعاقل عن سوء أعماله إلى الإحسان رجاء إنعام الله وإفضاله، أنتج قوله مهدداً ومخوفاً ومتوعداً صارفاً القول عن الغيبة إلى الخطاب لأنه أدل على الغضب على التمادي بعد هذا البيان: {اعملوا ما شئتم} أي فقد علمتم مصير المسيء والمحسن، فمن أراد شيئاً من الجزاءين فليعمل أعماله، فإنه ملاقيه. ولما كان العامل لا يطمع في الإهمال إلى على تقدير خفاء الأعمال، والمعمول له لا يترك الجزاء إلا لجهل أو عجز، بين أنه سبحانه محيط العلم عالم بمثاقيل الذر فقال مرغباً مرهباً مؤكداً لأنهم يعملون عمل من يظن أن أعماله تخفى، عادلاً عن مظهر العظمة إلى ما

هو أدل شـيء على الفردانية، لئلا يظن ان مزيد العلم بواسطة كثيرة: {إنه} وقدم أعمالهم تنبيهاً على الاهتمام بشـأنها جداً فقال: {بما تعملون} أي في كل وقت {بصير *} بصراً وعلماً، فهو على كل شيء منكم قدير.

ولما جعل إليهم الاختيار في العمل تهديداً، أتبعه الإخبار بما لمن خالفه، فقال مؤكداً لإنكارهم مضـامين ما دخل عليه التأكيد: {إن الذين كفروا} أي سـتروا مرائي العقول الدالة على الحق مكذبين {بالذكر} الذي لا ذكر في الحقيقة غيره {لمّا جاءهم} من غير توقف أصـلاً فدل ذلك منهم على غاية العناد {وإنه} أي والحال أنه {لكتاب} أي جامع لكل خير {عزيز *} أي لا يوجد مثله فهو يغلب كل ذكر ولا يغلبه ذكر ولا يقرب من ذلك، ويعجز كل معارض ولا يعجز أصلاً عن إقعاد مناهض.

▲ تفسير الآيات رقم [42- 45]

{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (43)

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّـلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)}

ولما كان من معاني العزة أنه ممتنع بمتانة رصـــفه وجزالة نظمه وجلالة معانيه من أن يلحقه تغيير ما، بين ذلك بقوله: {لا يأتيه الباطل} أي البين البطلان إتيان غلبة فيصير أو شيء منه باطلاً بيّنا، ولما كان المراد تعميم النفي، لا نفي العموم، أدخل الجار فقال: {من بين يديه} أي من جهة الظاهر مثل ما أمر أخبر به عما كان قبله {ولا من خلفه} من جهة العلم الباطن مثل علم ما لم يشـتهر من الكائن والآتي سـواء كان حكماً أو خبراً لأنه في غاية الحقية والصدق، والحاصل أنه لا يأتيه من جهة من الجهات، لأن ما قدام اوضـــح ما يكون، وما خلف أخفى ما يكون، فما بين ذلك من باب الأولى، فالعبارة كناية عن ذلك لأن صـفة الله لا وراء لها ولا أمام على الحقيقة، ومثل ذلك ليس وراء الله مرمى، ولا دون الله منتهى، ونحوه مما تفهم العرب ومن علم لسانها المراد به دون لبس، ثم علل ذلك بقوله: {تنزيل} أي بحسب التدريج لأجل المصالح {من حكيم} بالغ الحكمة فهو يضع كل شـيء منه في أتم محاله في وقت النزول وسياق النظم {حميد *} أي بالغ الإحاطة بأوصـاف الكمال من الحكمة وغيرها والتنزه والتطهر والتقدس عن كل شائبة نقص، يحمده كل خلق بلسان حاله إن لم يحمده بلسان قاله، بما ظهر عليه من نقصه أو كماله، والخبر محذوف تقديره: خاسرون لا محالة لأنهم لا يقدرون على شـيء مما يوجهونه إليه من الطعن لأنهم عجزة ضعفاء صغرة كما قال المعري:

أرى الجوزاء تكبر أن تصادا *** فعاند من تطيق له عنادا

وحذف الخبر أهول لتذهب النفس كل مذهب.

ولما وصف الذكر بأنه لا يصح ولا يتصور أن يلحقه نقص، فبطل قولهم {لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه} ونحوه مما مضى وحصل الأمن منه، أتبعه التسلية مما يلحق به من الغم ليقع الصبر على جميع أقوالهم فقال: {ما يقال لك} أي يبرز إلى الوجود قوله سواء كان في ماضي الزمان أو حاضره آو آتيه من شيء من الكفار أو غيرهم يحصل به ضيق صدر أو تشويش فكر من قولهم {قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه} إلى آخره. وغير ذلك مما تقدم أنهم قالوه له متعنتين به {إلا ما} أي شيء {قد قيل} أي حصل قوله على ذلك الوجه {للرسل} وأن لم يقل لكل واحد منهم فإنه قيل للمجموع، ونبه على أن ذلك ليس لمستغرق للزمان بل تارة وتارة بإدخال الجار في قوله: {من قبلك} ولما حصل بهذا الكلام ما أريد من التأسية، فكان موضع التوقع لهم أن يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم من عذاب الاستئصال، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الشفقة عليهم والمحبة لصلاحهم، سكن سبحانه روعه بالإعلام بأن رحمته سبقت غضبه فقال مخوفاً مرجياً لأجل إنكار المنكرين: {إن} وأشار إلى مزيد رفعته بذكر صفة الإحسان وإفراد الضمير فقال: {ربك} أي المحسن إليك بارسالك وإنزال كتابه إليك، ومن أكرم بمثل هذا لا ينبغي له أن يحزن لشيء يعرض {لذو مغفرة} أي عظيمة جداً في نفسها وزمانها ومكانها لمن يشاء منهم، فلا يقطع لأحد بشقاء.

ولما رغبهم باتصافه بالمغفرة، رهبهم باتصافه بالانتقام، وأكد باعادة «ذو» والواو فقال: {وذو عقاب} والختم بما رويه الميم مع تقديم الاسم الميمي في

التي قبلها دال للأشـــعري الذي قال بأن الفواصـــل غير مراعية في الكتاب العزيز، وإنمـا المعول عليـه المعـاني لا غير، والمعنى هنـا على إيلام من كانوا يؤلمون أولياءه باللغو عند التلاوة الدالة على غاية العناد، فلذلك قدم حكيم، ولم يقل شديد، وقال: {أليم *} أي كذلك، فلا يقطع لأحد نجاة إلا من أخبر هو سـبحانه بإشـقائه أو إنجائه، وقد تقدم فعله لكل من الأمرين أنجى ناسـاً وغفر لهم كقوم يونس عليه الصـلاة والسـلام، وعاقب آخرين، وسـيفعل في قومك من كل من الأمرين ما هو الأليق بالرحمة بإرســالك، كما أشـــار إليـه ابتداؤه بـالمغفرة، فـالآيـة نحو : إن ربـك لـذو مغفرة للنـاس على ظلمهم، ولعله لم يصرح هنا تعظيماً للقرآن الذي الكلام بسببه.

ولما افتتحت الســورة بأنه أنزل على أحســن الوجوه وأجملها وأعلاها وأبينها وأكملها من التفصـيل، والجمع والبيان بهذا اللســان العظيم الشـأن، فقالوا فيه ما وقعت هذه التسلية لأجله من قولهم {قلوبنا في أكنة} إلى آخره، وكان ربما قال قائل؛ لو كان بلســان غير العرب، وأعطى هذا النبي فهمه والقدرة وعلى تبيينه لكان أقوى في الإعجاز وأجدر بالاتباع، أخبر أن الأمر ليس كذلك، لأنهم لم يقولوا: هذا الشـك حصـل لهم في أمره، بل عناداً، والمعاند لا يرده شـــيء، فقال على ســبيل التأكيد، معلماً بأن الأمر على غير ما ظنه هذا الظان، وقال الأصـــبهاني: إنه جواب عن قولهم {وقالوا قلوبنا في أكنه} . والأحســـن عندي أن يكون عطفاً على {فصـــلت آياته قرآناً عربياً} وبناه للمفعول لأنه بلســانهم فلم يحتج إلى تعيين المفصـــل، فيكون التقدير: فقد جعلناه عربياً معجزاً، وهم أهل العلم باللســان، فأعرضــوا عنه وقالوا فيه ما

تقدم، ولفت القول عن وصف الإحسان الذي اقتضى أن يكون عربياً إلى مظهر العظمة الذي هو محط إظهار الاقتدار وإنفاذ الكلمة {ولو جعلناه} أي هذا الذكر بما لنا من العظمة والقدرة {قرآناً} أي على ما هو عليه من الجمع {أعجمياً} أي لا يفصح وهو مع ذلك على وجه يناسب عظمتنا ليشهد كل أحد أنه معجز للعجم كما أن معجز للعرب وأعطيناك فهمه والقدرة على إفهامهم إياه {لقالوا} أي هؤلاء المتعنتون فيه كما يقولون في هذا بغياً وتعنتاً: {لولا} أي هلا ولم لا {فصلت آياته} أي بينت على طريقة نفهمها بلا كلفة ولا مبين، حال كونه قرآناً عربياً كما قدمنا أول السورة.

ولما تبين بشاهد الوجود أنهم قالوا في العربي الصرف وبشهادة الحكيم الودود، وأنهم يقولون في الأعجمي الصرف، لم يبق إلا المختلط منهما المنقسم إليهما، فقال مستأنفاً منكراً عليهم للعلم بأن ذلك منهم مجرد لدد لا طلباً للوقوف على سبيل الرشد: {أعجمي} أي أمطلوبكم أو مطلوبنا- على قراءة الخبر من غير استفهام- أعجمي {وعربي} مفصل باللسانين، والأعجمي كما قاله الرازي في اللوامع: الذي لا يفصح ولو كان عربياً والعجمي من العجم ولو تفاصح بالعربية.

ولما كان من الجائز أن يقولوا: نعم، ذلك مطلوبنا، وكان نزولاً من الرتبة العليا إلى ما دونها مع أنه لا يجيب إلى المقترحات إلا مريد للعذاب، او عاجز عن إنفاذ ما نريد، بين أن مراده نافذ من غير هذا فقال: {قل هو} أي هذا القرآن على ما هو عليه من العلو الذي لا يمكن أن يكون شيء يناظره {للذين آمنوا} أي أردنا وقوع الإيمان منهم {هدى} بيان لكل مطلوب {وشفاء}

لما في صدروهم من داء الكفر والهواء والإفك فآذانهم به سميعة وقلوبهم له واعية وهو لهم بصائر قال القشيري فهو شفاء للعلماء حيث استراحوا عن كد الفكرة وتحير الخواطر وشفاء لضيق صدور المريدين بما فيه من التنعيم بقراءته والتلذذ بالتفكر فيه، ولقلوب المحبين من لواعج الاشتياق بما فيه من لطائف المواعيد، ولقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق وآثار خطاب الرب العزيز {والذين لا يؤمنون} أي أردنا أنه لا يتجدد منهم إيمان {في آذانهم وقر} أي ثقل مذهب للسمع مصم، فهم لذلك لا يسمعون سماعاً ينفعهم لأنهم بادروا إلى رده أول ما سمعوه وتكبروا عليه فصاروا لا يقدرون على تأمله فهزهم الكسل وأصمهم الفشل فعز عليهم فهمه {وهو عليهم} أي خاصة {عمى} مستعلٍ على أبصارهم وبصائرهم لازم لهم، فهم لا يعونه حق الوعي، ولا يبصرون الداعي به حق الإبصار، فلهم به ضلال وداء، فلذلك قالوا {ومن بيننا وبينك حجاب} وذلك لما يحصل لهم من الشبه التي هيئت قلوبهم لقبولها، أو يتمادى بهم في الأوهام التي لا يألفون سوى فروعها وأصولها، فقد بان لأن سبب الوقر في آذانهم الحكم بعدم إيمانهم للحكم بإشقائهم، فالآية من الاحتباك: ذكر الهدى والشفاء اولاً دليلاً على الضلال والداء ثانياً، والوقر والعمى ثانياً دليلاً على السمع والبصائر أولاً، وسر ذلك أنه ذكر أمدح صفات المؤمنين وأذم صفات الكافرين، لأنه لا أحقر من أصم أعمى.

ولما بان بهذا بعدهم عن عليائه وطردهم عن فنائه قال: {أولئك} أي البعداء البغضاء مثالهم مثال من {ينادون} أي يناديهم من يريد نداءهم غير الله {من

مكان بعيد *} فهم بحيث لا يتأبى ســـماعهم، وأما الأولون فهم ينادون بما هيئوا له من القبول من مكان قريب، فهذه هي القدرة الباهرة، وذلك أن شـيئاً واحداً يكون لناس في غاية القرب ولناس معهم في مكانهم في أنهى البعد.

ولما كان التقدير: فلقد آتيناك الكتاب على هذه الصفة من العظمة، فاختلفت فيه أمتك على ما أعلمناك به أول البقرة من انقســـام الناس فعاقبنا الذين تكبروا عليه أن ختمنا على مشــاعرهم، عطف عليه مســلياً قوله مؤكداً لمن يقول من أهل الكتاب إضلالاً: لو كان نبياً ما اختلف الناس عليه ونحو ذلك مما يلبس به: {ولقد آتينا} أي على ما لنا من العظمة {موســى الكتاب} أي الجامع لما فيه هداهم {فاختلف} أي وقع الاختلاف {فيه} أي من أمته كما وقع في هذا الكتاب لأن الله تعالى خلق الخلق للاختلاف مع ما ركب فيهم من العقول الداعية إلى الإنفاق {ولولا كلمة} أي إرادة {ســبقت} في الأزل، ولفت القول إلى صــفة الإحســان ترضــية بالقدر وتســلية، وزاد ذلك بإفراده بالإضـــافة فقال: {من ربك} أي المحســن إليك بتوفيق الصـــالح لاتباعك وخذلان الطالح بالطرد عنك لإراحتك منه من غير ضرر لدينك وبإهمال كل إلى أجل معلوم ثم إمهال الكل إلى يوم الفصل الأعظم من غير استئصال بعذاب كما صــنعنا بغيرهم من الأمم {لقضــي} أي وقع القضــاء الفيصــل {بينهم} المختلفين بإنصـــاف المظلوم من ظالمه الآن. ولما علم بهذا وغيره أن يوم القيامة قد قدره وجعله موعداً من لا يبدل القول لديه، فاتضــح أنه لا بد منه ولا محيد عنه وهو يجادلون فيه، قال مؤكداً: {إنهم لفي شـــك} أي

محيط بهم {منه} أي القضاء يوم الفصل {مريب *} أي موقع في الريب وهو التهمة والاضطراب بحيث لا يقدرون على التخلص من دائرته أصلاً.

▲ تفسير الآيات رقم [46- 48]

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)
إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّـــاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَــعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُــرَكَائِي قَالُوا آَذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَــهِيدٍ (47)
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)}

ولما تقرر بما مضـــــى أن المطيع ناجٍ، وتحرر أن العاصــــي هالك كانت النتيجة من غير تردد: {من عمل صــالحاً} كائناً من كان من ذكر أو أنثى {فلنفســه} أي فنفع عمله لها ببركتها به لا يتعداها، والنفس فقيرة إلى التزكية بالأعمال الصــــالحة لأنها محل النقائص، فلذا عبر بها، وكان قياس العبارة في جانب الصلاح. «ومن عمل سيئاً» فأفاد العدول إلى ما عبر به مع ذكر العمل أولاً الذي مبناه العلم إن الصالح تتوقف صحته على نيته، وأن السيء يؤاخذ به عامله في الجملة من الله أو الناس ولو وقع خطأ فلذا قال: {ومن أســاء} أي في عمله {فعليها} أي على نفســه خاصــة ليس على غيره منه شيء.

ولما كان لمقصــد الســورة نظر كبير إلى الرحمة، كرر ســبحانه وصــف الربوبية فيها كثيراً، فقال عاطفاً على ما تقديره: فما ربك بتارك جزاء أحد

أصلا خيراً كان أو شراً: {وما ربك} أي المحسن إليك بإرسالك لتتميم مكارم الأخلاق. ولما كان لا يصح أصلاً ولا يتصور أن ينسب إليه سبحانه ظلم، عبر للدلالة على ذلك بنكرة في سياق النفي دالة على النسبة مقرونة بالجار فقال: {بظلام} أي بذم ظلم {للعبيد *} أي الجنس فلا يتصور أن يقع منه ظلم لأحد أصلاً لأن له الغنى المطلق والحكمة البالغة، وعبر ب «عبيد» دون عباد لأنه موضع إشفاق وإعلام بضعف وعدم قدرة على انتصار وعناد يدل على طاعة وعدم حقارة بل إكرام هذا أغلب الاستعمال، ولعل حكمة التعبير بصيغة المبالغة الإشارة إلى أنه لو ترك الحكم والأخذ للمظلوم من الظالم، لكان بليغ الظلم من جهة ترك الحكمة التي هي وضع الأشياء في أتقن محالها ثم من جهة وضع الشيء وهو العفو عن المسيء وترك الانتصار للمظلوم في غير موضعه، ومن جهة التسوية بين المحسن والمسيء، وذلك أشد في تهديد الظالم لأن الحكيم لا يخالف الحكمة فكيف إذا كانت المخالفة في غاية البعد عنها- هذا مع أن التعبير بها لا يضر لأنها موضوعة أيضاً للنسبة إلى أصل المعنى مطلقاً ولأن نفي مطلق الظلم مصرح به في آيات أخرى.

ولما تضمنت الآية السالفة الجزاء على كل جليل وحقير، وقليل وكثير، والبراءة من الظلم، كما قال تعالى {وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون} {ووفيت كل نفس ما عملت} [آل عمران: 25] {وهو أعلم بما يفعلون} وأشير إلى التوعد بالجزاء في يوم الفصل لأنا نشاهد أكثر الخلق يموت من غير جزاء، وكان من عادتهم السؤال عن علم ذلك اليوم، وكان ترك الجزاء إنما

يكون للعجز، والظلم إنما يكون للجهل، لأنه وضع الأشياء في غير محالها فعل الماشي في الظلام، دل على تعاليه عن كل منهما بتمام العلم المستلزم لشمول القدرة على وجه فيه جوابهم عن السؤال عن علم الوقت الذي تقوم فيه الساعة الذي كان سبباً لنزول هذه الآية- كما ذكره ابن الجوزي- بقوله على سبيل التعليل: {إليه} أي إلى المحسن إليك لا إلى غيره {يرد} من كل راد {علم الساعة} أي التي لا ساعة في الحقيقة غيرها، لما لها من الأمور التي لا نسبة لغيرها بها، فهي الحاضرة لذلك في جميع الأذهان، وإنما يكون الجزاء على الإساءة والإحسان فيها حتى يظهر لكل أحد ظهوراً بينا لكل أحد أنه لا ظلم أصلاً، فلا يمكن أن يسأل أحد سواه عنها ويخبر عنها بما يغنى في تعيين وقتها وكيفيتها وصنعتها، وكلما انتقل السائل من مسؤول ألى أعلم منه وجده كالذي قبله حتى يصل الأمر إلى الله تعالى، والعالم منهم هو الذي يقول: الله أعلم، فاستئثاره بعلمها دال على تناهي علمه، وحجبه له عن كل من دونه دال على تمام قدرته، واجتماع الأمرين مستلزم لبعده عن الظلم، وأنه لا يصح اتصافه به، فلا بد من إقامته لها ليوفي كل ذي حق حقه، ويأخذ لكل مظلوم ظلامته غير متعتع.

ولما كانوا ينازعون في وقوعها فضلاً عن العلم بها، عدها أمراً محققاً مفروغاً منه وذكر ما يدل على شمول علمه لكل حادث في وقته دليلاً على علمه بما يعين وقت الساعة، وذلك على وجه يدل على قدرته عليها وعلى كل مقدور بما لا نزاع لهم فيه من ثمرات النبات والحيوان التي هي خبء في ذوات ما هي خارجة منه، فهي كخروج الناس بعد موتهم من خبء الأرض،

فقال مقدماً للرزق على الخلق كما هو الأليق، عطفاً على ما تقديره: فما يعلمها ولا يعلمها إلا هو: {وما تخرج} أي في وقت من الأوقات الماضــية والكائنة والآية، فإن «ما» النافية لا تدخل إلا على معناه الحلول، فالمراد مجرد تصـوير إن كان زمانه قد مضـى أو لم يأت، وأكد النفي بالجار فقال: {من ثمرات} أي صــغيرة أو كبيرة صــلحة أو فاســدة من الفواكه والحبوب وغيرها؛ والإفراد في قراءة الجماعة للجنس الصـــــالح للقليل والكثير، نبهت قراءة نافع وابن عامر وحفص عن عاصـــــم بالجمع على كثرة الأنواع {من أكمامها} جمع كم وكمامة بالكســـر فيهما وهو وعاء الطلع وغطاء النور، وكل ما غطى على وجه الإحاطة شيئاً من شابه أن يخرج فهوكم، ومنه قيل للقلنســـوة: كمة، ولكم القميص ونحوه: كم، أي إلا بعلمه {وما تحمل من أنثى} خداجاً أو تماماً، ناقصـاً أو تاماً، وكذا النفي باعادة النافي ليشمل كلا على حياله، وعبر ب «لا» لأن الوضـــع ليس كالحمل يقع في لحظة بل يطول زمان انتظاره فقال: {ولا تضــع} حملاً حياً أو ميتاً {إلا} حال كونه ملتبســاً {بعلمه} ولا علم لأحد غيره بذلك، ومن ادعى علماً به فليخبر بأن ثمرة الحديقة الفلانية والبستان الفلاني والبلد الفلاني تخرج في الوقت الفلاني أو لا تخرج العام شيئاً أصلاً والمرأة الفلانية تحمل في الوقت الفلاني وتضع في وقت كذا أو لا تحمل العام شــيئاً، ومن المعلوم أنه لا يحيط بهذا علماً إلا الله سبحانه وتعالى.

ولما ثبت بهذا علمه صــريحاً وقدرته لزوماً وعجز من ســواه وجهله، وتقرر بذلك أمر الســـــاعة من أنه قادر عليها بما أقام من الأدلة، وأنه لا بد من

كونها لما وعد به من تكوينها لينصف لمظلوم من ظالمه لأنه حكيم ولا يظلم أحداً وإن كانوا في إيجادها ينازعون، ولم ينكرون قال تعالى مصـــــوراً ما تضمنه ما سبق من جهلهم، ومقرراً بعض أحوال القيامة، عاطفاً على أرشد السياق إلى تقديره من نحو: فهو على كل شيء قدير لأنه على كل شيء شهيد وهم بخلاف ذلك، مقرراً قدرته تصريحاً وعجز ما ادعوا من الشركاء: {ويوم يناديهم} أي المشركين بعد بعثهم من القبور، للفصل بينهم في سائر الأمور فيقول المحسن إليك بأنواع الإحسان الذي منه إنصاف المظلوم من ظالمه على سبيل الأمور فيقول المحسن إليك بأنواع الإحسان الذي منه إنصاف المظلوم من ظالمه على سبيل التوبيخ والتقريع والتنديم: {أين شركائي} أي الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم ويحمونكم من العقاب واللوم، والعامل في الظرف {قالوا} أي المشركون: {آذنّاك} أي اعلمناك سابقاً بألسنة أحوالنا والآن بألسنة مقالنا، وفي كلتا الحالتين أنت سامع لذلك لأنك سامع لكل ما يمكن أن يسمع وإن لم يسمعه غيرك، ولذا عبروا بما منه الإذن {ما منا} وأكدوا النفي بإدخال الحار في المبتدأ المؤخر فقالوا: {من شهيد *} أي حي دائماً حاضر دون غيبة، مطلع على ما يريد من غير خفاء بحيث لا يغيب عن علمه شيء فيخبر بما يخبر به على سبيل القطع والشهادة، فآل الأمر إلى أن المعنى: لا نعلم أي ما كنا نسميهم شركاء لأنه ما منا من هو محيط العلم.

ولما قرر جهلهم، أتبعه عجزهم فقال: {وضل} أي ذهب وشذ وغاب وخفي {عنهم} ولما كانت معبوداتهم إما ممن لا يعقل كالأصنام وإما في عداد ذلك

لكونهم لا فعل لهم في الحقيقة، عبر عنهم بأداة ما لا يعقل فقال: {ما كانوا} أي دائماً {يدعون} في كل حين على وجه العادة.

ولما كان دعاؤهم لهم غير مستغرق لزمان القبل، أدخل الجار فقال: {من قبل} فهم لا يرونه فضلاً عن أنهم يجدون نفعه ويلقونه، كأنهم كانوا لما هم عريقون فيه من الجهل وسوء الطبع يتوقعون أن يظفروا بهم فيشفعوا لهم، فلذلك عبر بالظن في قوله: {وظنوا} أي في ذلك الحال {ما لهم} وأبلغ في النفي بإدخال الجار على المبتدأ المؤخر فقال {من محيص * } أي مهرب وملجأ ومعدل.

▲ تفسير الآيات رقم [49- 51]

{لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)}

ولما دل أتباعهم للظن حتى في ذلك اليوم الذي تتكشف فيه الأمور، وتظهر عظائم المقدور، وإلقاؤهم بأيديهم فيه على أنهم في غاية العراقة في الجهل والرسوخ في العجز، أتبع ذلك الدليل على أن ذلك طبع هذا النوع فلا يزال متبدل الأحوال متغير المناهج، إن أحسن بخير انتفخ عظمه وتطاول كبراً، وإن مس ببلاء تضاءل ذلاً وأمتلأ ضعفاً وعجزاً، وذلك ضد مقصود السورة

الذي هو العلم، بياناً لأن حال هذا النوع بعيد من العلم، عريق الصفات في الجهل والشر إلا من عصمه الله فقال تعالى: {لا يسئم} أي يمل ويضجر {الإنسان} أي من الأنس بنفسه الناظر في أعطافه، الذي لم يتأهل للمعارف الإلهية والطرق الشرعية {من دعاء الخير} أي من طلبه طلباً عظيماً، وذلك دال مع شرهه على جهله، فإنه لو كان عالماً بأن الخير يأتيه أو لا يأتيه لخفف عن نفسه من جهده في الدعاء {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء} [الأعراف: 188] {وإن مسه الشر} أي هذا النوع قليله وكثيره بغتة من جهة لا يتوقعها {فيؤوس} أي عريق في اليأس، وهو انقطاع الرجاء والأمل والحزن العظيم والقطع بلزوم تلك الحالة بحيث صار قدوة في ذلك {قنوط *} أي مقيم في دار انقطاع الأمل والخواطر الرديئة، فهو تأكيد للمعنى على أحسن وجه وأتمه، وهذا هو ما طبع عليه الجنس، فمن أراد الله به منهم خيراً عصمه، ومن أراد به شراً أجراه مع الطبع فكان كافراً، لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال أبو حيان: واليأس من صفة القلب وهو أن ينقطع رجاؤه من الخير، والقنوط أن يظهر عليه آثار اليأس فيتضاءل وينكسر، وبدأ بصفة القلب لأنها هي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من الانكسار.

ولما دل ذلك على عظيم جهله وغلبة أفكاره الرديئة على عقله، أتبعه تأكيداً لذلك ما يدل على أن حاله بعد هذا اليأس الذي قطع فيه بلزوم الشر وامتناع حصول الخير أنه لو عاودته النعمة بغتة من وجه لا يرجوه، وليس له دليل على ما دوامها وانصرامها لعاد إلى البطر والكبر والأشر، ونسي ما كان فيه

من الشدة، فقال مسنداً إلى نفسه الخير بعد أن ذكر الشر، ولم يسنده إليه تعليماً للأدب معبراً بمظهر العظمة تنبيهاً على أن ذلك من جليل التدبير {ولئن أذقناه} أي الإنسان الذي غلبت عليه حالة الأنس بنفسه حتى أسفلته عن أبناء جنسه إلى رتبة الحيوانات العجم بل دونها.

ولما أخبر آخر الآية السالفة عن حاله عند الشر، قدم هنا ضده على صلته اهتماماً به بخلاف ما في سورة هود عليه السلام فقال: {رحمة منا} أي نعمة عظيمة دلت على إكرامه من جهة لا يرجوها، وهو من فائدة التعبير بأداة الشك، ودل بإثبات الجار على انفصالها عن الضر مع قرب زمانها منه ليكون قد جمع مباشرة الأحوال الثلاث: الانتقام والإكرام وما بينهما من الوسط الذي بين حالتي الرضا والسخط، ثم شرع بيان ذلك فقال: {من بعد ضراء} أي محنة وشدة عظيمة {مسته} فطال بروكها عليه؛ وأجاب القسم لتقدمه على الشرط بقوله: {ليقولن} بمجرد ذوق تلك الرحمة على أنها ربما كانت بلاء عظيماً لكونها استدراجاً إلى الهلاك: {هذا} أي الأمر العظيم {لي} أي مختص بي لما لي من الفضل، لا مشاركة لأحد معي فيه مع أنه ثابت لا يتغير انتقالاً من حالة اليأس إلى حالة الأمن والبطر والكبر والأشر على قرب الزمن من ذوق المحن وينسى أنها من فضل الله ليقيدها بشكرها، ويطردها بكفرها {وما أظن الساعة} أي القيامة التي هي لعظمها المستحقة أن تختص باسم الساعة {قائمة} أي ثابتاً قيامها، فقطع الرجاء منها سواء عبر عن ذلك بلسان قاله أو بلسان حاله، لكونه يفعل أفعال الشاك فيها كما كان قطع الرجاء من الخير عند مباشرته للشر لكنه هنا قال على سبيل

التقدير : والفرض، لدفع من يعظه محققاً لدوام نعمته : {ولئن رجعت} أي على سبيل الفرض بقسر قاسر ما {إلى ربي} أي الذي أحسن إليّ بهذا الخير الذي أنا فيه {إن لي عنده} وأكده على من يعظه بأنه يعذب إن لم يحسن قلبه وقالبه {للحسنى} أي الحالة والرتبة البالغة في الحسن حداً لا يوصف لأني أهل لذلك، والدليل على تأهلي له ما أنا فيه الآن من الخير، ونسي ما يشاهده غالباً من أن كثيراً من النعم يكون للاستدراج، ومن أن كثيراً من الناس يكون في غاية النعمة فيصبح وقد أحاطت به كل نقمه، فهو بين أمنيتين في الدنيا بقوله هذا، وفي الآخرة يقول : يا ليتي كنت تراباً، فلا يزال في المحال– نعوذ بالله من سوء الحال.

ولما كان هذا هو الكفر الصراح لنسيان نعمة المنعم وجعله الإنعام من الواجب اللازم وشكه فيما أخبر سبحانه على ألسنة جميع الرسل أنه محط حكمته، سبب عنه سبحانه قوله، مؤكداً في نظير تأكيد هذا الناسي : {فلننبئن} أي تنبئة عظيمة بخير الوصف فيها مستقصاة على سبيل العدل، وجعل الضمير الوصف تصريحاً بالعموم وبياناً للعلة الموجبة فقال: {الذين كفروا} أي ستروا ما دلت عليه العقول، وأوجبته صرائح النقول، من إقامة الساعة لأظهار جلاله وجماله، ومن أنه تعالى يحل بالإنسان السراء والضراء ليخافه ويرجوه ويشكره ويدعو {بما عملوا} لا ندع منه قليلاً ولا كثيراً صغيراً ولا كبيراً، فليرون عياناً ضد ما ظنوه في الدنيا من أن لهم الحسنى {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً} [الفرقان : 23] {ولنذيقنهم} بعد إقامة الحجة عليهم بموازين القسط الوافية لمثاقيل الذر {من

عذاب غليظ *} لا يدع جهة من أجسامهم ولا قواهم إلا أحاط بها ولا تقوى على دفعه قواهم.

ولما بين جهل الإنسان في حالات مخصوصة باليأس عند مس الشر، والأمن عند ذوق النعمة بعد الضر، بين حاله عند النعمة مطلقاً ودعاءه عند الشر وإن كان قانطاً تكريراً لتقلب أحواله وتناقص أقواله وأفعاله تصريفاً لذلك على وجوه شتى ليكون داعياً له إلى عدم الأنفة من الرجوع عن الكفر إلى الإيمان، ومسقطاً عنه خوف الشبه بذلك والنسبة إلى الخفة وعدم الثبات، فقال معبراًَ بأداة التحقيق دلالة على غلبة نعمه تعالى في الدنيا لنقمه، ودلالة على حالة الإنسان عند مس النعمة من جهة يتوقعها بعد بيان حاله عند مسها بغتة من غير توقع تأكيداً لبيان جهله حيث جعل ظرف النعمة ظرفاً للإعراض من غير خوف من نزعها على قرب عهده بالضر: {وإذا أنعمنا} مما لنا من العظمة والإحسان {على الإنسان} أي الواقف مع نفسه نعمة تليق بعظمتنا فمسه الخير ولم يعبر في هذا الجانب بما عبر به في الذي بعده إيذاناً بأن المعرض مسيء لمجرد الإعراض لا المبالغة فيه فقال: {أعرض} أي انحرف عن سواء القصد إلينا عنا في جميع مدة النعمة- بما أفهمه الظرف، فلم يقيد تلك النعمة بالشكر بعد ما رأى من حلالنا، قاطعاً بأن تلك النعمة خير محض ظاهراً وباطناً فهو يستديمها، وربما كانت بلاء استدراجاً وامتحاناً {ونـاء} أي أبعد إبعاداً شديداً بحيث جعل بيننا وبينه حجاباً عظيماً حال كونه مال {بجانبه} أي بشقه كناية عن تكبره وبأوه وإعجابه

بنفسه وزهوة وتصويراً له بمن كلمته فازور عنك والتوى، وأبعد في ضلاله وغوى.

ولما تقدم حال الإنسان عند مس الشر بغتة، بين حاله عند مسه وهو يتوقعه، فقال معبراً في جانب الشر بأداة التحقيق على غير عادة القرآن في الأغلب، ليدل على أنه لزيادة جهله على الحد يلزم الكبر وإن كان يتوقع الشر ولا يزال حاله حال الآمن إلى أن يخالطه وحينئذ تتحل عراه وتضمحل قوله: {وإذا مسه الشر} أي هذا النوع قليله وكثيره لانتقامنا منه، فالآية من الاحتباك: ذكر الإنعام أولاً دليلاً الانتقام ثانياً وذكر الشر ثانياً دليل الخير أولاً، وسره تعليم الأدب بنسبة الإنعام دون الشر إليه وإن كان الكل منه.

ولما كان تعظيم العرض دالاً على عظمة الطول، قال معبراً بما يدل على الملازمة والدوام: {فذو دعاء} أي في كشفه، وربما كان نعمة باطنة وهو لا يشعر ولا يدعو إلا عند المس، وقد كان ينبغي له أن يشرع في الدعاء عند التوقع بل قبله تعرفاً إلى الله تعالى في الرخاء ليعرفه في الشدة وهو خلق شريف لا يعرفه إلا أفراد خصهم الله بلطفه، فدل تركه على عدم شره لما مضى وخفة عقله لما يأتي ومفاجأته للزوم الدعاء عند المس على عدم صبره وتلاشي جلده وقله حيائه {عريض *} أي مديد العرض جداً، وأما طوله فلا تسأل عنه، وهذا كناية عن النهاية في الكثرة.

▲ تفسير الآيات رقم [52– 54]

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52)
سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53)
أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)}

ولما ذكر سبحانه من أحوالهم المندرجة في أحوال هذا النوع كله ما هو مكشوف بشاهد الوجود من أنه لا ثبات لهم لا سيما عند الشدائد إعلاماً بالعراقة في الجهل والعجز، دل على الأمرين معا بما لا يمكن عاقلاً دفعه من أنهم لا يجوزون الممكن فيعدون له ما يمتعه على تقدير وقوعه، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يذكر ذلك إيذاناً بالإعراض عنهم دليلاً على تناهي الغضب: {قل أرأيتم} أي أخبروني {إن كان} أي هذا القرآن الذي نصبتم لمغالبته حتى بالإعراض عن السماع باللغو حال قراءته من الصفير والتصفيق وغير ذلك، وليس ذلك منكم صادراً عن حجة قاطعة في أمره أتم معها على يقين بل هو عن خفة وعدم تأمل منكم أنه {من عند الله} الذي له الإحاطة بجميع صفات الجلال والجمال فهو لا يغالب.

ولما كان الكفر به على هذا التقدير في غاية البعد، وكان مقصود السورة دائراً على العلم، نبه على ذلك بأداة التراخي مع الدلالة على أن ذلك ما كان

منهم إلا بعد تأمل طويل، فكانوا معاندين حتى نزلوا بالصفير والتصفيق من أعلى رتب الكلام إلى أصوات الحيوانات العجم فقال: {ثم كفرتم به} أي بعد إمعان النظر فيه والتحقق لأنه حق، فكنتم بذلك في شقاق هو في غاية البعد من الملائمة لمن لم يزل يستعطفكم بجميل أفعاله، ويردكم بجليل أقواله وآمن به غيركم لأنه من عند الله {من أضل} منكم- هكذا كان الأصل ولكنه قال: {ممن هو في شــقاق} أي لأولياء الله {بعيد *} تنبيهاً على أنهم صــاروا كذلك، وأن من صــار كذلك فقد عرض نفســه لسطوات الله وتعالى التي من واقعته هلك لا محالة، ومن أهدى ممن هو في إســلام قريب وهو الذي آمن لأنه سالم الله الذي من سالمه سالمه كل شيء، فنجا من كل خطر- فالآية من الاحتباك: ذكر الكفر أولاً دليلاً على الإيمان ثانياً، والضــلال ثانياً دليلاً على الهدى أولاً، وسره أن ذكر المضار أصدع للقلب فهو أنفع في الوعظ.

ولما كان هذا محزناً للشــفوق عليهم لإفهامه لشــدة بعدهم عن الرجوع، قال منبهاً على أنه إذا أراد ســبحانه قرب ذلك منهم غاية القرب لافتاً القول إلى مظهر العظمة إيذاناً بســهولة ذلك عليه: {ســنريهم} أي عن قرب بوعد لا خلف فيه {آياتنا} أي على ما لها من العظمة {في الآفاق} أي النواحي، جمع أفق كعنق وأعناق، أبدلت الهمزة الثانية ألفاً لســكونها بعد مثلها، أي وما ظهر من نواحي الفلك أو مهب الرياح، وذلك بما يفتح الله من البلاد بغلب أهلها بوقائع كل واحد منها علم من أعلام النبوة، وشــاهد عظيم كاف في صحة الرسالة، تصديقاً لوعده سبحانه وما أهلك من أهلها لنصر أنبيائه ورســله وبما فيها من عجائب الصــنع وغرائب الآثار والوضــع باختلاف

الأحكام مع اتفاق جواهرها في التجانس- وغير ذلك من الآيات بالبصـــر اللاتي يشرحها بآيات السمع.

ولما كان الإيمان بالغيب هو المعتبر، وكل ما كان أقرب إليه كان أقرب إلى الكمال، وكانت آيات الآفاق أقرب إلى ذلك، بدأ بها، ثم قال: {وفي أنفسـهم} أي من فتح مكة وما أصابهم من سني الجوع وقصة أبي بصير ونحو ذلك وتفصـل لهم مع ذلك ما في الآدمي نفســه من بدائع الآيات وعجائب الخلق وغرائب الصنعة وما فيه من أمارات الحدوث واختلاف الأوصاف وغير ذلك من الشـواهد المطابقة لما تضـربه من الأمثال والدلائل المعقولة عند اعتبار الأقوال والأفعـال، وبمـا في بلاد العرب من الآيـات المرئيـة من نفي بعد إســـراعهم إليه وإطباقهم عليه وإثبات التوحيد عند جميعهم بعد إبعادهم عنه وقتالهم الداعي إليه، وقد بين سبحانه في هذه من آيات الآفاق في آية {أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين} وما شـاكلها، وفي الأنفس في آيات {فقل أنذرتكم صـاعقة مثل صـاعقة عاد وثمود والذي من بعدهم} ونحوها، وآيات {لا يسئم الإنسان من دعاء الخير} إلى آخرها الدالة على أن الإنسان مبني أمره على الجهل والعجز، فأكثر ما يتصوره ليس كما تصوره، فعليه أن يتأمل كتاب ربه ويتدبره- والله أعلم، قال الرازي في اللوامع: الاســـتدلال بالأفعال على فاعلها واضـــح وطريق لائح، والأفعال على قســمين أحدهما الآفاق وهو جملة العالم، والثاني النفوس، فإن من عرف نفسه عرف ربه أي من عرف روحه وكونها جوهراً متصـــرفاً في البدن تصـــرف التدبير وعلم صــــفاتها من أنها باقية بغير البدن لا يحتاج في قوامها إلى البدن بل البدن

محتاج إليها وأنها محل المعرفة فمن عرف أمثال هذه المعارف عرف ربه وصـفاته من وحدانيته وعلمه وقدرته وإرادته وتصـرفه في جملة العالم يعني وأن وجوده تعالى مباين وجود غيره.

ولما كان التقدير: ولا نزال نواتر ذلك شيئاً في أثر شيء، عطف عليه قوله: {حتى يتبين لهم} غاية البيان بنفســه من غير إعمال فكر {أنه} أي القرآن {الحق} الكامل في الحقية الذي تطابقه الوقائع وتصـادقه الأحوال العارضـة والصــنائع، فيجتعوا عليه ويُقبلوا بكل قلوبهم إليه، فلا يأباه في جزيرة العرب إنســـان، ولا يختلف فيه منهم اثنان، ثم ينبثون في أرجاء الأرض بطولها والعرض فيظهر بهم على سائر الأديان، ويبيد على أيديهم أهل الكفران، في ســائر البلدان، ويزول كل طغيان، فيكون ظهورهم في هذا الوقت وضــعف المؤمنين بعد أن كان ســـبباً لازديادهم من الكفر عظة لهم ولكل من يأتي بعدهم يوجب الثبات في محال الزلزال علماً بأن الله أجرى عادته أن يكون للباطل ريح تخفق ثم تسـكن، ودولة تظهر ثم تضـمحل، وصـولة تجول ثم تحول.

ولما كان هذا القول منبهاً على أن في الآفاق والأنفس من الآيات المرئية التي يقرأها أولو الأبصـار بالبصـائر، ويتأملها بأعين السرائر، أمراً لا يحيط به الوصف، فكان حادياً على تجريد الأفكار للنظر والاعتبار، والوقوف على بعض ما في ذلك من لطائف الأســرار، كان كأنه قيل: ألم يروا بعقولهم ما في ذلك من الأدلة على أن القرآن من عند الله فيكفيهم عن شـــهادة شـــيء خارج عن أنفســـهم، عطف عليه قوله: {أو لم يكف} وأكد بإدخال الجار،

وحقق الفاعل فقال مؤكداً بالباء ومحققاً أنه الفاعل صارفاً القول إلى وصف الإحســـان إيذاناً بالرفق بهم بردِّهم إليه دون ارتكابهم ما يوجب نكالهم وإهلاكهم واستئصالهم: {بربك} أي المحسن إليك بهذا البيان المعجز للإنس والجان شهادة بأنه من عنده {أنّه} أي أو لم يكف شهادة ربك لأنه {على كل شيء شهيد *} لا يغيب عنه شيء من الأشياء، لا هذا القرآن ولا غيره، وقد شـــهد لك فيه بإعجازه لجميع الخلق بكل ما تضـــمنته آياته، ونطقت به كلماته، ففيه أعظم بشارة بتمام أمر الدين وظهوره على المعتدين، وذلك لأن كل أحد يجد في نفســه أنه إذا أراد ثبوت حق ينكره من هو عليه لصـــاحب الحق من الشهود ما يتحقق قولهم فيه ووصوله بهم إليه أنه يكون مطمئناً لا ينزعج بالجحد علماً منه بأن حقه لا بد أن يظهر ويخزي معانده ويقهر، وفي هذا تأديب لكل من كان على حق ولا يجد من يساعده على ظهوره فإن الله شاهده فلا بد أن يظهر أمره فتوكل على الله إنك على الحق المبين.

ولما لم يبق بعد هذا لمتعنت مقال، ولا شـبهة أصـلاً لضـال، كان موضـع المناداة على من اســـتمر على عناده بقوله مؤكداً لادعائهم إنهم على جلية من أمرهم، {ألا إنهم} أي الكفرة {في مرية} أي جحد وجدال وشـك وضـلال عن العبث {من لقاء} وصرف القول إلى إضافة وصف الإحسان إليهم إشارة إلى أنه لا بد من كمال تربيتهم بالبعث لأنه أحكم الحاكمين فقال : {ربهم} أي المحســن إليهم بأن خلقهم ورزقهم للحســاب والجزاء بالثواب والعقاب كما هو شأن كل حكيم فيمن تحت أمره.

ولما كانوا مظهرين الشــــك في القدرة على البعث، قرره إيمانهم معترفون به من قدرته على كل شـيء من البعث وغيره فقال: {ألا إنه} أي هذا المحسن إليهم {بكل شـــيء} أي من الأشــياء جملها وتفاصــيلها كلياتها وجزئياتها أصــولها وفروعها غيبتها وشــهادتها ملكها وملكوتها {محيط *} قدرة وعلماً من كثير الأشـــياء وقليلها كليها وجزئيها، فعما قليل يجمعهم على الحق ويبدلهم بالمرية إذعاناً وبالشـــك يقيناً وبرهاناً، فرحمته عامة لجميع أهل الوجود وخاصـــة لمن منَّ عليه الإيمان الموصـــل إلى راحة الأمان، فكيف يتصور في عقل أن يترك البعث ليوم الفصل الذي هو مدار الحكمة، ومحط إظهار النعمة والنقمة، وقد علم بذلك انطباق آخرها المادح للكتاب المقرر للبعث والحساب على أولها المفصل للقرآن المفيض لقسمي الرحمة: العامة والخاصــة لأهل الأكوان، على ما اقتضــاه العدل والإحســان، بالبشــارة لأهل الإيمان، والنذارة لأهل الطغيان- والله الهادي وعليه التكلان.

▲ سورة الشورى

▲ تفسير الآيات رقم [1- 5]

{حم (1) عسق (2)

كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4)

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)}

{حم عسق*} هذه الحروف يجوز أن تكون إشارة إلى كلمات منتظمة من كلام عظيم يشير إلى أن معنى هذا الجمع يجوز أن يقال : حكمة محمد علت وعمت فعفت سقام القلوب، وقسمت حروفها قسمين موافقة لبقية أخواتها وبعدها آيتين، ولم تقسم {كهيعص} لأنها آية واحدة ولا أخت لها ولم تقسم {المص} مثلاً وإن كان لها أخوات لأنها آية واحدة، ولم يعد في شيء من القرآن حرف واحد آية، ويجوز أن يعتبر مفردة فتكون إشارة إلى أسرار تملأ الأقطار، وتشرح الصدور والأفكار، فإن نظرت إلى مخارجها وجدتها قد حصل الابتداء فيها بأدنى وسط الحلق إلى اللسان باسم الحاء وثنى بأوسط حروف الشفة وهي الميم وحصل الرجوع إلى وسط الحلق بأقصاه من اللسان في اسم العين، وهو جامع للحلق واللسان، وقصد رابعاً إلى اللسان

بالسين التي هي من أدناه إلى الشفتين وهو رأسه ولها التصاق بالشفتين واتصال بأعلى الفم ففيها بهذا الاعتبار جمع ثم جعل بعد هذا الظهور بطوناً إلى أصل اللسان، وهو أقصاه من الشفة بالقاف، ولاسم هذا الحرف جمع بالابتداء بأصل اللسان مع سقف الحلق والاختتام بالشفة العليا والثنيتين السفليين، ففي هذه الحروف ثلاثة وهي أكثرها لها نظر بما فيها من الجمع إلى مقصود السورة، وقد اتسق الابتداء فيها فيما كان من حرفين جمعهما مخرج بالأعلى ثم بالأدنى إشارة إلى أنه يكون لأهل هذا الدين بعد الظهور بطون كما كان في أول الإسلام حيث حصر النبي صلى الله عليه وسلم وأقاربه في الشعب، وذلك أيضاً إشارة إلى أنه من تحلية الظاهر ينتقل إلى تصفية الباطن من زين ظاهره بجمع الأعمال الصالحة صحح الله باطنه بالمراقبة الخالصة الناصحة على أن في هذا التدلي بشرى بأن الحال الثاني يكون أعلى من الأول، كما كان عند الظهور من الشعب بما حصل من نقض الصحيفة الظالمة الذي كان الضيق سبباً له، لأن الثاني من مراتب هذه الحروف أقوى صفة مما هو أعلى منه مخرجاً، فإن الحاء لها من الصفات الهمس والرخاوة والاستفال والانفتاح والميم له من الصفات الجهر والانفتاح والاستفال وبين الشدة والرخاوة، والعين لها من الصفات ما للميم سواء، والسين لها من الصفات ما للحاء، وتزيد بالصفير، والقاف له من الصفات الجهر والشدة والانفتاح والاستعلاء والقلقلة فالحرف الأول أكثر صفاته الضعف، ويزيد بالإمالة التي قرأ بها كثير من القراء، والثاني والثالث على السواء، وهما إلى القوة أرجح قليلاً، وذلك كما تقدم من وسط الحال

عند الخروج من الشــعب، والرابع فيه قوة وضــعف وضــعفه أكثر، فإن فيه للضعف ثلاث صفات وللقوة صفتين، وذلك كما كان حال النبي صلى الله عليه وسـلم عند آخر أمره بمكة المشـرفة حين مات الوزيران خديجة رضــي الله عنها وأبو طالب لكن ربما كانت الصفتان القويتان عاليتين على الصفات الضعيفة بما فيهما بالانتشار بالصفير والجمع الذي مضت الإشارة إليه من الإشــارة إلى ضــخامة تكون باجتماع أنصــار كما وقع من بيعة الأنصــار، والخـامس وهو الأخير كلـه قوة كمـا وقع بعـد الهجرة عنـد اجتمـاع الكلمـة وظهور العظمة، كما قال صلى الله عليه وسلم:

»فلما هاجرنا انتصـــفنا من القوم وكانت ســـجال الحرب بيننا وبينهم« ثم تكاملت القوة عند تكامل الاجتماع بعد قتال أهل الردة بعد موته صـــلى الله عليه وسـلم لا جرم انتشـر أهل هذا الدين في الأرض يميناً وشـمالاً، فما قام لهم مخالف، ولا وافقتهم أمه من الأمم على ضعف حالهم وقلتهم وقوة غيرهم وكثرتهم إلا دمروا عليهم فجعلوهم كأمس الدار، وقد جمعت هذه الحروف كما مضــى وصــفي المجهورة والمهموســة كانت المجهورة أغلبها إشــارة إلى ظهور هذا الدين على كل دين كما حققه شاهد الوجود، وصنفي المنقطوطة والعاطلة، وكانت كلها عاطلة إلا حرفاً واحداً، إشــارة إلى أن أحســن أحوال المؤمن أن يكون أغلب أحواله محواً لا يرى له صــفة من الصــفات بل يعد في زمرة الأموات وإلى أن المتحلي بالأعمال الصــالحة الخالصــة من أهل القلوب من أرباب هذا الدين قليل جداً، وكان المنقوط آخرها إشـــارة إلى أن نهاية المراتب عند أهل الحق الجمع بعد المحو والفرق وكان حرف الشـــفة

من بين حروفها الميم، وهي ذات الدائرة المستوية الاستدارة إشارة إلى أن لأهل هذا الدين من الاجتماع فيه والانطباق عليه والإطافة به والإسراع إليه ما ليس لغيرهم وإلى أن هم من القدم الراسخ في القول المقتطع من الفم المختتم بالشفتين ما لا يبلغه غيرهم بحيث أنه لا نهاية له مع حسن استتارته بتناسب استدارته، ثم إنك إذا بلغت نهاية الجمع في هذه الأحرف بأن جمعت أعداد مسمياتها وهو مائتان وثمانية وسبعون وفي السنة الموافقة لهذا العدد كانت ولادتي، فكان الابتداء في هذا الكتاب الديني حينئذ بالقوة القريبة من الفعل وسنة ابتدائي فيه بالفعل وهي سنة إحدى وستين في شعبان كان سني إذا ذاك قد شارف أربعاً وخمسين سنة، وهو موافق لعدد حرفي {دن} أمراً من الدين الذي هو مقصود السورة، فكأنه أمر إذ ذاك بالشروع في الكتاب ليحصل مقصودها، وسنة وصولي إلى هذه السورة وهي سنة إحدى وسبعين في شعبان منها كان سني قد شارف أربعاً وستين سنة، وهو عدد موافق لعدد أحرف {دين} الذي هو مقصود السورة، فأنا أرجو بهذا الاتفاق الغريب أن يكون ذلك مشيراً إلى أن الله تعالى يجمع بكتابي هذا الذي خصني بإلهامه وادخر لي المنحة بحله وإبرامه، واعتناقه والتزامه، أهل هذا الدين القيم جمعاً عظيماً جليلاً جسيماً، يظهر له أثر بالغ في اجتماعهم وحسن تأسيهم برؤوس نقلته وأتباعه، ومن الآثار الجليلة في لحظها للجمع أنه لما كان مقصود سورة مريم عليها السلام بيان اتصاف الرحمن، المنزل لهذا القرآن، بشمول الرحمة لجميع الأكوان، وكانت هذه السورة لرحمة خاصة من آثار تلك الرحمة العامة، وهي الاجتماع على هذا الدين المراد ظهوره

وعلوه على كل دين وقهره لكل أمر، فكان لذلك محيطاً قاهراً لحظ كل قاهر وظالم، وكانت هذه الرحمة الخاصة- لنسبتها إلى الخلق- ثانية لتلك العامة ومنشعبة منها، كانت لكونها من أوصاف الخلق بمنزلة اليسار، وتلك لكونها من صفة الحق بمنزلة اليمين، لذلك- والله أعلم- قال الاستاذ أبو الحسن الحرالي في كتاب له في الحرف: ولما كان ذلك- أي هذه الاسم المجتمع من هذه الأحرف المقطعة- أول هذه السورة مما ينسب إلى أمر الشمال كان متى وضع على أصابع اليسار ثم وضعت على هانجة ظلم أو جور استولى عليه بحكم إحاطة حكمة الله، وكانت خمسها مضافة إلى خمس {كهيعص} المستولية على حكمة اليمين محيطاً ذلك بالعشر المحيط بكل الحكمة التي مسندها الياء الذي هو أول العشر ومحل الاستواء بما هو عائد وحدة الألف- انتهى.

ولما كانت هذه الحروف- والله أعلم- مشيرة إلى الاجتماع كما أشار إليه آخر السورة الماضية، قال الله سبحانه وتعالى: {كذلك} أي مثل هذا الإيحاء العظيم الشأن الذي أخبرك به ربك صريحاً أول «فصلت» من أن الإله إله واحد وآخرها من أنه ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، ومن أنه يجمع أمتك على هذا الدين بما يتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق بما يريهم من الآيات البينات والدلالات الواضحات في الآفاق وفي أنفسهم وبشهادته سبحانه باعجاز القرآن لجميع الإنس والجان ولا سيما إذا أقدم ضال على معارضته كمسيلمة فإنه يتبين لهم الأمر بذلك غاية البيان «وبضدها تتبين الأشياء» ورمز لك به سبحانه تلويحاً اول هذه السورة بهذه الأحرف المقطعة

التي هي أعلى وأغلى من الجواهر المرصـــعة- إلى مثل ذلك، فهما نوعان من الوحي: صريح وعبارة، وتلويح وإشارة.

ولما كان المقصود الإفهام لأن الإيحاء منه سبحانه عادة مستمرة إلى جميع أنبيائه ورسله والبشارة له صلى الله عليه وسلم بتجديده له، مدة حياته تثبيتاً لفؤاده، ودلالـة على دوام وداده، عبر بـالمضــــارع الـدال على التجـدد والاســتمرار، وتقدم في أول البقرة نقلاً عن أبي حيان ومن قبله الزمخشــري وغيره أنه قد لا يلاحظ منه زمن معين، بل يراد مطلق الوجود فقال: {يوحى إليك} أي سابقاً ولاحقاً ما دمت حياً لا يقطع ذلك عنك أصلاً توديعاً ولا قلى بما يريد من أمره مما يعلي لك مقدارك، وينشر أنوارك ويعلي منارك.

ولما كان الاهتمام بالوحي لمعرفة أنه حق- كما أشـارت إليه قراءة ابن كثير بالبناء للمفعول- والموحي إليه لمعرفة أنه رسول حقاً وكان المراد بالمضـارع مجرد إيقاع مدلوله لا يفيد الاســتقبال صــح أن يتعلق به قوله مقدماً على الفاعل: {وإلى الذين} والقائم مقام الفاعل في قراءة ابن كثير ضــمير يعود على «كذلك».

ولما كان الرســل بعض من تقدم في بعض أزمنة القبل، ادخل الجار فقال: {من قبلك} أي من الرســـل الكرام والأنبياء الأعلام، بأن أمتك أكثر الأمم وأنك أشــرف الأنبياء، وأخذ على كل منهم العهد باتباعك، وأن يكون من أنصــارك وأشــياعك. ولما قدم ما هو الأهم من الوحي والموحى إليه، أتى بفاعل {يوحي} في قراءة العامة فقال: {الله} أي الذي له الإحاطة بأوصـاف الكمال.. وهو مرفوع عند ابن كثير بفعل مضــمر تقديره الذي يوحيه. ولما

كان نفوذ الأمر دائراً على العزة والحكمة قال: {العزيز} أي الذي يغلب كل شـيء ولا يغلبه شـيء {الحكيم *} الذي يضـع ما يصـنعه في أتقن محاله، فلأجل ذلك لا يقدر على نقض ما أبرمه، ولا نقص ما أحكمه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضـمنت سـورة غافر ما تقدم من بيان حالي المعاندين والجاحدين، وأعقبت بســورة الســجدة بياناً أن حال كفار العرب في ذلك كحال من تقدمه وإيضاحاً لأنه الكتاب العزيز وعظيم برهانه، ومع ذلك فلم يجد على من قضـى عليه تعالى بالكفر، اتبعت السـورتان بما اشـتملت عليه سـورة الشـورى من أن ذلك كله إنما جرى على ما سـبق في علمه تعالى بحكم الأزلية {فريق في الجنة وفريق في السـعير} {وما أنت عليهم بوكيل} {ولو شـاء الله لجعلهم أمة واحدة} {ولولا كلمة الفصـل لقضـى بينهم} {وهو على جمعهم إذا يشـاء قدير} {وما أنتم بمعجزين في الأرض} {ومن يضلل الله فما له من سبيل} {إن عليك إلا البلاغ} {نهدي به من نشاء من عبادنا} فتأمل هذه وما التحم بها مما لم يجر في السورة المتقدمة منه إلا النادر، ومحكم ما اسـتجره، وبناء هذه السـورة على ذلك ومدار آيها، يلح لك وجه اتصالها بما قبلها والتحامها بما جاورها.

ولما ختمت ســورة الســجدة بقوله تعالى {إلا أنهم في مرية من لقاء ربهم} أعقبها ســبحانه بتنزيهه وتعاليه عن ريبهم وشــكهم، فقال تعالى {تكاد السـماوات يتفطرن من فوقهن} كما أعقب بمثله في قوله تعالى {وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شـيئاً إدا تكاد السـماوات يتفطرن منه ولما تكرر في ســورة حم الســجدة ذكر تكبر المشــركين وبعد انقيادهم في قوله تعالى

{فأعرض أكثرهم وقالوا قلوبنا في أكنة} إلى ما ذكر تعالى من حالهم المنبئة عن بعد استجابتهم فقال تعالى في سورة الشورى {كبر على المشركين ما تدعوهم إليه}– انتهى.

ولما أخبر سبحانه أنه صاحب الوحي بالشرائع دائماً قديماً وحديثاً، علل ذلك بأنه صاحب الملك العام فقال: {له ما في السماوات} أي من الذوات والمعاني {وما في الأرض} كذلك. ولما كان العلو مستلزماً للقدرة قال: {وهو العلي} أي على العرش الذي السماوات فيه علو رتبة وعظمة ومكانة لا مكان وملابسة، فاستلزم ذلك أن تكون له السماوات كلها والأراضي كلها مع ما فيها {العظيم *} أي فلا يتصور شيء في وهم ولا يتخيل في عقل إلا وهو أعظم منه بالقهر والملك، فلذلك يوحي إلى من يشاء بما يشاء من إقرار وتبديل، لا اعتراض لأحد عليه.

ولما كان السياق مفهماً عظيم ملكه سبحانه وقدرته بكثرة ما في الأكوان من الأجسام والمعاني التي هي لفظاعتها لا تحتمل، قال مبيناً لذلك: {تكاد السماوات} أي على عظم خلقهن ووثاقة إبداعهن، وفلقهن بما أعلم به الواقع، ونبه عليه بتذكير {تكاد} في قراءة نافع والكسائي {يتفطرن} أي يتشققن ويتفرط أجزاؤهن مطلق انفطار في قراءة من قرأ بالنون وخفف وهم هنا أبو عمرو ويعقوب وشعبة عن عاصم، وتفطراً شديداً في قراءة الباقين بالتاء المثناة من فوق مفتوحة وتشديد الطاء، مبتدئاً ذلك {من فوقهن} الذي جرت العادة أن يكون أصلب مما تحته، فانفطار غيره من باب الأولى، وابتداء الانفطار من ثم لأن جهة الفوق أجدر بتجلي ما يشق حمله من

عظيم العظمة والجلال والكبرياء والعزة التي منها ما يحمل من الملائكة الذين لا تسـع عقولهم وصـفهم على ما عليه من كل واحد منهم من عظم الخلق في الهيئة والطول والمتانة والكبر إلى غير ذلك مما لا يحيط به علماً إلا الذي يراهم بحيث إنّ أحدهم إذا أشـير له إلى الأرض حملها كما قال صلى الله عليه وسلم «أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا فيه ملك قائم يصـلي» ومن غير ذلك من العظمة والكبرياء والجبروت والعلاء، أو يكون انفطارهن من عظيم شناعة الكفر بالذي خلق الأرض في يومين وجعلهم له أنداداً كما قال في السورة المناظرة لهذه سورة مريم {تكاد السـماوات يتفطرن منه وتنشـق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدا} [آية: 90-91] ونقص ما في هذه عن تلك لأنه لم يذكر هنا للولد، وهذا كناية عن التخويف بالعذاب لأن من المعلوم أن العالي إذا انفطر تهيأ للسـقوط، فإذا سـقط أهلك من تحته فكيف إذا كان من العلو والعظم وثقل الجسم على صفة لا يحيط بها إلا بارئها، فذكر الفوق تصوير لما يترتب على هذا الانفطار من البلايا الكبار، وعلى هذا يحسن أني يعود الضمير على الأراضي التي كفروا بفاطرها.

ولما بين أن سـبب كيدودة انفطارهن حلالة العظمة التي منها كثرة الملائكة وشناعة الكفر، بين لها سبباً آخر وهو عظيم قولهم، فقال: {والملائكة} أي والحال أنهم، وعدل عن التأنيث مراعاة للفظ إلى التذكير وضـمير الجمع، إشارة إلى قوة التسبيح وكثرة المسبحين فقال: {يسبحون} أي يوقعون التنزيه والتقديس لله سـبحانه وتعالى ملتبسـين {بحمد ربهم} أي بإثبات الكمال

للمحســن إليهم تســبيحاً يليق بما لهم– بما أشــارت إليه الإضــافة دائماً لا يفترون، فلهم بذلك زجل وأصـــوات لا تحملها العقول، ولا تثبت لها الجبال، فلا تستبعدن ذلك، فكم من صاعقة سمعتها من السحاب فرجت لها الأرض فتصـــدعت لها الأبنية المتينة والجبال الصـــلاب، ولفت القول إلى صـــفة الإحسان لمدح الملائكة بالإشارة إلى أنهم عرفوا إحسان المحسن وعملوا في الشكر بما اقتضاه إحسانه فصار تعريضاً بذم الكفرة بما غطوا من إحسانه، وتذرعوا من كفرانه.

ولما كانوا لما عندهم من العلم بجلال الله سبحانه يستحيون منه سبحانه كما يفعل أهل الأرض ويقولون ما لا يليق بحضــرته الشــماء وجنابه الأســمى، وكانوا يعلمون مما جادلهم ســبحانه عنهم أن له بهم عناية، فكانوا يرون أن الأقرب إلى رضــاه الاســتغفار لهم، فلذلك عبر عنهم سبحانه بقوله حاذقاً ما أوجبه السياق في {غافر} من ذكر الإيمان، إشارة إلى أن أقرب الخلق من العرش كأبعد الناس في الإيمان المشــروط بالغيب إبلاغاً في التنزيه لأنه لا مقتضى له هنا: {ويستغفرون} أي وهم مع التسبيح يطلبون الغفران {لمن في الأرض} لما يرون من شدة تقصيرهم في الوفاء بحق تلك العظمة، التي لا تضـــاهى، أما للمؤمن فمطلقاً، وأما للكافر فبتأخير المعالجة، وكذا لبقية الحيوانات، وذلك لما يهولهم مما يشــاهدونه من عظمة ذي الكبرياء وجلالة ذي الجبروت. قال ابن برجان: لم يشــأ الله جل ذكره كون شــيء إلا قيض ملائكة من عباده يشفعون في كونه، وكذلك في إبقاء ما شـاء إبقاءه وإعدام ما شــاء إعدامه، وهذه أصــول الشــفاعة فلا تكن من الممترين، وألطف من

ذلك أن تكون كيدودة انفطارهن في حال تســـبيح الملائكة واســـتغفارهم لما يرين من فوقهن من العظمـــة، ومن تحتهن من ذنوب الثقلين، فلولا ذكرهم لتفطرن وحضـــر العذاب، فعوجل الخلق بالهلاك، وقامت القيامة، وقضـــي الأمر، وإذا كانت كيدودة الانفطار مع هذا التنزيه والاستغفار، فما ظنك بما يكون لو عرى الأمر عنـه وخلا منـه، ولـذلـك ذكر العموم هنـا ولم يخص المؤمنين بالاســتغفار كما في {غافر} لما اقتضـــاه الســياق هنا من العموم، ولأن مقصود غافر تصنيف الناس في الآخرة صنفين وتوفية كل ما يستحقه فناسـب ذلك إفراد الذين تلبسـوا بالإيمان ومقصـود هذه الجمع على الدين في الدنيا فناســـب الدعاء للكل ليجازى كل بما يســـتحقه من إطلاق المغفرة في الدارين للمؤمن وتقييدها بالتأخير في الدنيا للكافر.

ولما كانت أفعال أهل الأرض وأقوالهم عظيمة المخالفة لما يرضـيه سـبحانه فهم يسـتحقون المعاجلة بسـببها، أجاب من كأنه قال: هذا يسـتجاب لهم في المؤمنين، فكيف يســـتجاب لهم في الكافرين ليجمع الكلام التهييب والتهويل في أوله والبشـــارة واللطف والتيســـير في آخره، فقال لافتاً القول عن صـــفة الإحســـان إلى الاســـم الأعظم تعريفاً بعظيم الأمر حملاً على لزوم الحمد وإدامة الشكر: {ألا إن الله} أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال، فله جميع العظمة، وأكد لأن ذلك لعظمه لا يكاد يصدق {هو} أي وحده، ورتب وصفيه سبحانه على أعلى وجوه البلاغة فبدأ بما أفهم إجابة الملائكة وأتبعه الإعلام بمزيد الإكرام فقال: {الغفور الرحيم *} أي العام الســتر والإكرام على الوجه الأبلغ أما لأهل الإيمان فواضـــح دنيا وآخرة، وأما لأهل الكفران ففي الدنيا

فهو يرزقهم ويعافيهم ويملي لهم {ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة} [فاطر : 45] وأما غير الله فلا يغفر لأهل معصيته، ولو أراد ذلك ما تمكن.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 9]

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)
وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8)
أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)}

ولما كان التقدير : فالذين تولوه وماتوا في ولايته فهو يغفر ذنوبهم بمعنى أنه يزيلها عيناً وأثراً، عطف عليه قوله : {والذين اتخذوا} أي عالجوا فطرهم الأولى وعقولهم حتى أخذوا {من دونه} أي من أدنى رتبة من رتبته {أولياء} يعبدونهم كالأصنام وكل من اتبع هواه في شيء من الأشياء، فقد اتخذ الشيطان الآمر له بذلك ولياً من دون الله بمخالفة أمره.

ولما كان ما فعلوه عظيم البشاعة، اشتد التشوف إلى جزائهم عليه فأخبر عنه سبحانه بقوله معبراً بالاسم الأعظم إشارة إلى وضوح ضلالهم وعظم تهديدهم معرياً له عن الفاء لئلا يتوهم أن الحفظ مسبب عن الاتخاذ المذكور

عادلاً إلى التعبير بالجلالة تعظيماً لما في الشـــرك من الظلم وتغليظاً لما يستحق فاعله من الزجر: {الله} أي المحيط بصفات الكمال {حفيظ عليهم} أي رقيب وراع وشـهيد على اعمالهم، لا يغيب عنه شـيء من أحوالهم، فهو إن شـاء أبقاهم على كفرهم وجازاهم عليه بما أعده للكافرين، وإن شـاء تاب عليهم ومحا ذلك عيناً وأثراً، فلم يعاقبهم ولم يعاتبهم، وإن شـــاء محاه عيناً وأبقى الأثر حتى يعاتبهم {وما أنت عليهم بوكيل *} أي حتى يلزمك أن تراعي جميع أحوالهم من أقوالهم وأفعالهم، فتحفظها وتقســرهم على تركها ونحو ذلك مما يتولاه الوكيل مما يقوم فيه مقام الموكل سواء قالوا {لا تسمعوا لهذا القرآن} أو قالوا {قلوبنا في أكنة} أو غير ذلك.

ولما كان الإيحاء السابق أول السورة للبشرى لأنها المقصود بالذات وكانت البشرى مقتضية تلويحاً ورمزاً بالأحرف المقطعة لاجتماع أهل الدين وغلبتهم على سائر الأديان وأن دينهم يعم سائر الأمم ويحيط بجميع الخلق، ولا يريد أحد بأهله ســوءاً إلا كان له فيه رفعة كما مضـــى بيانه، وكانت رمزاً لأن المقام للانذار بما تشهد به السورة الماضية، وكان المراد بها التكرار حتى لا تزال لذاذتها في أذن المبشـر وحلاوتها في قلبه، ذكرها بلفظ المضـارع الدال على التجدد والتكرار والحدوث والاستمرار، وكان المتعنت ربما حمله له على الوعد بالإيحاء في المســتقبل، وكان العاقل يكفيه في النذرى مرة واحدة فقال معبراً بالماضــي الدال على الإمضـــاء والقطع والقضـــاء الحتم في كل من الإيحاء وفائدته التي هي الأنذار، عاطفاً على ما يتصـــل بالآية الســـالفة المختومة بنفي الوكالة مما تقديره: إنما عليك البلاغ بالبشـــارة والنذارة، وقد

أوحينا إليك البشارة رمزاً، كما جرت به عادة الأحباب في محاورات الخطاب، ولفت القول إلى مظهر العظمة لأن الإنذار من مجازه: {وكذلك} أي ومثل ذلك الإيحاء الذي قدمنا أنا حبوناك به من وحي الإشـارة بالحروف المقطعة {أوحينا} بما لنا من العظمة مع الفرق بين كل ملبس {إليك قرآناً} جامعاً لكل حكمة {عربياً} فهو بين الخطاب واضح الصواب معجز الجناب {لتنذر} أي به {أم القرى} مكة التي هي أم الأرض وأصلها، منها دحيت ولشرفها أوقع الفعل عليها، عدا لها عداد العقلاء، ثم بين أن المراد أهلها بقوله: {ومن} أي وتنذر من {حولها} وهم سكان جميع الأرض التي هي امها، وبذلك فسره البغوي فقال: قرى الأرض كلها، وكذا القشيري وقال: العالم محدق بالكعبة ومكة لأنها سرة الأرض.

ولما كان مفعول {تنذر} الثاني على ما هدى إليه السياق ما عذبت به الأمم السالفة والقرون الماضية حين تمادى بهم الكفر وغلب عليهم الظلم في اتخاذهم أولياء من دون الله، عطف عليه: {وتنذر} أي أم القرى ومن حولها مع عذاب الأمم في الدنيا {يوم الجمع} أي لجميع الخلائق ببعثهم من الموت، حذف المفعول الأول من الشق الثاني، والمفعول الثاني من الأول، فالآية من الاحتباك: ذكر المنذرين أولاً دلالة على إرادتها ثانياً، وذكر المنذر به وهو يوم الجمع ثانياً دلالة على المنذر به من عذاب الأمم أولاً، ليذهب به الوهم في المحذوف كل مذهب، فيكون أهول، وذكر هذا المذكور أفخم وأوجل.

ولما كان الإنذار – وهو الإعلام بموضـــع المخافة– تارة يكون عما لا علم به، وهو الأغلب، وتارة عما وقع العمل به ثم خالف المنذر به علمه فعمل أعمال من لا علم له به، نبه على أنه هذا من القســم الثاني بقوله في جملة حالية: {لا ريب فيه} أي لأنـه قد ركز في فطرة كل أحد أن الحاكم إذا اســتعمل عبيده في شــيء ثم تظالموا فلا بد له بما تقتضــيه الســياســة من جمعهم لينصف بينهم وإلا عد سفيهاً، فما ظنك بأحكم الحاكمين.

ولما تشـوف السـامع إلى ما يفعل في جمعهم، وكان الثقلان لما طبعوا عليه من النقصـــان أهل فرقة وطغيان، ذكر نهايته معبراً بما هو من الفرقة بقوله مســـوغاً الابتداء بالنكرة للتفصـــيل أو تقرير الوصـــف: {فريق} أي من المجموعين أهل فرقة تداركهم الله بأن جعلهم أهل جمع {في الجنة} فصـــلاً منه وهم الذين قبلوا الإنذار وبالغوا في الحذار {وفريق} أي منهم خذلهم الله ووكلهم إلى أنفسهم فزادوا في الفرقة {في السعير *} عدلاً منه، قال القشيري: كما أنهم في الدنيا فريقان: فريق في درجات الطاعة وحلاوات العبادات، وفريق في ظلمات الشــرك وعقوبات الجحد والشــك، فلذلك غداهم فريقان: فريق هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل البلاء والشــقاء. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضــي الله عنهما قال: خرج علينا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وفي يده كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا، إلا أن تخبرنا يا رســـول الله! قال للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين بأسـماء أهل الجنة وأسـماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا، ثم قال للذي في يســـاره: هذا كتاب أهل

النار بأسـمائهم وأسـماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلأي شـيء نعمل إن كان هذا أمراً قد فرغ منه، قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة وإن عمل أي عمل وإن صـاحب النار يختم له بعمل النار وإن عمل أي عمل، قال بيده فقبضـها، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة، ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير«

قال ابن كثير: وهكذا رواه النسائي والترمذي جميعاً، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

ولما كان ملوك الدنيا غالباً لا يريدون أن يعصـى أمرهم، فإذا حذروا من شـيء أرادوا أن لا يقرب، فإن فعله أحد كان فعله له خارجاً عن مرادهم، فكانت عقوبتهم له لخروجه عن المراد شفاء لما حصل لهم من داء الغيظ، بين أنه سبحانه على غير ذلك، وأنه منزه عن خروج شيء عن مراده، وعن أن يلحقه نفع بطاعة أو ضر بمعصية، وإن عقوبته إنما هي على مخالفة أمره مع الدخول تحت مراده بإلجائه وقسـره، وهذا في نفس الأمر، وأما في الظاهر فالأمر أن لا يظهر أنه لشيء منهما مانع إلا صرف الاختيار، فقال صـارفاً القول عن مظهر العظمة استيفاء لإنذار ما هو حقيق به منها إلى الاسم الجامع صفات العظمة وغيرها لاقتضاء الحال له: {ولو شاء الله} أي المحيط بجميع صفات الكمال {لجعلهم} أي المجموعين {امة واحدة} للعذاب أو الثواب ولكنه لم يشأ ذلك بل شاء أن يكونوا فريقين: مقسطين وظالمين،

ليظهر فضـــله وعدله وأنه إله جبار واحد قهار، لا يبالي بأحد وهو معنى قوله: {ولكن يدخل من يشاء} أي إدخاله {في رحمته} بخلق الهداية في قلبه فتكون أفعالهم في مواضــعها وهم المقســطون، ويدخل من يشــاء في نقمته بخلق الضـــلال في قلوبهم فيكونون ظالمين، فلا يكون لهم فعل في حاق موضعه، فالمقسطون ما لهم من عدو ولا نكير {والظالمون} أي العريقون في الظلم الذين شـــاء ظلمهم فيدخلهم في لعنته {ما لهم من ولي} يلي أمورهم فيجتهد في إصـــلاحها {ولا نصـــير *} ينصـــرهم من الهوان، فالآية من الاحتباك وهو ظاهر ذكر الرحمة أولاً دليلاً على اللعنة ثانياً والظلم وما معه ثانياً دليلاً على أضداده أولاً، وسره أنه ذكر السبب الحقيقي في أهل السعادة ليحملهم على مزيد الشكر، والسـبب الظاهري في أهل الشـقاوة لينهاهم عن الكفر.

ولما كان التقدير: هل قصـــر هؤلاء الذين تنذرهم هممهم وعزائمهم وأقوالهم وأفعالهم على الله تعالى اتعاظاً وانتذاراً بهذا الكلام المعجز، عادل به قوله: {أم اتخذوا} أي عالجوا فطرهم الشاهدة بذلك بشهادة أوقات الاضطرار حتى لفتوها عنه ســـبحانه فأخذوا {من دونه أولياء} هم عالمون بأنهم لا يغنون عنهم شـيئاً ولهذا قال: {فالله} أي فتسـبب عما أفهمته صـيغة الافتعال من أنهم عالمون بأنه وحده الضـــار النافع علمُهم بأنه {هو} وحده {الولي} لا غيره، ويجوز أن يكون مســـبباً عن هذا الاســـتفهام الإنكاري التوبيخي كأنه قيل: هل قصـروا هممهم عليه ســبحانه، فســبب أنه وحمده المســتحق لما يقصــدونه من التولي {وهو} أيضــاً وحده لا غيره {يحيي الموتى} أي يجدد

إحيائهم في أي وقت يشاؤه {وهو} أي وحده {على كل شـيء قدير *} أي بالغ القدرة لا يشاركه شـيء في ذلك بشـهادة كل عاقل، وأكده بالقصـر لأن شركهم بالأولياء إنكار لاختصاصه بالولاية.

▲ تفسير الآيات رقم [10- 13]

{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَـيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)
فَاطِرُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)
لَهُ مَقَالِيدُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُـطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (12)
شَـرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّـى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّـيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَـى وَعِيسَـى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْـرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)}

ولما كانوا جميعاً يقرون بجميع ما وصـف به نفسـه المقدسـة في هذه الآية عند الشـدائد، بعضـه تصـريحاً من الوحدانية في الولاية والإحياء في هذه الدار والقدرة على كل شيء، وبعضه لزوماً وهو الإحياء بالبعث، تسبب عن ذلك قطعاً أن يقال مع صـرف القول إلى الخطاب إشـارة إلى أنه تعالى قرب إليهم كل خير وقرب إليهم فهم الوحدانية لعقولهم بعد أن فطرهم على لزومها

عند الاضطرار، فما اتفقتم فيه من أمره سبحانه فهو الحق، وذلك هو أصل الدين الذي أطبق عليه الخلائق في وقت الاضطرار، لم يتلعثم فيه منهم ضعيف، ولا جبار منيف، عطف عليه قوله: {وما اختلفتم} أي أيها الخلق {فيه من شيء} وذلك هو الفروع مطلقاً والأصول في حال الرفاهية {فحكمه إلى الله} أي الذي هو الولي لا غيره وهو القدير لا غيره، فلا يخرج شيء عن أمره، فحصوا عنه تجدوه في كتابه لأن فيه تبيان كل شيء، فإن قصرت أفهامكم عن إخراجه منه فاطلبوه في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإن عز عليكم ففي إجماع أهل دينه، فإن أعوزكم ذلك ففي القياس على شيء من ذلك. قال القشيري: هذه الأشياء هي قانون الشريعة، وجملتها من كتاب الله، فإن الكتاب هو الذي يدل على صحة هذه الجملة– انتهى. وما اجتهدتم فيه على ما شرع لكم وفصلتموه بما ظهر لكم على حكم بذل الجهد مضى، وما لا فصله بينكم سبحانه في هذا اليوم أن أراد بنصر المحق وخذلان الظالم، وإن أراد أخره إلى يوم الدين، فإن شاء عفا وإن شاء عاقب عليه، فلا حكم لغيره لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولما أنتج هذا أنه لا عظيم غيره، ولا إله إلا هو، ترجم ذلك بقوله مخاطباً للكل: {ذلكم} أي العظيم الرتبة جداً {الله} المحيط بجميع أوصاف الكمال، فلا شريك له في شيء منه بوجه {ربي} الذي لا مربي له غيره في ماضٍ ولا حال ولا استقبال. ولما كان ذلك، أنتج ولا بد قوله: {عليه} أي وحده {توكلت} أي أسلمت جميع أمري {وإليه} أي لا إلى غيره {أنيب *} أي أرجع بالتوبة إذا قصرت في شيء من فروع شرعه وأرجع إلى كتابه إذا نابني أمر من

الأمور، فأعرف منه حكمه فافعلوا أنتم كذلك، اجعلوه الحكم تفلحوا، ولا تعدلوا عنه في شيء من الأشياء تهلكوا.

ولما تقرر بهذا الكلام أنه قد ركز في الفطر أنه لا إله غيره لأنه خالق سواه كما يهدي إليه الاضطرار وإن أغفل عنه البطر، وصفه بالدليل على ذلك الذي جبل عليه جميع الفطر: {فاطر السماوات والأرض} أي مبتدئهما بالخلق والإخراج من العدم، وكل ما اتخذتموه ولياً من دونه فهو منهما، فهو مما فطره كما يعلم كل أحد منكم ذلك لا يتمارى فيه، فهذا هو السبب في العلم المركوز في الفطر من أنه الواحد الذي لا إله معه كما كان في الأزل ولا شيء معه.

ولما ذكر سبحانه ما شق العدم بإيجاده من غير سبب أصلاً، أتبعه ما سببه عن ذلك فأنشأه من العناصر التي أبدعتها يد القدرة في الخافقين، فقال معبراً بالفعلية تذكيراً بما يوجب لهم الاعتراف بما اعترف به نبيه صلى الله عليه وسلم من أنه وحده ربه لا شريك له في ذلك، فيوجب التوكل عليه وحده: {جعل لكم} أي بعد أن خلقكم من الأرض {من أنفسكم أزواجاً} يكون بالسكون إليها بقاء نوعكم، ولما كانت الأنعام ومنافعها لأجلنا قال: {ومن} أي وجعل لكم من {الأنعام} الي هي أموالكم وجمالكم وبها أعظم قوامكم {أزواجاً} أي من أنفسها، يكون بها أيضاً بقاء نوعها، وكذا جميع الحيوانات، ومعنى قوله مغلباً العقلاء: {يذرؤكم} أي يخلقكم ويكثركم ولما كان الأزواج في غاية المحبة للزواج بحيث إنه مستول على القلوب، كان كأنه محيط بهم فقال: {فيه} أي في ذلك التزاوج بحيث يجعلكم مولعين به، من قوله ذراه:

خلقه وكثره وأولعه بالشـيء، فيكون لكم في الأزواج من البشـر نطفاً وجمالاً وولادة، وفي الأنعام غذاء وشـراباً واكلاً، وغير ذلك مما لكم فيه من المنافع، ولا تزالون في هذا الوجه من الخلق والتزاوج نسلاً بعد نسل وجيلاً بعد جيل.
ولما تقرر في الأوهام وثبت في كثير من الأذهان أنه لا يكون شـــيء إلا بسبب التزواج، كان ربما سرى شيء من هذا الوهم في حق الخالق سبحانه فنفاه على أبلغ وجه بقوله: استئنافاً في جواب من يسأل عنه: {ليس} وقدم الخبر لأن المراد نفيه فأولاه النافي دلالة على شـــدة العناية بنفســـه فقال: {كمثله} أي مثل نفسه في ذاته ولا في شيء من صفاته: {شيء} يزاوجه أو يناســـبه، وكل ما اتخذتموه ولياً من دونه، فله ما يزاوجه ويماثله، فالمراد بالمثل هنا النفس وهو أصله وحقيقته في اللغة من قولهم: مثل الرجل يمثل- إذا قام وانتصـب، قال الإمام عبد الحق الإشـبيلي في كتابه الواعي: والمثل يكون هو الحديث نفسـه {مثل الجنة التي وعد المتقون} [الرعد: 35] فمثلها هو الخبر عنها، وقيل: المثل ههنا الصـفة {ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم} [البقرة: 214] أي صـفتهم، نقل ذلك الهروي ونقل عن أبي عبد الله القزاز قوله: {ضـرب مثل فاستمعوا له} [الحج: 73] كذلك، لأنه قال: {إن الذين تدعون} الآية فصار الخبر عن ذلك هو المثل، قال: وهو على أصل ما ذكرنا أن مثل الشـيء صـفته وصـورته، وروي عن علي بن أبي طالب رضـي الله عنه أنه قرأ {مثال} وقرأ {أمثال الجنة التي وعد المتقون} ثم قال: وهذا كله يدل على أن معنى {مثل} صفة صورة، قال أبو عبد الله: مثلت له الشيء تمثيلاً: صورته له حتى كأنه ينظر إليه، وفي الحديث:

»مثلت لي الجنة والنار» انتهى. في القاموس: المثل- بالكسر والتحريك وكأمر: المشبه، والمثل محركة: الحجة والحديث والصفة، والمثيل: المقدار والقصاص وصفة الشيء والفراش، جمعه أمثلة ومثل، والتمثال- بالكسر: الصورة ومثل قائماً: قام منتصباً كمثل بلاضم مثولاً- انتهى. وفي شمس العلوم: والعرب تقيم المثل مقام النفس فتقول: مثلي لا يقول هذا أي أنا انتهى. فقد بان أن المثل بالإسكان والتحريك واحد، وأنه في الأصل عبارة عن نفس الشيء وصورته، ثم شاع فيما يشابهه، فمعنى مثل أي انتصب تشكل وتصور فكانت له صورة وشكل لأن بالانتصاب تتحقق صورته وتظهر، وكذا مثل بمعنى لصق الأرض وإن كان ظهوره بالقيام أوضح، وكذا مثل إذا زال عن مكانه لأنه حصل الانتصاب أو اللصوق، وزاد الانتقال، ويوضح ذلك قولهم: مثله له- إذا صوره حتى كأنه ينظر إليه، فعلم قطعاً أن معنى الآية ما قلته، وأنه لو قيل {ليس كمثله شيء}، من غير كاف، لربما قال بعض أهل التعنت: هذا معناه أنه ليس شيئاً، لأنا قد علمنا أن المثل هو الشيء، وقد كانوا يتعنتون بدون هذا، فأتى بالكاف إزالةً لهذا التعنت مع العلم القطعي بأن ظاهر ما نفهمه غير مراد لأنه يؤدي إلى محالين هما في غاية الضمور يحاشى عن أحدهما فكيف إذا اجتمعا من له أدنى حكمة فكيف بأحكم الحكماء، أحدهما أن له مثلاً، والثاني أن مثله لا مثل له مع الحكم بأنه مثله، وذلك تناقض ظاهر يتعالى الله عن إرادة مثله علواً كبيراً- والله الموفق.

ولما كان قد أبطن نفســـه ســـبحانه بهذا التنزيه إبطاناً عظيماً، وكان هذا الإعراق في البطون لا تحتمله العقول، فلا يؤمن عليها النزوع إلى التعطيل، قربه بنوع ظهور بذكر ما نعقله من الأوصــاف بعد الأمن من التشــبيه لمن يأمل الكلام، وحكم العقل وطرد الوهم، فأتى بأوضح ما نحسه من أوصافنا. وأظهره مع اســتلزامه لبقية الصــفات فقال: {وهو} أي والحال أنه لا غيره {الســميع البصــير *} أي الكامل في الســمع والبصــر والعلم من البصــر والبصــــيرة، ومن المقطوع به أن ذلك لا يكون على وجه الخصـــوص إلا بالوحدانية والحياة والقدرة والإرادة والكلام، فاســـتوفت هذه الآية ما لوح إليه العاطف فيب قوله «وما اختلفتم» بعد ما صـــرح به، فالله هو الولي من أصــول الدين بالصــفات الســبع على أتم وجه- والله الموفق، قال الحرالي: الســمع إدراك ألطف المثلين وهو الاســم، والصــر إدراك أظهر المثلين وهو الصــورة، وبالحق ســبحانه بدأ كل مثل لطيف فهو الســميع بالحقيقة أن لا يســمع ما هو مبدئ ألطف مثيله، أو لا يبصـــر ما هو مبدئ أظهر مثيله، ولما كان ســبحانه وتعالى عليماً بأمثال البادئات قبل كونها كان ســميعاً لها بصــيراً لها قبل كونها، وإنما يســتجد الســمع والبصــر من يتبع علمه إدراك حسه، لا من هو دائماً سميع بصير بما هو دائماً عليم، فهو سبحانه يسمع الأشـياء وإن لم تتسـم، ويراها وإن لم تتصـور، رؤيته لها وسـمعه في خلقها وبريها وتصـــويرها رؤية دائمة وســـمع دائم، والخلق لا يرون الشـــيء قبل تصوره ولا يسمعونه قبل تكلمه- انتهى.

فقد صرحت الآية بتنزيهه عن مساوٍ في شيء ما، فمن ادعى لأحد مساواته في شيء من صفاته علم أو غيره فقد أشرك به في تلك الصفة وهو أشد ملامة من المشرك بالصنم ونحوه من المخلوقات لأن إشراك هذا ظاهر الوهي واضح الخلل بين السفسفة، وإشراك الأول خفي لا يقدر على حله إلا راسخ وإن كان كل منهما يصير إلى الركاكة والهذيان لأنه لا يسوغ في عقل أن يكون أحد شريكاً لأحد في شيء إلا وهو مساوٍ له في حقيقة الذات، وصالح في الجملة لأن يقوم مقامه في جميع الصفات، فإياك ثم إياك من مزلة ربما استغوى بها الشيطان بعض من يريد الترقي في درجات العرفان، ليخرجه من جميع الأديان.

ولما قرر أمر الوحي بما ثبت به من الإعجاز، وأراهم الآيات في الآفاق، بأن له ما في الوجود، وأنه هو الذي فطره، وكان ربما كان للإنسان شيء ولم يكن كامل التصرف فيه بأن يكون مفاتيح خزائنه مع غيره من شريك أو غيره، وكان ربما اخترع الإنسان بناء وكان لغيره، أخبر إكمالاً لتنزيه الآية السالفة وشرحاً له أنه تعالى ليس كمثله شيء كغيره في هذا أيضاً بل كما كان أن له ما في الخافقين وهو مخترعهما فله مفاتيح خزائنهما، فقال: {له} أي وحده {مقاليد السماوات والأرض} أي خزائنهما ومفاتيح خزائنهما من الأمطار والأنبات وغيرهما وقد ثبت أنه ابتدعهما، وأن له جميع ما فيهما مما اتخذ من دونه ولياً وغيره، قال القشيري: والمفاتيح الخزائن وخزائنه مقدوراته– انتهى. ولما كان قد حصر الأمر فيه دل عليه بقوله: {يبسط الرزق} أي الذي فيهما ولا مانع منه إلا قدرته {لمن يشاء} أي أن يبسطه له

{ويقدر} أي يضـيق ويقبض على من يشـاء كما وسـع على فارس والروم وضيق على العرب وفاوت في الأفراد، بين أفراد من وسع عليهم ومن ضيق عليهم، فدل ذلك قطعاً على أنه لا شريك له وأنه هو المتصرف وحده فقطع بذلك أفكار الموفقين من عباده من غيره ليقبلوا عليه ويتفرغوا له، فإن عبادته هي المقاليد بالحقيقة {اسـتغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسـل السـماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال} [الآية 12: نوح]

{ومن يؤمن بالله ويعمل صـالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار} [الطلاق: 11]

{ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السـماء والأرض} [الأعراف: 96]

{ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سـيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم} {ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل} [الآية 66: المائدة].

ولما كان كأنه قيل: لم فعل ذلك؟ علله بقوله مؤكداً لأن أعمال غالب الناس في المعاصي عمل من يظن أنه سبحانه يخفى عليه عمله: {إنه بكل شيء عليم *} فلا فعل له إلا وهو جار على أتقن ما يكون من قوانين الحكمة، فلو أنه وسـع العرب وقواهم ثم أباحهم ملك أهل فارس والروم لقبل بقوتهم ومكنتهم، وله في كل شـيء دق أو جل من الحكم ما يعجز عن إدراك لطائفة أفاضل الأمم.

ولما ثبت أن له كل شيء وأنه لا متصرف في الوجود سواه، أنتج ذلك أنه لا ناهج لطرق الأديان التي هي أعظم الرزق وأعظم قاسـمة للرزق غيره،

فأعلمهم أنه لم يشـرع ديناً قديماً وحديثاً غير ما اتفقوا عليه وقت الشـدائد. فقال دالاً على ما ختم به الآية التي قبلها من شمول علمه ومرغباً في لزوم ما هدى إليه ودل عليه: {شـرع} أي طرق وسـن طريقاً ظاهراً بيناً واضـحاً {لكم} أيتها الأمة الخاتمة من الطرق الظاهرة المستقيمة {من الدين} وهو ما يعمل فيجازي عليه. ولما كان السياق للدين، وكانوا هم المقصودين في هذا السياق بالأمر به، لأن الشارع لهم قد أنتجه، وكانوا لتقليدهم الآباء يرون أن ما كان منه أقدم كان أعظم وأحكم، ذكر لهم أول الآباء المرسـلين إلى المخالفين فقال: {ما} أي الذي {وصى به} توصية عظيمة بعد إعلامه بانه شرعه {نوحاً} في الزمان الأقدم كما ختم به على لسان الخاتم، وأرسل به من توسـط بينهما من الأنبياء المشـاهير لأنه لا يرضـيه سـواه، فإن كنتم إنما تأنفون من الدخول في هذا الدين لحدوثه فإنه أقدم الأديان وكل ما سـواه حادث مع أنه ما بعث نبياً من أنبيائكم ولا من غيرهم إلا به ومع أنه توفرت على الشهادة به الفطر الأولى دائماً والفطر اللاحقة حتى من القلوب العاتية في أوقات الشدائد أبداً فأدخلوا فيه على بصيرة.

ولما كان الإعجاز خاصـاً بنا، أبرزه في مظهر العظمة معبراً بالوحي، وبالأصـل في الموصـلات، ودالاً على زيادة عظمته بتقديمه على من كانوا قبله مع ترتيبهم عند ذكرهم على ترتيبهم في الوجود فقال: {والذي أوحينا إليك} وأفرد الضـمير زيادة في عظمته دلالة على أنه لا يفهمه حق فهمه غيره صلى الله عليه وسلم، ودل على عظمه ما كان لإبراهيم وبنيه بما ظهر من آثاره بمظهر العظمة، وعلى نقصـه عما إلى نبينا صـلى الله عليه وسلم

بالتعبير بالوصـية فقال: {وما وصـينا} أي على ما لنا من العظمة الباهرة التي ظهرت بها تلك المعجزات {به إبراهيم} الذي نجيناه من كيد نمرود بالنار وغيرها ووهبنا له على الكبر إسـماعيل وإسـحاق، وهو أعظم آباء العرب وهم يدعون أكبر بالآباء فليكونوا على ما وصيناه به {وموسى{ الذي أنزلنا عليه التوراة موعظة وتفصـيلاً لكل شـيء {وعيسـى} الذي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى ونور وموعظة، ودخرناه في سمائنا شريعة الخاتم الفاتح.

ولما اشتد تشوف السامع إلى الموحى الموصى به، أبرزه في أسلوب الأمر فقال مبدلاً من معمول «شرع» أو مستأنفاً: {أن أقيموا} أي أيها المشروع لهم من هذه الأمة الخاتمة ومن الأمم الماضـية {الدين} أي الذي اتفق عليه الخلائق بالرجوع إلى ما فطروا عليه وقت الاضطرار وهو التوحيد والوصف بجميع صفات الكمال على الإطلاق وغير ذلك من كل ما أرسل به رسله هذا على تقدير أن تكون {أن} مصـدرية، ويجوز أن تكون مفسـرة لتقدم ما هو بمعنى القول.

ولما عظمه الأمر بالاجتماع، أتبعه التعظيم بالنهي عن الافتراق فقال: {ولا تتفرقوا} أي تفرقاً عظيماً بما أشـار إليه إثبات التاء، وكأن ذلك إشـارة إلى التحذير من التفرق في الأصـل وإذن في الاجتهاد على قدر القوة في الفرع {فيه} أي الدين في أوقات الرخاء عند التقلب في لذيذ ما أنعم به الشـارع له الآمر به المرغب في اتباعه المرهب من اجتنابه، واجتمعوا على ما أرسـله الذي أثبتم له جميع صفات الكمال عند الشدائد من غير خلاف أصلاً في شيء من الأشياء، فإن التفرق سبب الهلاك، والاجتماع سبب النجاة، فكونوا

يداً واحدة يا أهل الكتاب قال تعالى {يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ســواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله}.

ولما نهى عن التفرق، حث على لزوم الاجتماع اللازم به بتعليل النهي بقوله: {كبُر على المشركين} أي جل وعظم وشق حتى ضاقت به صدورهم، وهو {ما تدعوهم إليه} أيها النبي الفاتح الخاتم من الاجتماع أبداً على ما اجتمعوا عليه وقت الاضطرار من وحدانية الواحد القهار، فلأجل كبره عليهم هم يســعون في تفرقكم عنه فإن تفرقتم عنه كنتم قد تابعتم العدو الحســود وخالفتم الولي الودود. ولما كان الإخبار بكرّه عليهم ربنا أوهم اتباع أتباعهم له، أزال ذلك الوهم بقوله جواباً لمن كأنه قال: كيف الســبيل مع ذلك إلى دخول أحد في هذا الدين، عادلاً عن مظهر العظمة إلى أعظم منه تعظيماً للقدرة على جميع القلوب: {الله} أي الذي له مجامع العظمة ونفوذ الأمر {يجتبي} أي يختار بغاية العناية ويصــرف {إليه} أي إلى هذا الدين الذي تدعوهم إليه {من يشاء} اجتباءه.

ولما ذكر سبحانه بهذا المراد بغير تكسب منه، أتبعه المزيد المعنى بالسلوك فقال: {ويهدي إليه} بالتوفيق للطاعة {من ينيب *} أي فيه أهلية لأن يجدد الرجوع إلى مراتب طاعاته كل حين بباطنه بعد الرجوع بظاهر إلى ما كتبه له من الدرجات كأنه كان الوصــول إليها قد نزل عنها وهو بترقيه في المنازلات بأحوال الطاعات يرجع إليها.

▲ تفسير الآيات رقم [14– 16]

{وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14)

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16)}

ولما كان المراد بالمشركين مع عباد الأوثان أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله لقبولهم منهم التحليل والتحريم، وكان ذلك مفهماً لأنهم فارقوا أهل الطاعة، وكان ذلك موهماً لأنهم ما فارقوهم إلا عن جهل، قال عاطفاً على ما تقديره : فأتى الرسل إلى الناس فأقاموا لهم الدين وبينوا لهم غاية التبيين فاجتبى الله بعضهم وأضل بعضهم فافترقوا : {وما تفرقوا } أي المشركين من قبلكم من أهل الكتاب وغيرهم في أديانهم {إلا} وأدخل الجار لعدم استغراق الزمان فقال: {من بعد ما جاءهم} أي على ألسنة أنبيائهم الذين لم يدعوا لبساً {العلم} أي بما لا يسوغ معه التفرق ومنه أن الفرقة ضلالة، وأشار الجار أيضاً إلى أن التفرق كان مع العلم لم يكن طال الزمان فتطرق إلى علمهم نسيان كل ذلك بياناً لعظيم قدرة الله تعالى

في تصــرفه في القلوب، فإياكم أن يكون حالكم كحالهم فليشــتد خوفكم لربكم ورجاءكم له.

ولما كان ترك طريق العلم عجباً ومســتبعداً، قال مبيناً أن الذي حملهم على ذلك حظوظ الأنفس التي لا نجاة منها إلا بعصـــمة الله تعالى: {بغياً} أي حال كون تفرقهم عداوة ولا شــبهة فيها هي بينة الظلم لأجل حظوظ الأنفس واتباع الأهواء التي يجب على العبد البعد عنها بأن لا تكون له إرادة أصــلاً بل تكون إرادته تابعة لأمر مولاه.

ولما كان مطلق البغي منافياً لمكارم الأخلاق، فكان ارتكابه عجباً، زاد في التعجب منه ببيان أن البغي لم يعد جماعتهم إلى غيرها، بل كان خاصـــاً بها، فقال: {بينهم}.

ولما كان ذلك يقتضـــي المعالجة، قال عاطفاً على ما تقديره: فلولا قدرة الله ولطفه لما اجتمعوا بعد الفرقة أبداً: {ولولا كلمة} أي لا تبديل لها {سبقت} أي في الأزل بتأخيرهم إلى آجالهم. ولما كان إمهالهم والرفق بهم رحمة لهم، بين أن ذلك إنما هو لأجل خير الخلق ليكونوا أتباعاً له فيزدادوا لذلك شـــرفاً، وأفرده بالذكر تنبيهاً على ذلك فقال مؤنســاً له صــلى الله عليه وســلم بلفت الكلام إلى صفة الإحسان إرضاء له بما يرجوه في امته، وزاد ذلك بالإضافة إلى ضـــميره فأفهم أن إحســـانه إليهم إحســـان يليق بمقامه، ويلتئم بمراده الشريف ومرامه: {من ربك} أي المحسن إليك بجعلك خير الخلائق وإمامهم، ســبقت الكلمة بإمهالهم {إلى أجل مســمى} ضــربه لآجالهم ثم لجمعهم في

الآخرة {لقضي} على أيسر وجه وأسهله {بينهم} حين الافتراق بإهلاك الظالم وإنجاء المحق.

ولما أخبر عن حال المتقدمين، وكان من في زمانه صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب يدعون غاية العلم بها والاجتماع عليها، وهي كلها داعية إلى المبادرة إلى إرث هذا الكتاب الخاتم الجامع، وكان بعضـــهم يتلبس بالتنسـك والإعراض عن الدنيا وغير ذلك مما يقتضـــــي أنه على بصـــيرة من أمره، وإنكار أن يكون عنده نوع شـــك، قال على وجه يعم غيرهم، مؤكداً تنبيهاً على ذلك: {وإن الذين} ولما كان المراد الوصول إلى الكتاب من غير منازع، ولم تدع حاجة إلى العلم بالموصـل، بني للمفعول قوله: {أورثوا الكتاب} أي الكامل الخاتم، وهم هذه الأمة بما نســـخ كتابهم ما تقدمه كان غيرهم كأنه مات، فورثوا كما قال تعالى

{ثم أورثنا الكتاب الذين اصـطفينا من عبادنا} [فاطر: 32] فكان حالهم في تمكنهم من التصرف في الكتاب بالحفظ والفهم وعدم المنازع في ادعائه حال الوارث والموروث منه فقال: {من بعدهم} أي المتفرقين، وأثبت الجار لعدم اسـتغراق الزمان {لفي شـك منه} أي إيراث للكتاب المقتضـي للاجتماع لا للتفرق لما فيه من الخير، وذلك لعملهم عمل الشـاك فيقولون: إنه سـحر وشعر وكهانة، ونحو ذلك، وأن الآتي به غير صادق بعد اطلاعهم على ما اتى به من المعجزات وبعد معرفتهم به، أما العرب ومن ســاكنهم من أهل الكتاب فبإعجازه مع ما في أهل الكتاب من البشـــارة به، وأما غير من ســاكنهم فبدعوة كتابهم {مريب *} أي موقع في التهمة الموقعة في الحاجة

الموقعة في صــروف الدهر وهي شــدائده وآفاته ونوائبه هذا على أن المراد كتابنا، ويجوز أن يكون الضـــمير لأهل الكتاب خاصـــة والكتاب كتابهم، وشكهم فيه عملهم بغير ما دعاهم إليه من اتباع كتابنا باتباع نبينا صلى الله عليه وسلم.

ولما ثبت بهذا زيغهم عن أوامر الكتاب الآتي من الله، سبب عنه أمره صلى الله عليه وسلم بإبلاغ الناس ما ينفعهم عن رسالة ربه الذي أنزل تلك الكتب في آية واحد مفصلة بعشر كلمات في كل كلمة منها حكم برأسه، قالوا: ولا نظير لها إلا آية الكرسي فإنها عشرة أصول كل أصل منها مستقل برأسه فقال مسبباً عن حالهم الاجتهاد في إزالتها والعمل بضدها: {فلذلك} أي لهذا الوحي العلي الرتبة الذي وصينا بمقاصده جميع الرسل أصحاب الشرائع الكبار من أولي العزم وغيرهم، أو لذلك التصرف المباعد للصواب والشك في أمر الكتاب.

ولما كان ســياق الدعوة للخلق إلى ما أوحى إليه فأنزل عليه، قدم قوله: {فادع} إلى من أرسلك الله به من الاتفاق على ما أمر به الإله من الاجتماع على الملة الحنيفية. ولما كان الداعي لغيره لا ينفع دعاءه لذلك الغير ما لم ينفع نفســه، قال: {واســتقم} أي اطلب القوم من ربك على مشــاق الدعوة ليعينك عليه وأوجده على ما يدعو إليه كتابه مما تدعو إليه ويجب عليه {كما أمرت} ممن لا أمر لغيره في تفاصــيل الدعاء من اللين والغلظة والتوســط وغير ذلك من تحديث الناس بما تحتمل عقولهم وتربيتهم على حسب ما ينفعهم.

ولما كان كل ما خالف كتابنا هوى، وكل ما خالف كتابنا فهو على مجرد الهوى، قال: {ولا تتبع} أي تعمداً {أهواءهم} في شـــيء ما، فإن الهوى لا يدعو إلى خير، والمقصود من كل أحد أن يفعل ما أمر به لأجل أنه أمر به لا لأجل أنه يهواه.

ولما كانوا قد تفرقوا في الكتاب وشكوا فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أمره بما يخالف حالهم فقال: {وقل} أي لجميع أهل الفرق، وكل من يمكن له القول فإنك أرسلت إلى جميع الخلق: {آمنت بما} أي بكل شيء. ولما كان أكمل الناس إيماناً أكثرهم اســـتحضـــاراً لأوصـــاف الكمال من الجلال والجمال، صرف القول إلى الاسم الأعظم إشارة إلى سلوك أعلى المسالك في ذلك فقال: {أنزل الله} أي الذي له العظمة الكاملة {من كتاب} لا أفرق بين شيء من كتبه ولا أحد من رســـله، بل كل كتاب ثبت أنه نزل على رســـول ثبت رســـالته بالمعجزة فأنا به مؤمن وإليه داعٍ كما اقتضـــاه كمال القوة النظرية، قال أبو علي القالي في ذيل الأمالي: حدثنا أبو بكر- هو ابن الأنباري- حدثنا أبو جعفر محمد بن عثمان حدثنا صـــحاب بن الحارث أنا بشـــر بن عمارة عن محمد بن سوقة قال: أتى علياً رضي الله عنه رجل فقال: يا أمير المؤمنين ما الإيمان أو كيف الإيمان؟ قال: الإيمان على أربع دعائم: على الصـــبر واليقين والعدل والجهاد، والصـــبر على أربع شـــعب: على الشـــوق والشـفق والزهادة والترقب، فمن اشـتاق إلى الجنة سـلى عن الشـهوات، ومن أشـفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصـيبات، ومن ارتقب الموت ســارع إلى الخيرات، واليقين على أربع شــعاب: تبصــرة

الفطنة وتاويل الحكمة وموعظة العبرة وسـنة الأولين، فمن تبصـر الفطنة تـأول الحكمـة، ومن تـأول الحكمـة عرف بـالعبرة، ومن عرف العبرة عرف السـنة، ومن عرف السـنة فكأنما كان في الأولين، والعدل على أربع شـعب: على غائص الفهم وزهرة الحلم وروضـة العلم وشـرائع الحكم، فمن فهم جمع العلم، ومن حلم لم يضل في الحكم، ومن علم عرف شرائع الحكم، ومن حلم لم يفرط أمره، وعاش في الناس . والجهاد على أربع شـعب : على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصـدق في المواطن وشـنآن الفاسـقين، فمن أمر بـالمعروف شـد ظهر المؤمنين، ومن نـهى عن المنكر أرغم آنـاف الفاسـقين، ومن صـدق في المواطن فقد قضـى الذي عليه، ومن شـنئ المنافقين غضـب لله وغضـب الله له فأزلفه وأعلى مقامه، قال: فقام الرجل فقبل رأسه.

ولمـا أخبر بـالعـدل في القوة النظريـة، أتبعـه ذلـك في القوة العمليـة فقـال : {وأمرت} أي ممن لـه الأمر كله بما أمرني به مما أنزل عليّ {لأعدل} أي لأجل أن أعدل {بينكم} أيها المفرّقون في الأديان من العرب والعجم من الجن والإنس كما دعى إليه كمال القوة العملية، ثم علل ذلك بقوله : {الله} أي الذي له الملك كله {ربنا وربكم} أي موجدنا ومتولي جميع أمورنا، فلهذا أمرنا بالعدل على سبيل العموم لأن الكل عباده.

ولما كان الرب واحداً، انتج عنه قوله: {لنا أعمالنا} خاصة بنا لا تعدونا إلى غيرنا {ولكم أعمالكم} خاصـة بكم لا تعدوكم إلى غيركم، لأنه لا داعي لأن نـأخذ عمل بعضـنا فنعطيه لغيره، لأن ذلك لا يفعله إلا ذو غرض، وهو

سبحانه محيط بصفات الكمال، فهو منزه عن الأغراض، ولما وصل بتمام هذه الجملة في إزالة الريب وإثبات الحق إلى ما هو كالشمس لثبوت الرسالة بالمعجزات وإعجاز هذا الكتاب وتصادقه مع ما عند أهل الكتاب، وبيان هاتين المقدمتين اللتين لا نزاع بين أحد من الخلق فيهما كانت نتيجة ذلك : {لا حجة} أي موجودة بمحاجة أحد منا لصاحبه {بيننا وبينكم} لأن الأمر وصل إلى الانكشاف التام فلا فائدة بعده للمحاجة فما بقي إلا المجادلة بالسيوف، وإدارة كؤوس الحتوف، لأنا نعلم بإعلام الله لنا في كتابه الذي دلنا إعجازه للخلائق على أنه كلامه، فنحن نسمعه لذلك منه أنا على محض الحق وأنكم على محض الباطل، وقد أعذرنا إليكم وأوصلنا ببراهينه إلى المشاهدة فلم يبق إلا السيف عملاً بفضيلة الشجاعة.

ولما كان هذا موضع أن يقال: أفما تخافون الله فيمن تقاتلونه وهو عباده، أجاب بقوله مظهراً غير مضمر تعظيماً للأمر : {الله} أي الذي هو أحكم الحاكمين {يجمع بيننا } أي نحن وأنتم على دين واحد أراد فلا يكون قتال، وفي الآخرة على كل حال {فهو يحكم بيننا} {وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون} [الشعراء: 227] فما أقدمنا على القتال إلا عن بصيرة.

ولما كان الجامع بين ناس قد يكون مآلهم إلى غيره، بين أن الأمر فيه على غير ذلك، فقال عاطفاً على ما تقديره: فمنه كان المبدأ : {وإليه} أي لا إلى غيره من حيث هذا الاسم الجامع لجميع الصفات {المصير *} حساً ومعنى لتمام عزته وشمول عظمته وكمال رحمته، وما كان فيما بين المبدأ والمعاد من الأمور التي كانت بحيث يظن أنها خارجة- لتصرف الغير فيها- إنما

كانت ابتلاء منه يقيم بها الحجة على العباد على ما يتعارفونه بينهم، وما كان المتصـــرف فيها غيره فتصـــرفهم إنما كان أمراً طارئاً يصـــحح عليهم الحجة ويلزمهم الحجة.

ولما كان التقدير : فالذين رجعوا إليه طوعاً في هذه الدار بعد هذا البيان والإظهار، وتركوا الجدال حجتهم ثابتة ولهم الرضـــا والنعيم المقيم، عطف عليه قوله مبتدئاً بالموصــول ليصــله بما يفهم التجدد والاســتمرار: {والذين يحاجّون} أي يوردون تشكيكاً على دينه الحق من الشبه ما يسمونه حججاً، ولعل الإدغام يشير إلى أن أهل هذا الضرب منافقون يلقون شبههم في خفاء فتشـربها قلوب أمثالهم فتصـير أهوية فيضـعف أمرها ويؤيده تقييد الدحوض بما عند الرب {في الله} أي في دين الملك الأعظم ليعيدوا الناس بعدما دخلوا في نور الهدى إلى ظلام الضلال.

ولما كـانـت إقـامـة الحجـة وإظهـار المعجزة أمراً ملزمـاً لجميع من بلغـه الاسـتجابة لوصـول الأمر إلى حد من البيان سـقط معه الجدال، قال معلماً إن ما كان في قوة الوجود يصـــح أن يطلق عليه أنه موجود، ومنبهاً بالجار على ذم هذا الجدال ولو قل زمنه: {من بعدما} ولما كان المقصـــود مطلق الاستجابة لا من مجيب معين قال: {استجيب له} أي استجاب له الرسول صلى الله عليه وسلم، وصار الناس كلهم بما يبين لهم مستجيبين بالقوة وإن لم يســـتجيبوا بالفعل، فإن الأمر قد ظهر غاية الظهور، ولم يبق إلا العناد، فهذه الجملة هي المراد والثمرة من قوله {لا حجة بيننا وبينكم}.

ولما كان من خالف ظاهره باطنه ضـعيف الحجة هلهل النسـج، قال معبراً بمبتدأ ثان مفرداً للحجة إشارة إلى ضعفها: {حجتهم} أي التي زعموها حجة، وأخبر عن هـذا المبتـدأ الثـاني ليكون هو وخبره خبراً عن الأول فقـال: {داحضـة} أي زالقة فهي ذاهبة غير ثابتة لأجل أنها في معارضـة ما ظهوره كالشمس بل أجلى، والعبارة لفتٌ إلى صفة الإحسان والعندية إشارة إلى شدة ظهور ما في حجتهم من الدحوض لأن {عند} للأمور الظاهرة المألوفة، وصـفة التربية للعطف والرفق، والإضـافة إلى ضـميرهم تقتضـي مزيد لطف وعطف، فهو إشـارة إلى أنها هباء منثور عند تدقيق النظر ولا سيما إذا كان بصـفة عزة وقهر وغضـب، فالمعنى أن دحوضـها ظاهراً جداً ولو عوملوا بصـفة الإحسـان ولو خصـوا بمزيد عطف وبر، فأين هذا مما لو قيل «لدى عليم قدير» فإنه يفهم أن دحوضـها لا يدركه إلا بليغ العلم تام القدرة، وهو مع ذلك غريب فيصـير فيه نوع مدح لحجتهم في الجملة: {عند ربهم} أي المحسن إليهم بإفاضـة العقل الذي جعلهم به في أحسن تقويم، فمهما جردوه عن الهوى، دلهم على أن جميع ما كانوا فيه باطل، وفيه إشـارة إلى أن أدنى ما يعذبهم به قطع إحسـانه عنهم، وأنه يظهر بطلان ما سـموه حجة لكل عاقل فيورثهم الخزي في الدنيا والعذاب في الأخرى على أن قطع إحسـانه هو عند التأمل أعلى العذاب {وعليهم} زيادة على قطع الإحسـان {غضـب} أي عقوبة تليق بحالهم المذموم ووصفهم المذؤوم ومنه الطرد، فهم مطرودون عن بـابـه، مبعودون عن جنـابـه، مهـانون بحجـابـه. ولمـا أفهم التعبير ب «على» ذمهم باسـتعلاء النقم عليهم لم يشـكل التعبير باللام، بل كان مفهماً

التهكم والملام فقال: {ولهم} أي مع ذلك {عذاب شديد *} لا تصلون إلى إدراك حقيقة وصفه، والآية مشيرة إلى الانتصار على أهل الردة وضربهم بكل شدة لسوء منزلتهم عنده كما كشف عنه الحال عند ندب الصديق إليهم بالقتال رضي الله عنه وأرضاه.

▲ تفسير الآيات رقم [17– 20]

{اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17)
يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18)
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)
مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20)}

ولما جزم سبحانه بما توعدهم بعد بعد أن حكم على حجتهم بالدحوض، وكان لا يجزم بالشيء إلا من كان نافذ الأمر محيط الحكم، نبه على أنه كذلك، مبيناً ما به يعرف ثبات الحجج ودحوضها المستلزم للغضب من الله المستعقب للعذاب، بقوله لافتاً القول إلى الاسم الأعظم تنبيهاً على عظمة المخبر عنه: {الله} أي الذي له جميع الملك {الذي} وأشار بالتعبير بالإنزال إلى أن المراد جملة الكتاب الذي لا مطعن في شيء منه فقال : {أنزل الكتاب} أي أوجد إنزاله هو لا غيره {بالحق} أي متلبساً على أكمل الوجوه

بالأمر الثابت الذي لا يبدل وبسـبب العمل الحق العام للأقوال والأفعال والعقائد لتعرف الحجج الثابتة من غيرها.

ولما كان الكتاب آمراً بالعدل قالاً وحالاً، وكان من محسوسات أوامره التقدير بالمقادير الضابطة، قال مخصصاً معبراً بأقومها إشارة إلى أن الكتاب أعدل عدالة عند العقل وأبين من الميزان للحس: {والميزان} أي الأمر به مريداً به عينه حقيقة وجميعها بل جميع العدل الذي تقدم في «لا عدل بينكم» مجازاً. ولما ثبت أن من جادل فيه كانت حجته داحضة إذا حوسب في الساعة فكان معذباً، وكان التقدير بما هدى إليه السياق تسلية له صلى الله عليه وسلم فيما يقاسي في إنفاذ ما أمر به من العدل في جميع أقواله وأفعاله وصبره على أذاهم: فمن فزع إلى الكتاب في المعاني وإلى الميزان في الأعيان فبنى أمره على تحقق العدل فيهما بهما فاز، ومن أهمل ذلك خاب فدحضت حجته وسقطت عند ربع منزلته وما يدريك لعل من جار يعاجل في الدنيا بالأخذ لكون أجله الذي سبقت الكلمة بتأخيره إليه قد حضر، عطف عليه قوله موجهاً الخطاب إلى أعلى الخلق تعظيماً للأمر: {وما يدريك} يا أكمل الخلق {لعل الساعة} التي أشير إليها في هذه الآية بقوله {عند ربهم} بعد أن صرح بها في غير آية. ولما كان تأنيث الساعة غير حقيقي لأنها بمعنى الوقت، ذكرها فقال: {قريب *} فأفهم ذلك أنها ذات الشدائد وأن شدائدها ذكور الشدائد وأن قربها أسرع من لمع البرق لما له من الثبات في الحق، أو ذكرها على إرادة السبب أي ذات قرب، أو على حذف مضافة أي مجيئها، وعلى كل حال فهو دال على تفخيمها أي إنك بمظنة

من قرب القيامة، فيقع بهم ما توعدوا به مما ينبغي الإشــــفاق منه، فيظهر فيها العدل بموازين القسط لجميع الأعمال ظهوراً لا يتمارى فيه أحد فيشرف من وفى، ويخزي من جار وجفا.

ولما تصور بهذا قربها مشاراً بالتعبير بلعل إلى أن حال المستعجل بها حال المترجي لشــيء محبوب وهو جهل منه عظيم، شـرع في تفصـيل الناس في أمرها فقال مشــيراً إلى أنه ينبغي للعاقل الاســتعداد لها للخلاص في وقتها لظهور دلائلها من غير بحث عن قربها أو بعدها، فإنه لا بد من كونها {يســتعجل بها} أي يطلب أن تكون قبل الوقت المضــروب لها {الذين لا يؤمنون بها} أي لا يتجدد لهم ذلك أصــلاً وهم غير مشــفقين منها ويظنون أنها الباطل، وكان الحال يقتضــــي أن يكونوا أنفر الناس منها لكن حملهم على ذلك تكذيبهم بها واستهزاؤهم وظنهم عدم كونها جهلاً ممن هم معترفون بقدرته وعلوه وعظمته.

ولما دل على جهل الكافرين، دل على أضــدادهم فقال: {والذين آمنوا} وإن كانوا في أول درجات الإيمان {مشفقون} أي خائفون خوفاً عظيماً {منها} لأن الله هداهم بإيمانهم، فصـــارت صـــدورهم معادن المعارف، وقلوبهم منابع الأنوار، فأيقنوا بما فيها من الأهوال الكبار، فخافوا للطافتهم أن يكونوا مع صـلاحهم من أهل النار. ولما قدم الإشـفاق تنبيهاً على أن العاقل ينبغي أن يخشى ما يمكن وقوعه، قال: {ويعلمون أنها الحق} إعلاماً بأنهم على بصيرة من أمرها، فهم لا يستعجلون بها، فالآية من الاحتباك: ذكر الاستعجال أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً، والإشفاق ثانيا دليلاً عل حذف ضده أولاً. قال

ابن كثير : وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصـــحاح والحســـان والسنن والمسانيد «أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت جهوري وهو في بعض أســفاره فناداه: يا محمد، فقال له النبي صـــلى الله عليه وسلم بنحو من صوته» هاؤم «فقال: متى الساعة؟ فقال رسول الله صـــلى الله عليه : » ويحك أنها كائنة فما أعددت لها ؟ «فقال : حب الله ورســوله، فقال : » أنت مع من أحببت «قال ابن كثير : فقوله في الحديث» المرء مع من أحـب «متواتر لا محـالـة، والغرض أنـه لم يجبـه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها- انتهى، وهو مشروط بالبراءة من أعداء الله بدليل قصـــة أبي طالب فإنه لم ينفعه حب الولي نفعاً تاماً بدون البراءة من العدو.

ولما أعلم بتعريف الحق أنها ثابتة كاملاً لا انقضـــاء له أصـــلاً ولا زوال لآثارها، أنتج قوله مؤكداً معظماً في مقابلة إنكارهم: {ألا إن الذين يمارون} أي يظهرون شــكهم في معرض اللجاجة الشـديدة طلباً لظهور شــك غيرهم من: مريت الناقة- إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لتستخرج ما عساه يكون فيها من اللبن {في الساعة} أي القيامة وما تحتوي عليه {لفي ضلال} أي ذهاب جائر عن الحق {بعيد *} جداً عن الصـــواب، فإن لها من الأدلة الظاهرة في العقل المؤيد بجازم النقل ما ألحقها حال غيابها بالمحسوسات لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

ولما كان حاصـــل أمر الفريقين أنه أظهر خوف الكافرين في غاية الأمن وأبطن أمن المؤمنين في أزعج خوف، وكان هذا عين اللطف، فأنه الوصول

إلى الشـــيء بضـــده، ويطلق على إيصـــال البر إلى الخلق على وجه يدق إدراكه، وكان أكثر ما يبطئ بالإنســـان في أمر الدين اهتمامه بالرزق، أنتج ذلك قوله: {الله} أي الذي له الأمر كله فهو يفعل ما يريد {لطيف} أي بالغ في العالم وإيقاع الإحســـان بإيصـــال المنافع، وصـــرف المضـــار على وجه يلطف إدراكه، قال القشـيري: اللطيف العالم بدقائق الأمور وغوامضـــها وهو الملطف المحســـن وكلاهما في صـفته سـبحانه صـحيح، وأكثر ما يسـتعمل اللطف في وصفه بالإحسان في الأمور الدينية، وقال الرازي في اللوامع: هو اسم مركب من علم ورحمة ورفق خفي {بعباده}- انتهى.

أما بالمؤمن فواضـــح، وأما الكافر فأقل لطفه به أنه لا يعاجله في الدنيا ولا يعذبه فوق ما يســـتحق في الأخرى، فالاســـم الأول تخويف والثاني ترجية ظاهرة باطنها تخويف، إشـــارة إلى ما ينبغي من الخوف والرجاء، وأن يكون الخوف أغلب.

ولما كان أظهر ما يكون هذا الوصـــف في الرزق، فإنه يوســـع على من لا حيلة له، ويحرم من هو في غاية القوة والقدرة، ويرفع الضـــعيف الجبان ويخفض القوي الشـــجاع، وكل ذلك على حســـب ما يعلم من بواطنهم ويزيد من أعمالهم، قال دالاً على ذلك استئنافاً لمن سأل عن كيفية اللطف: {يرزق من يشاء} مهما شاء على سبيل من السعة أو الضيق أو التوسط لا مانع له من شـيء من ذلك، ويمنع الرزق عمن يشـاء إذا علم فراغ أجله فيتوفاه إليه فأجهدوا أنفسـكم في طلب مرضـاته، ولا تلتفتوا إلى الخوف من الحاجة فإنه قد فرغ من تقدير الرزق ونهى عن المبالغة في طلبه.

ولما كان ذلك لا يستطيعه أحد سواه لما يحتاج إليه من القوة الكاملة والعزة الشاملة قال: {وهو القوي} أي فلا يضيق عطاؤه بشيء {العزيز *} فلا يقدر أحد أن يمنعه عن شيء.

ولما بين بهذا أن الرزق ليس إلا في يده، أتبعه ما يزهد في طلب رزق البدن، ويرغب في رزق الروح فقال على سبيل الاستئناف جواباً لمن يسأل: هل يكون الرزق بشدة السعي أو لا، وبدأ برزق الروح لشرفه: {من كان} أي من شريف أو دنيء {يريد} ولما كان مدار مقصد السورة على الدين، وكان الدين معاملة بين العبد وربه يقصد به ما يقصد بالحرث من حصول الفائدة، وكان الحرث من أجل أسباب المكاسب، وكانت الجنة قيعاناً غراسها ذكر الله، عبر عن مطلق الكسب بالحرث فقال: {حرث الآخرة} أي أعمالها التي تستتمي بها الفوائد. ولما كانت أسباب الحروث وثمراتها لا يقدر على تعطيلها وإنجاحها إلا الله، وكان الآدمي يظن لنفسه في ذلك قدرة، نبه سبحانه بالالتفات إلى أسلوب العظمة أن أمره سبحانه في ذلك لا يستطاع دفاعه ولا ممانعته ونزاعه: {نزد له} أي بعظمتنا التي لا يقدر أحد على تحويلها {في حرثه} بأن يعينه على الأعمال الصالحة بإنارة القلب وتصفية الحال وتهدئة السر ونفوذ البصر فيما يضر وينفع ويضاعف له ثوابها من العشر لكل حسنة إلى ما لا نهاية له ويغطيه، من الدنيا التي أعرض عنها ما قدر له إعانة له على ما أقبل عليه من الآخرة، وطوى ذكر الدنيا في هذا الشق تنبيهاً على أنها أحقر من أن تذكر مع أنه معلوم من آيات أخر {ومن كان} أي من قوي أو ضعيف {يريد حرث الدنيا} أي أرزاقها التي تطلب

بالكد والسـعي ويسـتنمي به مكتفياً به مؤثراً له على الآخرة {نؤته منها} ما قســمناه له، ولو تهاون به ولم يطلبه لأتاه، ولا ينال كل ما يتمناه ولو جهد كل الجهد، وأما الآخرة فكل ما نواه طالبها من أعمالها حصـــل له وإن لم يعمله {وما} أي والحال أن طالب الدنيا ما {له في الآخرة من نصـيب *} أصلاً، روى أبيّ بن كعب رضي الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بشـر هذه الأمة بالسـنا والرفعة والنصـرة والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصـيب» رواه أحمد وابن حبان في صـحيحه والحاكم- وقال: صـحيح الإسـناد- والبيهقي، وذلك لأن الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، وهذا تهاون بها فلم ينوها وهي أشــرف من أن تقبل على من أعرض عنها وتبعد عمن أقبل عليها حتى تهلكه في مهاويها، والآخرة تقبل على من أقبل عليها أضــعاف إقباله، وتنادي من أدبر عنها لينتهي عن غيه وضــلاله، قال الرازي في اللوامع: أهل الإرادة على أصـناف: مريد للدنيا ومريد للآخرة ومريد للحق جل وعلا، وعلامة إرادة الدنيا أن يرضــى في زيادة دنياه بنقص دينه والإعراض عن فقراء المسـلمين وأن تكون حاجاته في الدعاء مقصـورة على الدنيا، وعلامة إرادة الآخرة بعكس ذلك، وأما علامة إرادة الله سـبحانه وتعالى كما قال {ويريدون وجهه} طرح الكونين والحرية عن الخلق والخلاص من يد النفس- انتهى، وحاصـله أن يسـتغرق أوقاته في التوفية بحقوق الحق وحقوق الخلق وتزكية النفس لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار، بل امتثالاً لأمر الملك

الأعلى الذي لا إله غيره لأنه أهل لذلك مع اعترافه لأنه لن يقدر الله حق قدره.

▲ تفسير الآيات رقم [21– 24]

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21)
تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22)
ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23)
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24)}

ولما تقرر ما شرع من الدين مما وصى به جميع النبيين فبانت أصوله، واتضحت فروعه وفصوله، وظهرت غرائبه وأشرقت فرائده وآياته، وختم بالقانون الأعظم في أمر الدارين مما هو مشاهد ولا يقدر عليه غيره، فكان التقدير من غير خفاء: هذا شرع الله الذي ارتضاه لعباده وحكم بأن الإقبال عليه غير ضار بطلب الرزق وقدر الأرزاق فلا قدرة لأحد أن يزيد في رزقه

شـيئاً، ولا أن ينقص منه شـيئاً، أقبلوه؟ عادل ذلك بقوله تعالى مقرراً موبخاً منبهاً على ما هو الأصـل في الضـلال عن قوانينه المحررة وشـرائعه الثابتة المقررة: {أم لهم} أي لهؤلاء الذيب يروغون يميناً وشـمالاً {شـركاء} على زعمهم شـاركوا الشـارع الذي مضـى بيان عزته وظهور جلاله وعظمته في أمره حتى {شرعوا} أي الشركاء الذين طرقوا ونهجوا {لهم} أي للكفار، ويجوز أن يكون المعنى: شـرع الكفار لشـركائهم {من الدين} في العبادات والعادات التي تقرر في الأذهان أنه لا بد من الجزاء عليها لما جرت به عوائدهم عن محاسبة من تحت أيديهم وقدروا لهم من الأرزاق، وعدل عن أسلوب العظمة إلى الاسم الأعظم إشـارة إلى ما فيه مع العظمة من الإكرام الذي من جملته الحلم المقتضـي لعدم معاجلتهم بالأخذ فقال تعالى: {ما لم يأذن به الله} أي يمكن العباد منه بأمرهم به وتقريرهم عليه الملك الذي لا أمر لأحد معه، وقد محقت صفاته كل صفة وتضاءل عندها كل عظمة، فأقبلوا عليه دون غيره لكونه معتداً به، فإن كان كذلك فليسعدوا من أقبل على الدنيا التي هي محط أمرهم فلا يعرفون غيرها بأن يعطوه جميع مراده ويشـقوا من أراد الآخرة وسعى لها سعيها، ونسب الشـرع إلى الأوثان لأنها سببه كما كانت سبب الضـلال في قوله سـبحانه وتعالى حكاية عن إبراهيم خليله عليه الصـلاة والسـلام {رب إنهن أضـللن كثيراً من الناس} ويضـاف الشـركاء إليهم تارة لأنهم متخذوها وتارة إلى الله تعالى لأنهم أشـركوهم به، والعبارة تأتي بحسب المقام.

ولما علم قطعاً أن التقدير : فلولا أن هذه الأفعال التي يفعلونها من غير إذن منه لا تنقص من ملكه سبحانه شيئاً، ولا تضر إلا فاعلها مع أنها بإرادته، فكانت لمنعهم عنها لم يصلوا إلى شيء منها، عطف عليه قوله تعالى: {ولولا كلمة الفصل} التي سبق في الأزل أنها لا تكون ولما كان أمرهم هيناً، بني الفعل للمفعول، فقال: {لقُضي بينهم} أي بين الذين امتثلوا أمره فالتزموا شرعه وبين الذين اتبعوا ما شرعوه لمن سموهم شركاء في أقرب وقت ولكنه قد سبق القضاء في أزل الأزل بمقادير الأشياء وتحديدها على وجوه الحكمة، فهي تجري على ما حد لها لا تقدم لشيء منها ولا تأخر ولا تبدل ولا تغير، وستتكشف لكم الأمور وتظهر مخبآت المقدور فلا يقع الفصل إلا في الآخرة كما سبق به القضاء بأن يكون للمقسطين نعيم مقيم.

ولما كانوا ينكرون أن يقع بهم عذاب، قال مؤكداً عطفاً على ما قدرته بما أرشد إليه السياق: {وإن الظالمين} بشرع ما لم يأذن به الله من الشرك وغيره {لهم عذاب أليم *} أي مؤلم بليغ إيلامه.

ولما علم من هذا السياق كما ترى أنه لا بد من الفصل، وأن الفصل لا يكون إلا يوم القيامة، قال شارحاً للفصل بين الفريقين في ذلك اليوم مقبلاً على خطاب أعلى الخلق إشارة إلى أن هذا لا يفهمه حق الفهم ويوقن به حق الإيقان غيره صلى الله عليه وسلم، أو يكون المراد كل من يصح أن يخاطب إشارة إلى أن الأمر في الوضوح بحيث لا يختص به أحد دون أحد فقال: {ترى} أي في ذلك اليوم لا يشك فيه عاقل لما له من الأدلة الفطرية الأولية والعقلية والنقلية {الظالمين} أي الواضعين الأشياء في غير مواضعها

{مشفقين} أي خائفين أشد الخوف كما هو حال من يحاسبه من هو أعلى منه وهو مقصر. ولما كان الكلام في الذين ظلمهم صفة راسخة لهم، كان من المعلوم أن كل عملهم عليهم، فلذلك عبر بفعل الكسب مجرداً فقال: {مما كسبوا} أي عملوا معتقدين لأنه غاية ما ينفعهم {وهو} أي جزاءه ووباله الذي هو من جنسه حتى كأنه هو {واقع بهم} لا محالة من غير أن يزيدهم خوفهم إلا عذاباً في غمرات النيران، ذلك هو الخسران المبين، ذلك الذي ينذر به الذين ظلموا {والذين آمنوا} يصح أن يكون معطوفاً على مفعول {ترى} وأن يكون معطوفاً على جميع الجملة فيكون مبتدأ {وعملوا الصالحات} وهي التي أذن الله فيها غير خائفين مما كسبوا لأنهم مأذون لهم في فعله وهو مغفور لهم ما فرطوا فيه {في روضات الجنات} أي في الدنيا بما يلذذهم الله به من لذائد الأقوال والأعمال والمعارف والأحوال، وفي الآخرة حقيقة بلا زوال {لهم ما يشاؤون} أي دائماً أبداً كائن ذلك لكونه في غاية الحفظ والتربية والتنبيه على مثل هذا الحفظ لفت إلى صفة الإحسان، فقال: {عند ربهم} أي الذي لم يوصلهم إلى هذا الثواب العظيم إلا حسن تربيته لهم، ولطف بره بهم على حسب ما رباهم.

ولما ذكر ما لهم من الجزاء عظمه فقال: {ذلك} أي الجزاء العظيم الرتبة الجليل القدر {هو} لا غيره {الفضل} أي الذي هو أهل لأن يكون فاضلاً عن كفاية صاحبه، ولو بالغ في الإنفاق {الكبير *} الذي ملأ جميع جهات الحاجة وصغر عنده كل ما ناله غيرهم من هذا الحطام، فالآية كما ترى من

الاحتباك: أثبت الإشـــفاق أولاً دليلاً على حذف الأمن ثانياً، والجنات ثانياً دليلاً على حذف النيران أولاً.

ولما ذكر محلهم ومآلهم فيه، بين دوامه زيادة في تعظيمه فقال مبتدئاً: {ذلك} أي الأمر العظيم من الجنة ونعيمها، وأخبر عن المبتدأ بقوله: {الذي يبشـــر} أي مطلق بشـــارة عند من خفف وبشـــارة كثيرة عند من ثقل، وزاد البشارة بالاسم الأعظم، فقال لافتاً القول إليه: {الله} أي الملك الأعظم والعائد وهو «به» محذوف تفخيماً للمبشر به لأن السياق لتعظيمه بالبشارة وبجعلها بأداة البعد وبالوصـف بالذي، وذكر الاسـم الأعظم والتعبير بلفظ العباد مع الإضـافة إلى ضـميره سـبحانه فأفهم حذفه أن الفعل واقع عليه واصـل بغير واسطة إليه، فصار كأنه مذكور وظاهر ومنظور فقال: {عباده} ومن المعلوم أن كل أحد يعظم من اختصه لعبوديته.

ولما أشعر بالإضافة لصلاحهم، نص عليه بقوله: {الذين آمنوا} أي صدقوا بالغيب {وعملوا} تحقيقاً لإيمانهم {الصـالحات} وذلك الذي مضـى قلبه الذي ينذر به الذين كفروا. ولما كانت العادة جارية بأن البشـير لا بد له من حياء وإن لم يسأل لأن بشـارته قائمة مقام السؤال، قال كعب بن مالك رضـي الله عنه: لما أذن الله بتوبته علينا ركض نحوي راكض على فرس وسـعى سـاع على رجليه، فأوفى على جبل سلع ونادى: يا كعب بن مالك أبشر، فقد تاب الله عليك، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته خلعت له ثوبي، فدفعتهما إليه، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبســتهما- إلى آخر حديثه، كان كأنه قيل: ماذا تطلب على هذه البشـــارة،

فأمر بالجواب بقوله: {قل} أي لمن توهم فيك ما جرت به عادة المبشـرين: {لا أسئلكم} أي الآن ولا في مستقبل الزمان {عليه} أي البلاغ بشارة ونذارة {أجراً} أي وإن قل {إلا} أي لكن أســألكم {المودة} أي المحبة العظيمة الواسعة.

ولما كانوا يثابرون على صـلة الأرحام وإن بعدت والأنسـاب لذلك قال: {في القربى} أي مظروفة فيها بحيث يكون القربى موضــعاً للمودة وظرفاً لها، لا يخرج شيء من محبتكم عنها، فإنها بها يتم أمر الدين ويكمل الاجتماع فيه، فإنكم إذا وصلتم ما بيني وبينكم من الرحم لم تكذبوني بالباطل، ولم تردوا ما جئتكم به من ســعادة الدارين، فأفلحتم كل الفلاح ودامت الألفة بيننا حتى نموت ثم ندخل الجنة فتستمر ألفتنا دائماً أبدا وقد شـمل ذلك جميع القرابات ولم يكن بطن من قريش إلا وله صــلى الله عليه وســلم فيهم قرابة، رواه البخاري عن ابن عباس رضــي الله عنهما وقال: إلا أن تصــلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وروى البخاري عن ســعيد بن جبير: إلا أن تؤدوني في قرابتي أي تبروهم وتحسـنوا إليهم، قال ابن كثير: وقال السـدي: لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واســتأصــلكم وقطع قرن الفتنة، فقال له علي: أقرأت القرآن؟ قال: نعم قال: ما قرأت {قلا لا أســألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى} قال: وإنكم لأنتم هم، قال: نعم.

وعن العباس رضــي الله عنه قال: قلت: يا رسـول الله! إن قريشــاً إذا لقي بعضـهم بعضـاً لقوهم ببشـر حسـن وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، فغضـب

النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً وقال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله»، وعنه أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث، فإذا رأونا سكتوا، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودر عرق بين عينيه، ثم قال: «والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي» وعبر في المنقطع بأداة الاستثناء إعراقاً في النفي بالإعلام بأنه لا يستثني أجر أصلاً إلا هذه المودة إن قدر أحد أنها تكون أجراً، ويجوز أن تكون «إلا» بمعنى «غير» فيكون من باب:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم *** بهن فلول من قراع الكتائب

فمن كان بينه وبين أحد من المسلمين قرابة فهو مسؤول أن يراقب الله في قرابته تلك، فيصل صاحبها بكل ما تصل قدرته إليه من جميع ما أمره الله به من ثواب أو عقاب، فكيف بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن أبي ذر رضي الله عنه: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها هلك» وقال فيما رواه في الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم» قال الأصبهاني : ونحن الآن في بحر التكليف محتاجون إلى السفينة الصحيحة والنجوم الزارهة، فالسفينة حب الآل، والنجوم حب الصحب، فنرجو من الله السلامة والسعادة بحبهم في الدنيا والآخرة- والله أعلم.

ولما كان التقدير حتماً : فمن يقترف ســـيئة فعليه وزرها، ولكنه طوى لأن المقام للبشـارة كما يدل عليه ختم الآية مع سـابقه، عطف عليه قوله: {ومن يقترف} أي يكسـب ويخالط ويعمل بجد واجتهاد وتعمد وعلاج {حسـنة} أي ولو صـغرت، وصـرف القول إلى مظهر العظمة إشـارة إلى أنه لا يزيد في الإحســان إلا العظماء، وإلى أن الإحســان قد يكون سـبباً لعظمة المحســن فقال: {نزد} على عظمتنا {له فيها حســناً} بما لا يدخل تحت الوهم، ومن الزيادة أن يكون لـه مثل أجر من اقتدي بـه فيها إلى يوم القيامـة لا ينقص من أجورهم شـيئاً، وهذا من أجر الرسـل على إبلاغه إلى الأمم، فهم أغنياء عن طلـب غيره– هذا إن اهتدوا بـه، وإن دعـاهم فلم يهتدوا كـان لـه مثل أجورهم لو اهتدوا، فإن عدم اهتدائهم ليس من تقصيره، بل قدر الله وما شاء فعل.

ولما كانوا يقولون: إنا قد ارتكبنا من المســاوئ ما لم ينفع معه شـــيء، قال نافياً لذلك على سـبيل التأكيد معللاً مبيناً بصـرف القول إلى الاسـم الأعظم أن مثل ذلك لا يقدر عليه ملك غيره على الإطلاق: {إن الله} أي الذي لا يتعاظمه شيء {غفور} لكل ذنب تاب منه صاحبه أو كان يقبل الغفران وإن لم يتب منه إن شاء، فلا يصدن أحداً سيئة عملها عن الإقبال على الحسنة. ولما كان إثبات الحسنة فضـلاً عن الزياة عليها لا يصـح إلا مع الغفران، ولا يمكن أن يكون مع المناقشــة، فذكر ذلك الوصـف الذي هو أسـاس الزيادة، أفادها– أي الزيادة– بقوله: {شكور *} فهو يجزي بالحسنة أضعافها ويترك سائر حقوقه. ولما أثبت أنه أنزل الكتاب بالحق، ودل على ذلك إلى أن ختم

بنفي الغرض في البلاغ فحصل القطع بمضمون الخبر، كان كأنه قيل إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم: هل عملوا بما نبهناهم عليه مما يدعون أنهم عريقون فيه من صلة الرحم والإقبال على معالي الأخلاق باجتناب السئيات وارتكاب الحسنات، والبعد عن الكذب والمكابرة والبهتان، فاعتقدوا أنه حق وأنه وحي من عند الله بما قام على ذلك من البرهان: {أم يقولون} عناداً: {افترى} أي تعمد أن يقطع، وقدم ذكر الملك الأعظم تنبيهاً على أنه لا أفظع من الكذب على ملك الملوك مع فهم المفعول به من لفظ الافتراء فقال: {على الله} الذي أحاط بصفات الكمال، فله العلم الشامل بمن يتقول عليه والقدرة التامة على عقابه {كذباً} حين زعم أن هذا القرآن من عنده وأنه أرسله لهذا الدين.

ولما كان التقدير قطعاً: إنهم ليقولون ذلك وكان قولهم له قولاً معلوم البطلان لأنه تحداهم بشيء من مثله في زعمهم أن له مثلاً ليعلم صحة قولهم فلم يأتوا بشيء وهم وإن كانوا قد يدعون أنه يمنعهم من ذلك أنهم لا يستجيزون الكذب مبطلون لا يمتري عاقل في بطلان ذلك منهم أيضاً لأنهم لم يكلب منهم أن ينسوا ما يأتون به إلى الله على أنه لو طلب منهم ذلك لما كان عذراً، لأنه لا يتوقف أحد في أن الضرورات تبيح المحذورات، وأنه يرتكب أخف الضررين لدفع أثقلهما، فالإتيان بكلام يسر يسكن به فتن طوال وتنقطع به شرور كبار في غاية الحسن لأن الخطب فيه سهل، والأمر يسير، فكان ذلك وهم يرتكبون أكبر منه من قطع الأرحام وتفريق الكلمة لقتل النفوس وتخريب الديار وإتلاف الأموال دليلاً قاطعاً على أنهم إنما يتركونه عجزاً، تسبب عن قولهم هذا وهو نسبتهم له إلى تعمد الكذب أن قال

تعالى رداً عليهم ببيان كذبهم فيما قالوا ببيان ما له صلى الله عليه وسلم من نور القلب اللازم عن استقامة القول: {فإن} وأظهر الجلالة ولم يضمر تعظيماً للأمر بأن الختم لا يقدر عليه إلا المتصف بجميع صفات الكمال على الإطلاق من غير تقيد بقيد أصلاً فقال: {يشأ الله} أي الذي له الإحاطة بالكمال {يختم} وجرى على الأسلوب السابق في الخطاب لأعظم أولي الألباب فقال معبراً بأداة الاستعلاء: {على قلبك} فيمنعه من قبول روح هذا الوحي كما ختم على قلوب أعدائك من قبول ذلك، فتستوي حينئذ معهم في عدم القدرة على الإتيان بشيء منه وتصير لو قلت وقد أعاذك الله عما يقولون مما يصح نسبته إلى الباطل لم تقله إلا ومعه الأدلة قائمة على بطلانه كما أنهم هم كذلك لا يزالون مفضوحين بما على أقوالهم من الأدلة قائمة على بطلانها، وكان الأصل في الكلام: أم يقولون ذلك وأنهم لكاذبون فيه بسبب أن الله قد شرح صدرك وأنار قلبك فلا تقول قولاً إلا كانت الأدلة قائمة على صدقه، ولكنه ساق الكلام هكذا لأنه مع كونه أنصف دال على تعليق بالافتراء على ختم القلوب، وذلك دال قطعاً على أنهم هم الكاذبون لما على قلوبهم من الختم الموجب لأنها تقول ما الأدلة قائمة على كذبه.

ولما كان التقدير كما دل عليه السياق: ولكنه لم يشأ ذلك، بل شاء جعله قابلاً لروح الوحي واعياً لفنون العلم فهو يقذف بأنواع المعارف، ويهتف بتلقي أعاجيب اللطائف، ويثبت الله ذلك كله من غير مانع ولا صارف، عطف عليه قوله: {ويمحُ الله} أي الذي له جميع صفات الكمال {الباطل} وهو قولهم «افترى» وكل كذب فلا يدع له أثراً، وهنالك يظهر خسران

الجاحد وينقطع لسـان الألد المعاند، ولم يذكر أن آلة المحو الكلمات وغيرها اسـتهانة به بالإشـارة إلى أنه تارة يمحوه بنفسـه بلا سـبب وتارة بأضـعف الأسـباب وتارة بأعلى منه، وحذفت واوه في الخط في جميع المصـاحف مع أنه اسـتئناف غير داخل في الجواب لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً إيماء إلى أنه سبحانه يمحق رفعه وعلوه وغلبته التي دلت عليها الواو مطابقة بين خطه ولفظه، ومعناه تأكيداً للبشـارة يمحوه محواً لا يدع له عيناً ولا أثراً لمن ثبت لصولته: وصبر كما أمر لحولته، اعتماداً على صادق وعد الله إيماناً بالغيب وثقة بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وفي الحذف أيضاً تشبيه له بفعل الأمر إيماء إلى أن إيقاع هذا المحو أمر لا بد من كونه على أتم الوجوه وأحكمها وأعلاها وأتقنها كما يكون المأمور به من الملك المطاع، وأما الحق فإنه ثابت شديد مضاعف فلذا قال: {ويحق} أي يثبت على وجه لا يمكن زواله {الحق} أي كل من شـأنه الثبات لأنه أذن فيه وأقره، وعظم الحق وإحقاقه بذكر آلة الفعل فقال: {بكلماته} أي التي

{لو كان البحر مداداً} [الكهف: 109] الآية التي يقولون إن ما أتاهم من العبارة عنها افتراء للكذب، والحاصل أنه سبحانه أثبت صفاء لبه ونورانية قلبه وسـداد قوله وصـاب أمره، وظلام قلوبهم وبطلان أقوالهم إثباتاً مقروناً بدليله أما لأهل البصائر فبعجزهم عن معارضته، وأما للأغبياء فإبثات قوله ومحو قولهم.

ولما كانوا يعلمون أنه على حق وهم على باطل، وكان من أحاط علمه بشـيء قدر على ما يريده من ذلك الشـيء، بين ذلك بقوله معللاً على وجه

التأكيد لأن عملهم عمل من يظن أن الله لا يعلم مكرهم: {إنه عليم} أي بالغ {بذات الصدور *} أي ما هو فيها مما يعلمه صاحبه ومما لا يعلمه فيبطل باطله ويثبت حقه وإن كره الخلائق ذلك {ولتعلمن نبأه بعد حين} [ص: 88] ولقد صـــدق الله فأثبت ببركة هذا القرآن كل ما كان يقوله صـــلى الله عليه وسلم وأبطل بسيف هذا البرهان كل ما كانوا يخالفونه فيه، ومن أصدق من الله قيلاً.

▲ تفسير الآيات رقم [25- 30]

{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25)
وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26)
وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27)
وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29)
وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30)}

ولما أخبر بضـــلالهم وجزم بإبطال أعمالهم، رغبهم رحمة منه لهم في التوبة التي هي من الحق الذي يحقه ولو على أقل وجوهها بأن يقولوها بألســـنتهم ليبلغه ذلك عنهم، فإن قول اللســـان يوشــك أن يدخل إلى لا غيره أزلاً وأبداً {الذي يقبل التوبة} كلما شــــاء بالغة له أو متجاوزاً {عن عباده} الذين خالصـون لطاعته، سئل أبو الحسـن البوشـنجي عن التوبة فقال: إذا ذكرت الذنب فلا تجد له حلاوة في قلبك.

ولما كان القبول قد يكون في المسـتقبل مع الأخذ بما مضـــى قال: {ويعفو عن السـيئات} أي التي كانت التوبة عنها صـغيرة أو كبيرة وعن غيرها فلا يؤاخذ بها أن شــاء لأن التوبة تجب ما قبلها كما أن الإســلام الذي هو توبة خاصة يجب ما كان قبله.

ولما كانت تعدية القبول ب «عن» مفهمة لبلوغه ذلك بواســـطة، فكان ربما اشـــعر بنقص في العلم، أخبر بما يوجب التنزيه عن ذلك ترغيباً وترهيباً بقوله: {ويعلم} أي والحال أنه يعلم كل وقت {ما تفعلون} أي كل ما يتجدد لهم عمله سواء كان عن علم أو داعية شهوة وطبع سيئة كان أو حسنة وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب بالخطاب لافتاً للقول عن غيب العباد لأنه أبلغ في التخويف وقرأ الباقون بالعيب نسقاً على العباد وهو، أعم وأوضح في المراد فعفوه مع العلم عن سعة الحلم.

ولما رغب بالعفو زاد الإكرام فقال: {ويســـتجيب} أي يوجد بغاية العناية والطلب إجابة {الذين آمنوا} أي دعاء الذي أقروا بالإيمان في كل ما دعوه به أو شـــفعوا عنده فيه لأنه لولا إرادته لهم الإكرام بالإيمان ما آمنوا، وعدى

الفعل بنفسه تنبيهاً على زيادة بره لهم ووصلتهم به {وعملوا} تصديقاً لدعواهم الإيمان {الصـالحات} فيثيبهم النعيم المقيم {ويزيدهم} أي مع ما دعوا له ما لم يدعوا به ولم يخطر على قلوبهم ولما كان هذا وإن كان الأول فضـلاً منه أبين في الفضل قال تعالى: {من فضله} على أنه يجوز تعليقه بالفعلين.

ولما رغب الذين طالت مقاطعتهم في المواصـــلة بذكر إكرامهم إذا أقبلوا عليه، رهب الذين اســتمروا على المقاطعة فقال: {والكافرون} أي العريقون في هذا الوصف، الذين منعتهم عراقتهم من التوبة والإيمان {لهم عذاب شديد *} ولا يجيب دعاءهم، فغيرهم من العصـــاة لهم عذاب غير لازم التقيد بشــديد، والآية من الاحتباك: ذكر الاســتجابة أولاً دليلاً على ضــدها ثانياً والعذاب ثانياً دليلاً على ضـــده أولاً، وســـره أنه ذكر الحامل على الطاعة والصاد عن المعصية.

ولما كان المتبادر من الاســتجابة إيجاد كل ما ســألوه في هذه الدنيا على ما أرادوه وكان الموجود غير ذلك بل كان أكثر أهل الله مضـيقاً عليهم، وكانت الإجابة إلى كل ما يســـأل بأن يكون في هذه الدار يؤدي في الغالب إلى البطر المؤدي إلى الشـــقاء فيؤدي ذلك إلى عكس المراد، قال على ســـبيل الاعتذار لعباده وهو الملك الأعظم مبيناً أن اســتجابته تارة تكون كما ورد به الحديث لما ســألوه، وتارة تكون بدفع مثله من البلاء وتارة تكون بتأخيره إلى الدار الآخرة {ولو} أي هو يقبل ويســتجيب والحال أنه لو {بسـط} ولما كان هذا المقام عظيماً لاحتياجه إلى الإحاطة بأخلاقهم وأوصـافهم وما يصـلحهم ويفســدهم والقدرة على كل بذل ومنع، عبر بالاســم الأعظم فقال: {الله} أي

الملك الأعظم الجامع لجميع صـفات الكمال تنبيهاً على عظمة هذا المقام: {الرزق} لهم- هكذا كان الأصـل، لكنه كره أن يظن خصـوصـيته ذلك بالتائبين فقيل: {لعباده} أي كلهم التائب منهم وغيره بأن أعطاهم فوق حاجتهم {لبغوا في الأرض} أي لصـاروا يريدون كل ما يشـتهونه، فإن لم يفعل سـعوا في إنفاذه كالملوك بما لهم من المكنة بكل طريق يوصـلهم إليه فيكثر القتل والسلب والنهب والضرب ونحو ذلك من أنواع الفساد، وقد تقدم في النحل من الكلام على البغي ما يتقن به علم هذا المكان.

ولما كان معنى الكلام أنه سبحانه لا يبسط لهم ذلك بحسب ما يريدونه، بنى عليه قوله سبحانه: {ولكن ينزِّل} أي لعباده من الرزق {بقدر} أي بتقدير لهم جملة ولكل واحد منهم لا يزيد عن تقدير دره ولا ينقصها {ما يشاء} من الماء الذي هو أصـل الرزق والبركات التي يدبر بها عباده كما اقتضـته حكمته التي بنى عليها أحوال هذه الدرر.

ولما كان أكثر الناس يقول في نفسـه: لو بسـط إليّ الرزق لعملت الخير، وتجنبت الشر، وأصلحت غاية الإصلاح، قال معللاً ما أخبر به في أسلوب التأكيد: {إنه} وكان الأصـل: بهم، ولكنه قال: {بعباده} لئلا يظن أن الأمر خاص بمن وسـع عليهم أو ضـيق عليهم: {خبير بصـير *} يعلم جميع ظواهر أمورهم وحركاتهم وانتقالاتهم وكلامهم وبواطنها فيقيم كل واحد فيما يصلح له من فساد وصلاح وبغي وعدل، ويهيئ لكل شيء من ذلك أسبابه.

ولما ذكر إنزال الرزق على هذ المنوال، وكان من الناس ممن خذله الإضلال من يقول: إن ما الناس فيه من المطر والنبات وإخراج الأقوات إنما هو عادة

الدهر بين أنه سبحانه هو الفاعل لذلك بقدرته واختياره بما هو كالشمس من أنه قد يحبس المطر عن إبانه وإعادته في وقته وأوانه، حتى ييأس الناس منه ثم ينزله إن شــاء، فقال معبراً بالضــمير الذي هو غيب لأجل أن إنزال الغيث من مفاتيح الغيب: {وهو} أي لا غيره قادر على ذلك فإنه هو {الذي ينزل الغيث} أي المطر الذي يغاث به الناس أي يجابون إلى ما ســـألوا ويغاثون ظاهراً كما ينزل الوحي الذي يغاثون به ظاهراً وباطناً.

ولما كان الإنزال لا يســتغرق زمان القنوط، أدخل الجار فقال: {من بعد ما قنطوا} أي يئســوا من إنزاله وعملوا انه لا يقدر على إنزاله غيره، ولا يقصــد فيه سواه، ليكون ذلك أدعى لهم إلى الشكر وينشره- هكذا كان الأصل ولكنه لما بين أنه غيث قال بياناً لأنه رحمةً، وتعميماً لأثره من النبات وغيره: {وينشر رحمته} أي على السهل والجبل فينزل من السحاب المحمول بالريح من الماء ما يملأ الأرض بحيث لو اجتمع عليه الخلائق ما أطاقوا حمله، فتصــبح الأرض ما بين غدران وأنهار، ونبات ونجم وأشــجار، وحب وثمار، وغير ذلك من المنافع الصـــغار والكبار، فلله ما أعلى هذه القدرة الباهرة والآية الظاهرة، فيخرج من الأرض التي هي من صـــلابتها تعجز عنها المعاول نجماً هو في لينه ألين من الحرير، وفي لطافته ألطف من النســيم، ومن ســوق الأشــجار التي تنثني فيها المناقير أغصــاناً ألطف من ألســنة العصافير، فما أجلف من ينكر إخراجه الموتى من القبور، أو يحيد من ذلك بنوع من الغرور.

ولما أنكر عليهم فيما مضى اتخاذ ولي من دونه بقوله تعالى {أم اتخذوا من دونه أولياء} وأثبت أنه هو الولي، وتعرف إليهم بآثاره التي حوت أفأنين أنواره، وكانت كلها في غاية الكمال موجبة للحمد المتواتر المنوال، قال: {وهو} أي وحده لا غيره {الولي} أي الذي لا أحد أقرب منه إلى عباده في شيء من الأشياء {الحميد *} أي الذي استحق مجامع الحمد مع أنه يحمد من يطيعه فيزيده من فضله ويصل حبله دائماً بحبله.

ولما كان ما مضى من بسط الرزق وقبضه، وإنزال الغيث وحبسه. من الآيات العظمية، عمم بذكر ما ذلك بعض منه، وهو دال على جميع ما ختم به الأية السالفة من الحمد الذي هو الاتصاف بجميع صفات الكمال فقال عاطفاً على ما تقديره: فذلك من آيات الله الدالة على قدرته واختياره وإنه هو الذي يحيي هذا الوجود بالمعاني من روح الوحي وغيره تارة والأعيان من الماء وغيره أخرى: {ومن آياته} العظيمة على ذلك وعلى استحقاقه لجميع صفات الكمال {خلق السماوات} التي تعلمون أنها متعددة بما ترون من أمور الكواكب {والأرض} أي جنسها على ما هما عليه من الهيئات وما اشتملا عليه من المنافع والخيرات {وما بث} أي فرق بالأبدان والقلوب على هذا المنوال الغريب من الحس والحركة بالاختيار مع التفاوت في الأشكال، والقدور والهيئات والأخلاق وغير ذلك من النقص والكمال.

ولما كانت الأرض بناء والسماء سقفه، فمن كان في أحدهما صح نسبته إلى أنه في كل منهما: الأسفل بالإقلال والأعلى بالإظلال قال تعالى: {فيهما}

أي السـماوات والأرض ولا سـيما وقد جعل لكل منهما تسـبباً في ذلك بما أودعهما من الجواهر وأنشأ عنهما من العناصر.

ولما كانت الحياة التي هي سبب الانتشار والدب ربنا أورثت صاحبها كبراً وغلظاً في نفسه نظن أنه تام القدرة، أنث تحقيراً لقدرته وتوهية لشأنه ورتبته فقلل {من دابة} أي شـيء فيه أهلية الدبيب بالحياة من الإنس والجن والملائكة وسائر الحيوانات على اختلاف أصنافهم وألوانهم وأشكالهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم أقطارهم ونواحيهم وأصـقاعهم ومن نظر إلى صـنائعه سبحانه تيقن وجوده وقدرته واختياره، ثم إذا أمعن في النظر وتابع التدبر في الفكر وصل إلى معرفة الصانع بأسمائه وصفاته وما ينبغي له ويستحيل عليه فيحمده بمحامدة التي لا نهاية لها ويسبحه بسبحانه ثم إن أمعن سما إلى الوقوف على حكمة ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب.

ولما كنا عالمين بأن من أوجد أشياء على ضم أشتاتهم متى شاء مع نقص التصـرف والعجز في التقلب كنا جديرين بالعلم القطعي بمضـمون قوله تعالى: {وهو} أي بما له من صـفات العظمة التي يعلم الظاهر معها، وما غاب عنا أكبر {على جمعهم} أي هذه الدواب من ذوي العقول وغيرهم بعد تفرقهم بالقلوب والأبدان بالموت وغيره من الحظوظ والأهواء وغير ذلك.

ولما كان الجمع لا بد منه، عبر بأداة التحقق فقال معلقا بجمع: {إذا} وحقق النظر إلى البعث فعبر بالمضارع فقال: {يشاء قدير *} أي بالغ القدرة كما كان بالغ القدرة عند الإيجاد من العدم بجمعهم في صـعيد واحد يسـمعهم الداعي وينفذهم البصر، ولما ذكرهم سبحانه بنعمه، وكان السياق لتعداد ما

ناسب مقصود هذه السورة منها، كان الفكر جديراً بأن يخطر له ما في الدنيا من الأمراض والأنكاد والهموم والفهوم بالإشقاء فيها والإسعاد، قال شافياً لعي سؤاله عن ذلك ببيان ما فيه من نعمته على وجه دال على تمام قدرته، عاطفاً على ما هو مضمون ما مضى بما تقديره: فهو الذي خلقكم ورزقكم وهو المتصرف فيكم بعد بثكم بالعافية والبلاء تمام التصرف، فلا نعمة عندكم ولا نقمة إلا منه، ولا يقدر أصحابها على ردها ولا رد شيء مها فهو وليكم وحده {وما أصابكم} واجههم بالخطاب زيادة في تقريب الطائع وتبكيت العاصي، وعم بقوله: {من مصيبة} وأخبر عن المبتدأ بقوله: {فبما} أي كائن بسبب الذي- هذا على قراءة نافع وابن عامر، وإثبات الفاء في الباقين زيادة في إيضاح السببية فقرأوا «فبما» لتضمن المبتدأ الشرط أي فهو بالذي.

ولما كانت النفوس مطبوعة على النقائض، فهي لا تنفك عنها إلا بمعونة من الله شديدة، وكان عملها كله أو جله عليها، فعبر بالفعل المجرد إشارة إلى ذلك فقال: {كسبت}.

ولما كان العمل غالباً باليد قال: {أيديكم} أي من الذنوب، فكل نكد لاحق إنما هو بسبب ذنب سابق أقله التقصير، روى ابن ماجة في سننه وابن حبان في صحيحه- والحاكم واللفظ له- وقال: صحيح الإسناد- عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله:

»لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» فالآية داعية لكل أحد إلى المبادرة عند وقوع المصيبة إلى محاسبة النفس ليعرف من أين جاء تقصيره، فيبادر إلى التوبة عنه والإقبال

على الله لينقذ نفســـــه من الهلكة، وفائدة ذلك وإن كان الكل بخلقه وإرادته إظهار الخضوع والتذلل واستشعار الحاجة والافتقار إلى الواحد القهار، ولولا ورود الشـــريعة لم يوجد ســـبيل إلى الهدى، ولا إلى هذه الكمالات البديعية، ومثل هذه التنبيهات ليســـتخرج من العبد ما أودع في طبيعته وركز في غريزته كغرس وزرع سـبق إليه ماء وشـمس لاسـتخراج ما أودع في طبيعته من المعلومات الإلهية والحكم العلية.

ولما ذكر عدله، أتبعه فضله فقال: {ويعفو عن كثير *} ولولا عفوه وتجاوزه لما ترك على ظهرها من دابة ويدخل في هذا ما يصـيب الصـالحين لإنالة درجات وفضـائل وخصـوصـيات لا يصـلون إليها إلا بها لأن اعمالهم لم تبلغها فهي خير واصـل من الله لهم، وقيل لأبي سـليمان الداراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أســـاء إليهم؟ قال: لأنهم علموا أن الله ابتلاهم بذنوبهم- وقرأ هذه الآية.

▲ تفسير الآيات رقم [31- 35]

{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِـــيرٍ (31)

وَمِنْ آَيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32)

إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33)

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35)}

ولما كان من يعاقب بما دون الموت ربما ظن أنه عاجز قال: {وما أنتم بمعجزين} لوأريد محقكم بالكلية ولا في شيء أراد سبحانه منكم كائناً ما كان. ولما كان من ثبت قدرته على محل العلو بخلقه وما أودعه من المصنوعات أجدر بالقدرة على ما دونه، أشار إلى ذلك بقوله: {في الأرض} ولما كان الكلام في العقوبة في الدنيا قبل الموت، ولم يكن أحد يدعي فيها التوصل إلى السماء، لم يدع داع إلى ذكرها بخلاف ما مضى في العنكبوت. ولما نفى امتناعهم بأنفسهم، وكان له سبحانه من العلو ما تقصر عنه العقول، فكان كل شيء دونه، فكان قادراً على كل شيء قال: {وما لكم} أي عند الاجتماع فكيف عند الانفراد.

ولما كانت الرتب في غاية السفول عن رتبته والتضاؤل دون حضرته، أثبت الجار منبهاً على ذلك فقال: {من دون الله} أي المحيط بكل شيء عظمة وكبراً وعزة، وعم بقوله: {من ولي} أي يكون متولياً لشيء من أموركم بالاستقلال {ولا نصير *} يدفع عنكم شيئاً يريده سبحانه بكم.

ولما دل سبحانه على تمام قدرته واختياره وختم بنفي الشريك اللازم للوحدانية التي اعتقادها أساس الأعمال الصالحة، دل عليها بأعظم الآيات عندهم وأوضحها في أنفسهم وأقربها إلى إفهامهم لما لهم من الإخلاص عندها فقال تعالى: {ومن آياته} أي الدالة على تمام قدرته واختياره ووحدانيته وعظيم سلطانه تسخيره وتذليله لسير الفلك فيه حاملة ما لا يحمله غيرها، وهو معنى قوله: {الجوار} أي من السفن، وهي من الصفات التي جرت مجرى الأعلام، ودل على الموصوف ما بعده فلذلك حذف لأن القاعدة أن الصفة

إذا لم تخص الموصـــوف امتنع حذفه فنقول : مررت بمهندس، ولا تقول : مررت بماشٍ- إلا بقرينة كما هنا.
ولما كانت ثقيلة في أنفسها، وكان يوضع فيها من الأحمال ما يثقل الجبال، وكان كل ثقيل ليس له من ذاته إلا الغوص في الماء، كانت كأنها فيه لا عليه لأنها جديرة بالغرق فقال تعالى محذراً من سطواته متعرفاً بجليل نعمته معرفاً بحقيقة الجواري: {في البحر كالأعلام *} أي الجبال الشاهقة بما لها من العلو في نفسها عن الماء ثم بما يوصلها وما فيه من الشراع عليها من الارتفاع، وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم.
ولما كان كأنه قيل: وما تلك الآيات؟ ذكر ما يخوفهم منها ويعرفهم أن جميع ما أباحهم إياه من شؤونها إنما هو بقدرته واختياره فقال: {إن يشاء} أي الله الذي حملكم فيها على ظهر الماء آية بينة سقط اعتبارها عندكم لشدة الفكر لها {يسكن الريح} التي يسيرها وانتم مقرّون أن أمرها ليس إلا بيده {فيظللن} أي فتسبب عن ذلك أنهن يظللن أن يقمن ليلاً كان أو نهاراً، ولعله عبر به مع أن أصله الإقامة نهاراً لأن النهار موضع الاقتدار على الأشياء وهو المنتظر عند كل متعسر للسعي في إزالة عسره وتيسر أمره {رواكد} أي ثوابت مستقرات من غير سير {على ظهره} ثباتاً ظاهراً بما دل عليه إثبات اللامين وفتح لامه الأولى للكل.
ولما كان ذلك موضع إخلاصهم الدعوة لله والإعراض عن الشركاء فإنهم كانوا يقولون في مثل هذا الحال : اخلصوا فإن آلهتكم- أي من الأصنام وغيرها من دون الله- لا تغني في البحر شيئاً، وكانوا ينسبون ذلك شركاء

مع طلوعهم إلى البر كانوا بمنزلة من لا يعد ذلك آية أصـــــلاً، فلذلك أكد قوله: {إن في ذلك} أي ما ذكر من حال السفن في سيرها وركودها مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه بدليل ما للناس كافة من الإجماع على التوجه في ذلك إليه خاصة والانخلاع مما سواه {لآيات} أي على أن إحاطته سبحانه بجميع صفات الكمال أمر مركوز في العقول ثابت في الفطر الأولى مما لا يصـــد عنه إلا الهوى، وعلى أن بطلان أمر ما دونه لذلك هو من الظهور بمكان لا يجهل.

ولما كانوا يتمادحون بالصـــبر على نوازل الحدثان والشـــكر لكل إحســـان ويتذامون بالجزع والكفران، وكان ذلك يقتضـــي ثباتهم على حال واحد فإن كان الحق عليهم لمعبوداتهم فرجوعهم عنها عند الشـــدائد مما لا ينحو نحوه ولا يلتفت لفتة أحد من كمل الرجال الذين يجانبون العار والاتســـام بمســـيم الإغمار، وإن كان الحق كما هو الحق لله فرجوعهم عنه عند الرخاء بعد إنعامه عليهم بإنجائهم من الشـــدة لا يفعله ذو عزيمة، قال مشـــيراً إلى ذلك بصيغتي المبالغة: {لكل صبار} أي في الشدة {شكور *} أي في الرخاء وإن كثر مخالفوه، وعظم نزاعهم له، وهاتان صـــفتا المؤمن المخلص الذي وكل همته بالنظر في الآيات فهو يســـتملي منها العبر ويجلو بها من البصـــيرة عين البصر.

ولما نبه بهذا الاعتراض بين الجزاء ومعطوفه على ما فيه من دقائق المعاني في جلائل المباني، قال مكملاً لما في ذلك من الترغيب في صورة الترهيب: {أو} أي أو أن يشـاء في كل وقت أراده، واسـند الإيباق إلى الجواري تأكيداً

لإرادة العموم في هلاك الركاب فقال: {يوبقهن} أي يهلكهن بالإغراق بإرسال الريح وغير ذلك من التباريح حتى كأنهن بعد ذلك العلو في وقبه أي حفره، وطاق في الماء وقعره، وقد تقدم تحقيق معنى «وبق» بجميع تقاليبه في سورة الكهف، ومنه أن وبق كوعد ووجل وورث وبوقاً وموبقاً: هلك، والموبق كمجلس: المهلك وكل شيء حال بين شيئين لأن الوقبة تحول بين ما فيها وبين غيره، ومنه قيل للموعد: موبق، وأوبقه: حبسه أو أهلكه.

ولما كان الإهلاك لهن إهلاكاً للركاب، قال مبيناً أنهم المقصودون مجرداً الفعل إشارة إلى أن ابن آدم لما طبع عليه من النقائص ليس له من نفسه فعل خال عن شوب نقص حثاً له على اللجوء إلى الله في تهذيب نفسه وإخلاص فعله: {بما كسبوا} أي فعلوا من المعاصي بجدهم فيه واجتهادهم.

ولما كان التقدير تفصيلاً للإيباق: فيغرق كل من فيهن إن شاء ويغرق كثيراً منهم إن شاء عطف عليه قوله: {ويعف} أي إن يشاء {عن كثير *} أي من الناس الذين في هذه السفن الموبقه، فينجيهم بعوم أو حمل عى خشبة أو غير ذلك، وإن يشأ يرسل الريح طيبة فينجيها ويبلغها أقصى المراد إلى غير ذلك من التقادير الداخلة تحت المشيئة، فالفعل كما ترى عطف على يوبق، وعطف بالواو لأنه قسم من حالي الموبقة، وهو بمعنى ما ورى عن أهل المدينة من نصب «يعفو» بتقدير «إن» ليكون المعنى: يوقع إيباقاً وعفواً.

ولما كان هذا كله على صورة الاختبار لن يستبصر فيدوم إخلاصه، ومن يرجع إلى العمى فلا يكون خلاصه، قال مبيناً بالنصب للصرف عن العطف على شيء من الأفعال الماضية لفساد المعنى لكونها في حيز الشرط،

فيصير العلم أيضاً مشروطاً: {ويعلم الذين يجادلون} أي عند النجاة بالعفو. ولما كان مقام العظمة شـــديد المنافاة للمجادلة، لفت القول إليه فقال: {في آياتنا} أي هذه التي لا تضـــاهي عظمتها ولا تقايس جلالتها وعزتها رجوعاً إلى ما كانوا عليه من الشـرك والنزاع في تمام القدرة بإنكار البعث، ومن واو الصرف يعرف أن مدخولها مفرد في تأويل المصدر لأن النصب فيها بتقدير أن فيكون مبتدأ خبره ما يدل عليه الســـياق فالتقدير هنا: وعلمه ســـبحانه بالمجادلين عند هذا حاصل، والتعبير عنه بالمضارع لإفادة الاستمرار لتجدد تعلق العلم بكل مجادل كلما حصــــل جدال، وقراءة نافع وابن عامر بالرفع دالة على هذا، فإن التقدير: وهو يعلم- فالرفع هنا والنصـــب ســـواء، قال الرضي في شرح قول ابن الحاجب في نواصب الفعل: والفاء- أي ناصبة- بشـــرطين: الســـببية، والثاني أن يكون قبلها أحد الأشـــياء الثمانية، والواو الواقعتين بعد الشـرط قبل الجزاء نحو أن تأتني فتكرمني أو تكرمني أنت، أو بعد الشرط والجزاء: إن تأتني إنك فأكرمك أو وأكرمك، وذلك لمشابهة الشرط في الأول والجزاء في الثاني النفي، إذ الجزاء مشروط ووجوده بوجود الشرط، ووجود الشـــرط مفروض، فكلاهما غير موصـــوفين بالوجود حقيقة، وعليه حمل قوله تعالى {ويعلم الذين} في قراءة النصـــب، ثم قال: وكذا يقول في الفعل المنصوب بعد واو الصرف أنهم لما قصدوا فيها معنى الجمعية نصبوا المضـــارع بعدها ليكون الصـــرف عن ســـنن الكلام المتقدم مرشـــداً من أول الأمر أنها ليســـت للعطف فهي إذن إما واو الحال وأكثر دخولها على الاســـمية فالمضـــارع بعدها في تقدير مبتدأ محذوف الخبر وجوباً، فمعنى قم

وأقوم : قم وقيامي ثابت : أي في حال ثبوت قيامي، وأما بمعنى مع وهي لا تدخل إلا على الاسـم قصـدوا ها هنا مصـاحبة الفعل للفعل منصـوباً ما بعدها، فمعنى قم وأقوم: قم مع قيامي كما قصدوا في المفعول معه مصاحبة الاسم للاسم فنصبوا ما بعد الواو، ولو جعلنا الواو عاطفة للمصدر متصيد من الفعل قبله النجاة، أي لم يكن منك قيام وقيام مني، لم يكن فيه نصوصية على معنى الجمع، والأولى في قصد النصوصية في شيء على معنى أن يجعل على وجه يكون ظاهراً فيما قصدوا النصوصية عليه، وإنما شرطوا في نصب ما بعد فاء السببية كون ما قبلها أحد الأشياء المذكورة أي الأمر والنهي والنفي والاستفهام والتمني والعرض والتحضيض والرجاء لأنها غير حاصلة المصادر فتكون كالشرط الذي ليس بمتحقق الوقوع، ويكون ما بعد الفاء كجزائها ثم حملوا ما قبل واو الجمعية في وجوب كون أحد الأشياء المذكورة على ما قبل فاء السببية التي هي أكثر استعمالاً من الواو في مثل هذا الموضع أعني في انتصاب المضارع بعدها، وذلك لمشابهة الواو للفاء في أصل العطف، وفي صرف ما بعدهما عن سنن العطف لقصد السببية في إحداهما والجمعية في الأخرى، ولقرب الجمعية من التعقب الذي هو لازم السـببية ثم قال: وكذا ربما لم يصـرف بعد واو الحال قد تدخل على المضارع المثبت كما ذكرنا في باب الحال، نحو قمت وأضرب زيداً أي وأنا أضرب.

ولما كان علم القادر بالمعصية موجباً لعذاب من عصاه، كان كأنه قيل: قد خسر من فعل ذلك فيا ليت شعري ما يكون حالهم؟ أجاب بقوله: {ما لهم

من محيص *} أي محيد ومفر أصــلاً عن عذابه، ولا بشـــيء يسـير، وإن تأخر في نظركم إيقاع العذاب بهم فإن عذابه سبحانه منه ما هو باطن وهو الاســـتدراج بالنعم وهذا لا يدركه إلا أرباب القلوب المقربون لدى علام الغيوب، ومنه ما هو ظاهر، ويجوز أن يكون «الذين» فاعل «يعلم»، وحينئذ تكون هذه الجملة في محل نصب لسدها مسد مفعول العلم.

▲ تفسير الآيات رقم [36– 39]

{فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِـــبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)}

ولما علم أن جميع النعم من الغيث وأثاره، ومن نشـــر الدواب براً وبحراً بمعرض من الزوال وهو عظيم التقلبات هائل الأحوال سبب عنه قوله محقراً لدنياهم وما فيها من الزهرة بسرعة الذبول والزوال، والأفوال والارتحال، ولهم بأنها مع ما ذكر لا قدرة لهم على شيء منها إلا يموت يمن عليهم بها، وأما هم فقوم ضـعفاء لا قدرة لهم على شـــيء وليس لهم من أنفسـهم إلا العجز، فلو عقلوا لعلموا ولو علموا لعملوا عمل العبيد، وأطاعوا القوي الشـديد: {فما أوتيتم} أي أيها الناس {من شـــيء} أي من النعم الظاهرة، وأجاب «ما» الشرطية بقوله: {فمتاع الحياة الدنيا} أي القريبة الدنيئة لا نفع فيه لأحد إلا

مدة حياته، وذلك جدير بالإعراض عنه وعما يسـببه من الأعمال إلا ما يقرب إلى الله {وما} أي والذي، ولفت الكلام عن مظهر العظمة إلى أعظم منها بذكر الاسم الجامع للترغيب في ذكر آثار الأوصاف الجمالية والترهيب من آثار النعوت الجلالية فقال: {عند الله} أي الملك الأعظم المحيط بكل شيء قدرة وعلماً من نعم الدارين {خير} أي في نفسه وأشد خيرية من النعم الدنيوية المحضـة لانقطاع نفعها. ولما كانت النعم الدنيوية قد تصـحب الإنسان طول عمره فتسبب بذلك إلى البقاء قال: {وأبقى} أي من الدنيوية لأنه لا بد من نزعها منه بالموت، ولذلك قيد بالحياة فلا تؤثر الفاني على خساسته على الباقي مع نفاسته.

ولما بين ما لها من النفاسة ترغيباً فيها، بين من هي له فقال: {للذين آمنوا} أي أوجدوا هذه الحقيقة {وعلى} أي والحال أنهم صدقوها بأنهم على، ولفت القول إلى صفة الإحسان لأنها نسب شيء للمتوكل، وأحكم الأمر بالإضافة إشارة إلى «إنه إحسان» هو في غاية المناسبة لحالهم فقال: {ربهم} أي الذي لم يروا إحساناً قط إلا منه وحده بما رباهم من الإخلاص له {يتوكلون} أي يحملون جميع أمورهم عليه كما يحمل غيرهم متاعه على من يتوسم فيه قوة على الحمل ولا يلتفتون في ذلك إلى شـيء غيره أصـلاً لينتفي عنهم بذلك الشرك الخفي كما انتفى بالإيمان الشرك الجلي، والتعبير بأداة الاستعلاء تمثيل للإسـناد والتفويض إليه بالحمل عليه لأن الحمل أبين في الراحة، وأظهر في البعد من الهم والمشقة، ولعل التعبير بالمضارع للتخفيف في أمر التوكل بالرضى بتجديده كلما تجدد مهم، ومن كان كذلك كان الله كافيه كل

ملم، فيشـــاركون أهل الدنيا في نيل نعمها ويفارقونهم في أن ربهم ســبحانه يجعلها على وجه لا حســـــاب عليهم فيها، بل ولهم فيها الأجور الموجبة للنعمة والحبور، وفي أنه يجعلها كافية لمهماتهم وســـادّة لخلاتهم، ويزيدهم الباقيات الصالحات التي يتسبب عنها نعيم الآخرة بعد راحة الدنيا.

ولما كان كل من الإيمان والتوكل امراً باطناً فكان لا بد من دلائله من ظواهر الأعمال، وكانت تخليات من الرذائل وتحليات بالفضـــائل وكانت التخليات لكونها درء للمفاسد مقدمة على التحليات التي هي جلب للمصالح قال عاطفاً على {الذين}: {والذين يجتبنون} أي يكلفون أنفســهم أن يجابوا {كبائر الإثم} أي جنس الفعال الكبار التي لا توجد إلا ضـــمن أفرادها ويحصـــل بها دنس للنفس، فيوجب عقاباً لها مع الجســـم، وعطف على {كبائر} قوله: {والفواحش} وهي ما أنكره الشرع والعقل والطبع التي هي آيات الله الثلاث التي نصبها حجة على عباده وله الحجة البالغة فاستعظم الناس أمرها ولو أنها صغائر لدلالتها على الإخلال بالمروءة كسرقة لقمة والإقرار على المعصـية من شـيخ جليل القدر لمن لا يخشـاه ولا يرجوه، وقرأ حمزة والكسائي: كبير، وهو للجنس، فهو بمعنى قراءة الجمع أو هي أبلغ لشمولها المفرد. ولما ذكر ما قد تقود إليه المطامع دون حمل الغضب الصـارع قال منبهاً على عظمته معبراً بأداة التحقق دلالة على أنه لا به منه توطيناً للنفس عليه معلقاً بفعل الغفر: {وإذا} وأكد بقوله: {ما} وقدم الغضب إشـارة إلى الاهتمام بإطفاء جمره وتبريد حره فقال: {غضـبوا} أي غضـباً هو على حقيقته من أمر مغضـب في العادة، وبين بضـمير الفصـل أن بواطنهم في

غفرهم كظواهرهم فقال: {هم يغفرون} أي الإحصـــاء والإخفاء بأنهم كلما تجدد لهم غضـــب جددوا غفراً أي محواً للذنب عيناً وأثراً مع القدرة على الانتقام فسـجاياهم تقتضـي الصـفح دون الانتقام ما لم يكن من الظالم بغي لأنه لا يؤاخذ على مجرد الغضـب إلا متكبر، والكبر لا يصـلح لغير الإله وذلك لأنه لا يغيب أحلامهم عند اشـــتداد الأمر ما يغيب أحلام غيرهم من طيش الجهل وسـفاهة الرأي، فدل ذلك على أن الغفر دون غضـب لا يعد بالنسـبة إلى الغفر معه، وفي الصـحيح أنه صـلى الله عليه وسـلم ما انتقم لنفســه قط إلا أن تنتهك حرمات الله، وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا أذا قدروا عفوا.

ولما أتم ما منه التحلي، أتبعه ما به التخلي، وذكر أوصـافاً أربعة هي قواعد النصـــفة ما انبنى عليها قط ربعها إلا كان الفاعلون لها كالجسـد الواحد لا تأخذهم نازلة في الدنيا ولا في الآخرة فقال: {والذين اسـتجابوا} أي أوجدوا الإجابة بمالهم من العلم الهادي إلى سـبيل الرشـاد {لربهم} أي الداعي لهم إلى إجابته إحسـانه إليهم إيجاداً من شـدة حمل أنفسـهم عليه يطلبونه من أنفسـهم طلباً عظيماً صـادقاً لم يبق معه لأحدهم نفس ولا بقية من وهم ولا رسـم إلا على موافقة رضـاه سـبحانه لأنهم يعلمون أنه ما دعاهم إليه وهو مربيهم لصـلاحهم وسعدهم وفلاحهم، لأنه محيط العلم شديد الرحمة لا يتهم بوجه من الوجوه.

ولما كان هذا عاماً لكل خير دعا إليه سـبحانه، خص أعظم عبادات البدن، وزاد في عظمتها بالتعبير بالإقامة فقال: {وأقاموا} أي بما لهم من القوة

{الصــلاة} فأفهم ذلك مع اللام أنهم أوجدوا صــورتها محمولة بروحها على وجه يقتضـــي ثبوتها دائماً . ولما كانت الاســتجابة توجب للاتحاد القلوب بالإيمان الموجب للاتحاد في الأقوال والأفعال، والصـــلاة توجب الاتحاد بالأبدان، ذكر الاتحاد بالأقوال الناشـــئ عنه عند أولي الكمال الاتحاد في الأفعال، فقال معبراً بالاسمية حثاً على أن جعلوا ذلك لهم خلقاً ثابتاً لا ينفك: {وأمرهم} أي كل ما ينوبهم مما يحوجهم إلى تدبير {شـورى} أي يتشـاورون فيه مشـاورة عظيمة مبالغين مما لهم من قوة الباطن وصـفائه في الإخلاص والنصـح، من الشـور وهو العرض والإظهار {بينهم} أي بحيث إنهم لا فرق في حال المشـاورة بين كبير منهم وصـغير بل كل منها يصـغي إلى كلام الآخر وينظر في صـحته وسـقمه بتنزيله على أصـول الشـرع وفروعه، فلا يســتبدل أحد منهم برأي لدوام اتهامه لرأيه لتحققه نقصـــه بما له من غزارة العلم وصـفاء الفهم ولا يعجلون في شـيء بل صـار التأبي لهم خلقاً، وسـوق المشورة هذا السياق دال على عظيم جدواها وجلالة نفعها قال الحسن رحمه الله: ما تشـــاور قوم إلا هدوا لأرشـــد أمرهم- على أنه روى الطبراني في الصـغير والأوسـط لكن بسـند ضـعيف عن أنس رضـي الله عنه أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال: «ما خاب من اسـتخار ولا ندم من اسـتشـار ولا عال من اقتصد» وروى في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال: «من أراد أمراً فشـاور فيه أمرأ مسـلماً وفقه الله لأرشد أمره».

ولما كانت المواســـاة بالأموال بعد الاتحاد في الأقوال والافتاق في الأفعال أعظم جامع على محاســـن الخلال، واظهر دال على ما ادعى من الاتحاد في الحال والمآل قال مســهلاً عليهم أمرها بأنه لا مدخل لهم في الحقيقة في تحصيلها راضياً منهم باليسير منها: {ومما} ولفت القول إلى مظهر العظمة تذكيراً بما يتعارفونه بينهم من أنه لا مطمع في التقرب من العظماء إلا بالهدايا فقال: {رزقناهم} أي بعظمتنا من غير حول منهم ولا قوة {ينفقون *} أي يديمون الإنفاق كرماً منهم وإن قل ما بأيديهم اعتماداً على فضـــل الله سبحانه وتعالى لا يقبضـون أيديهم كالمنافقين، وذلك الإنفاق على حسب ما حددناه لهم فواسـوا بالمشـورة في فضـل عقولهم وبالإنفاق في فضـل أموالهم تقوى منهم ومراقبة لله لا شهوة نفس.

ولما كان في العقوبة مصلحة ومفسدة فندب سبحانه إلى المغفرة تقديماً لدرء المفسدة لأن الإنسان لعدم علمه بالقلوب لا يصح له بوجه أن يعاقب بمجرد الغضب لأنه قد يخطئ فيعاقب من أغضبه، وهو شريف الذات كريم الطبع على الهمة أبي النفس، ما وقع منه الذنب الذي أغضب إلا خطأ معفواً عنه أو كذب عليه فيه فيربي في نفســه أخته تفســد ذات البين فيجر إلى خراب كبير، وكانت إدامة الغفر جالبة للفســاد مجرئة على العناد، وكان البغي هو التمادي في الســوء محققاً لقصــد الذنب مجوزاً للإقدام على الانتقام، وكان الانتصـــار من الفجار ربما أحوج مع قوة الجنان إلى إنفاق المال، عقب الإنفاق بمدح الانتصــار بقوله: {والذين} وذكر أداة التحقق إشــارة إلى أن شـرطها لا بد من وقوعه بالفعل أو بالقوة فقال ناصـباً بفعل الانتصـار مقدماً

لما من شأن النفس الاهتمام بدفعه لعدم صبرها عليه: {إذا أصابهم} أي وقع بهم وأثر فيهم {البغي} وهو التمادي على الرمي بالشر {هم} أي بأنفسهم خاصة لما لهم من قوة الجنان والأركان المعلمة بأن ما تقدم من غفرانه ما كان إلا لعلو شأنهم لا لهوانهم {ينتصرون *} أي يوقعون بالعلاج بما أعطاهم الله من سعة العقل وشدة البطش وقوة القلب النصر لأنفسهم في محله على ما ينبغي من زجر الباغي عن معاودتهم وعن الاجتراء على غيرهم مكررين لذلك كلما كرر لهم فيكون ذلك من إصلاح ذات البين، ليسوا بعاجزين ولا في أمر دينهم متوانين، والتعبير في هذه الأفعال بالإسناد إلى الجمع إشارة إلى أنه لا يكون تمام التمكن الرادع إلا مع الاجتماع، ومن كان فيها مفرداً كان همه طويلاً وبثه جليلاً، قال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

▲ تفسير الآيات رقم [40- 44]

{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41)

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42)

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44)}

ولما كان الإذن في الانتصار في هذا السياق المادح مرغباً فيه مع ما للنفس من الداعية إليه، زجر عنه لمن كان له قلب أولاً بكفها عن الاسترسال فيه وردها على حد المماثلة، وثانياً بتسميته سيئة وإن كان على طريق المشاكلة، وثالثاً بالندب إلى العفو، فصار المحمود منه إنما هو ما كان لإعلاء كلمة الله لا شائبة فيه للنفس أصلاً فقال: {وجزاء سيئة} أي أي سيئة كانت {سيئة مثلها} أي لا تزيد عليها في عين ولا معنى أصلاً، وقد كفلت هذه الجمل بالدعاء إلى أمهات الفضائل الثلاث العلم والعفة والشجاعة على أحسن الوجوه، فالمدح بالاستجابة والصلاة دعاء إلى العلم، وبالنفقة إلى العفة، وبالانتصار إلى الشجاعة، حتى لا يظن ظان أن إذعانهم لما مضى مجرد ذل، والقصر على المماثلة دعاء إلى فضيلة التقسيط بين الكل وهي العدل، وهذه الأخيرة كافلة بالفضائل الثلاث، فإن من علم المماثلة كان عالماً، ومن قصد الوقوف عندها كان عفيفاً، ومن قصر نفسه على ذلك كان شجاعاً، وقد ظهر من المدح بالانتصار بعد المدح بالغفران أن الأول للعاجز والثاني للمتغلب المتكبر بدليل البغي.

ولما كان شرط المماثلة نادباً بعد شرع العدل الذي هو القصاص إلى العفو الذي هو الفصل لأن تحقق المثلية من العبد الملزوم للعجز لا يكاد يوجد، سبب عنه قوله: {فمن عفا} أي بإسقاط حقه كله أو بالنقص عنه لتتحقق البراءة مما حرم من المجاوزة {وأصلح} أي أوقع الإصلاح بين الناس بالعفو والإصلاح لنفسه ليصلح الله ما بينه وبين الناس، فيكون بذلك منتصراً من نفسه لنفسه {فأجره على الله} أي المحيط بجميع صفات الكمال فهو يعطيه

على حسب ما يقتضيه مفهوم هذا الاسم الأعظم، وهذا سر لفت الكلام إليه عن مظهر العظمة وقوله صلى الله عليه وسلم: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً».

ولما كان هذا ندباً إلى العفو بعد المدح بالانتصار، بين أن علته كراهة أن يوضع شيء في غير محله لأنه لا يعلم المماثلة في ذلك إلا الله، فقال مضمراً إشارة إلى أن المثلية من الغيب الخفي مؤكداً لكف النفس لما لها من عظم الاسترسال في الانتصار: {إنه لا يحب الظالمين *} أي لا يكرم الواضعين للشيء في غير محله دأب من يمشي في مأخذ الاشتقاق إذا كان عريقاً في ذلك سواء كان ابتداء أو مجاوزة في الانتقام بأخذ الثأر.

ولما كان هذا ساداً لباب الانتصار لما يشعر به من أنه ظلم على كل، قال مؤكداً نفياً لهذا الإشعار: {ولمن انتصر} أي سعى في نصر نفسه بجهده {بعد ظلمه} أي بعد ظلم الغير له وليس قاصد البعد عن حقه ولو استغرق انتصاره جميع زمان البعد.

ولما بين تعالى ما لذلك الناظر في مصالح العباد المنسلخ من خط نفسه إحساناً إلى عباد الله من الرتبة العليا، بين ما لهذا الذاب عن نفسه القاصد لشفاء صدره وذهاب غيظه، فقال رابطاً للجزاء بفاء السبب بياناً لقصور نظره على دفع الظلم عن نفسه، ويجوز كون {من} موصولة والفاء لما للموصول من شبه الشرط.

ولما عبر أولاً بالإفراد فكان ربما قصر الإذن على الواحد لئلا تعظم الفتنة، جمع إشارة إلى أن الفتنة إنما هي في إقرار الظلم لا في نصر المظلوم

واحداً كان أو جماعة فقال: {فأولئك} أي المنتصرون لأجل دفع ظلم الظالم عنهم فقط {ما عليهم} وأكد بإثبات الجار فقال: {من سبيل *} أي عقاب ولا عتاب، وروى النسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما علمت حتى دخلت عليَّ زينب رضي الله عنها بغير إذن وهي غضبى ثم أقبلت عليّ فأعرضت عنها حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: دونك فانتصري، فأقبلت عليها حتى رأيتها قد يبس ريقها في فيها ما ترد عليّ شيئاً، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه».

ولما نفى السبيل عنه بعد تشوف السامع إلى موضع ما أشعر به الكلام السابق من الظلم، بين ذلك فقال: {إنما السبيل} أي الطريق السالك الي لا منع منه أصلاً بالحرج والعنت {على} وجمع إعلاماً بكثرة المفسدين تجرئة على الانتصار منهم وإن كانوا كثيراً فإن الله خاذلهم فقال: {الذين يظلمون الناس} أي يوقعون بهم ظلمهم تعمداً عدواناً {ويبغون} أي يتجاوزن الحدود {في الأرض} بما يفسدها بعد إصلاحها بتهيئتها للصلاح طبعاً وفعلاً وعلماً وعملاً. ولما كان الفعل قد يكون بغياً وإن كان مصحوباً بحق كالانتصار المقترن بالتعدي فيه قال: {بغير الحق} أي الكامل ولما أثبت عليهم بهذا الكلام السبيل، كان السامع جديراً بأن يسأل عنه فقال: {أولئك} أي البغضاء البعداء من الله {لهم عذاب أليم *} أي مؤلم بما آلموا من ظلموه من عباد الله بحيث يعم إيلامه أبدانهم وأرواحهم بما لها من المشاعر الظاهرة والباطنة.

ولما أفهم ســـياق هذا الكلام وترتيبه هكذا أن التقدير : فلمن صــــبر عن الانتصــار أحسـن حالاً ممن انتصـر، لأن الخطأ في العفو أولى من الخطأ في الانتقام، عطف عليه مؤكداً لما أفهمه السياق أيضـاً من مدح المنتصـر: {ولمن صــبر} عن الانتصـــار من غير انتقام ولا شــكوى {وغفر} فصــرح بإســـقاط العقاب والعتاب فمحا عين الذنب وأثره: {إن ذلك} أي ذلك الفعل الواقع منه البالغ في العلو جداً لا يوصــف {لمن عزم الأمور *} أي الأمور التي هي لما لها من الأهلية لأن يعزم عليها قد صـــارت في أنفســـها كأنها دوات العزم أو متأهلة لأن تعزم على ما تريد، والعزم: الإقدام على الأمر بعد الروية والفكرة، قال أبو علي بن الفراء؛ آيات العفو محمولة على الجاني النادم، وآيات مدح الانتصـار على المصـر، وذلك إنما يحمد مع القدرة على تمام النصرة كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته

{لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم} [الآية: 92] وقال: فعل النبي صــلى الله عليه وســـلم في مواطن كثيرة منها الموقف الأعظم الذي وقفه يوم الفتح عند باب الكعبة وقال لقريش وهم تحته كالغنم المطيرة: «ما تظنون أني فاعل بكم يا معشـر قريش؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وروى أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضـــــي الله عنه أن رجلاً شتم أبا بكر رضـي الله عنه فلما رد عليه قام صـلى الله عليه وسلم ثم قال: «يا أبا بكر ! ثلاث كلهن حق ما من عبد مظلم مظلمة فعفى عنها لله إلا أعز الله بها نصـره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صـلة إلا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة».

ولما بان في هذا الكلام المقتصر على الصبر والجامع إليه الغفر والمقتضي بالنصــــر أدرجهم كلهم في دائرة الحق، أتبعه من خرج عن تلك الدائرة، فقال مخبراً أن ما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن عطفاً على نحو: فمن يهدي الله للوقوف عند هذه الحدود فما له من مضل، مبيناً بلفظ الضلال أن ما شرعه من الطريق في غاية الوضــــوح لا يزيغ عنه أحد إلا بطرد عظيم: {ومن يضلل الله} أي الذي له صفات الكمال إضلالاً واضحاً بما أفاده الفك بعدم البيان أو بعدم التوفيق لمطلق الصبر أعم من أن يكون الاقتصار على أخذ الحق وبتأخير الحق إلى وقت وبالعفو وبالغفر.

ولما كان الضال عن ذلك لا يكون إلا مجبولاً على الشر، سبب عنه قوله: {فما له} أي في ذلك الوقت {من ولي} أي يتولى أمره في الهداية بالبيان لما أخفاه الله عنه أو التوفيق لما بينه له {من بعده} أي من بعد معاملة الله له معاملة البعيد من وكله إلى نفسه وغيره من الخلق في شيء من زمان البعد ولو قل.

ولما كان مبنى أمر الضال على الندم ولو بعد حين، قال عاطفاً على نحو: فترى الظالمين قبل رؤية العذاب في غاية الجبروت والبطر والتكذيب بالقدرة عليهم، فهم لذلك لا يرجون حســــاباً ولا يخافون عقاباً: {وترى} وقال: {الظالمين} موضع «وتراهم» لبيان أن الضال لا يضع شيئاً في موضعه، ولما كان عذابهم حتماً، عبر عنه بالماضــــي فقال: {لما رأوا العذاب} أي المعلوم مصــير الظالم إليه رؤية محيطة بظاهره وباطنه يتمنون الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات من الطاعات الموجبة للنجاة {يقولون} أي مكررين مما

اعتراهم من الدهش وغلب على قلوبهم من الوجل: {هل إلى مرد} أي رد إلى دار العمل وزمانه مخلص من هذا العذاب {من سبيل}.

▲ تفسير الآيات رقم [45- 48]

{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (45)
وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)
اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48)}

ولما أثبت رؤيتهم العذاب، أثبت دنوهم من محله وبين حالهم في ذلك الدنو فقال: {وتراهم} أي يا أكمل الخلق ويا أيها المتشوف إلى العلم بحالهم بعينك حال كونهم {يعرضون} أي يجدد عرضهم ويكرر، وهو إلجاؤهم إلى أن يقارنوها بعرضهم الذي يلزم محاذاتهم لها أيضاً بطولهم ليعلموا أنها مصيرهم فلا مانع لها منهم {عليها} أي النار التي هي دار العذاب مكرراً عرضهم في طول الموقف مع ما هم فيه من تلك الأهوال بمقاساة ما عليهم من الأحمال الثقال حال كونهم {خاشعين} أي في غاية الضعة والإلقاء باليد خشوعاً هو ثابت لهم.

ولما كان الخشـــوع قد يكون محموداً قال : {من الذل} لأنهم عرفوا إذ ذاك ذنوبهم وانكشفت لهم عظمة من عصوه.

ولما كان الذل ألواناً، صـــوره بأقبح صـــورة فقال معبراً بلفظ النظر الذي هو مماسـة البصـر لظاهر المبصـر: {ينظرون} أي يبتدئ نظرهم المتكرر {من طرف} أي تحريك للأجفان {خفي} يعرف فيه الذل لأنه لا يكاد من عدم التحديق يظن أنه يطرف لأنهم يسـارقون النظر مسـارقة كما ترى الإنسـان ينظر إلى المكاره، والصـبور ينظر إلى السـيف الذي جرد له فهو بحيث لا يحقق منظوراً إليه، بل ربما تخيله بأعظم مما هو عليه. ولما صـــور حالهم وكان من أفظع الأشـياء وأقطعها للقلوب شـماتة العدو، قال مبشـراً لجميع أصـــناف أهل الإيمان ورادعاً لأهل الكفران: {وقال} أي في ذلك الموقف الأعظم على سـبيل التعبير لهم والتبكيت والتوبيخ والتقريع {الذين آمنوا} أي أوقعوا هذه الحقيقة ســـواء كان إيقاعهم لها في أدنى الرتب أو أعلاها عند رؤيتهم إياهم على هذا الحال، مؤكدين لتحقيق مقالهم عند من قضـــى بضـــلالهم والإعلام بما لهم من الســرور بصـــلاح حالهم، والحمد لمن من عليهم بحس منقلبهم ومآلهم، ويجوز أن يكون قولهم هذا في الدنيا لما غلب على قلوبهم من الهيبة عندما تحققوا هذه المواعظ: {إن الخاسرين} أي الذين كملت خسارتهم هم خاصة {الذين خسروا أنفسهم} بما استغرقها من العذاب {وأهليهم} بمفارقتهم لهم إما في إطباق العذاب إن كانوا مثلهم في الخســران أو في دار الثواب إن كانوا من أهل الإيمان.

ولما أخبر بخســـارتهم بين ظرفها تهويلاً لها، ويجوز أن يكون ظرفاً لهذا القول وهو أردع لمن له مسكة لأن من جوز أن يخسر وأن عدوه يطلع على خســارته ويظهر الشــماتة به، كان جديراً بأن يترك الســبب الحامل على الخســارة فقال: {يوم القيامة} أي الذي هو يوم فوت التدراك لأنه للجزاء لا للعمل لفوات شرطه بفوات الإيمان بالغيب لانكشاف الغطاء. ولما كان هذا نهاية الخسارة، أنتج قوله منادياً ذاكراً سبب هذه الخسارة المعينة مؤكداً لأجل إنكار الظالمين لها وإن كان من تتمه قول المؤمنين هناك، فالتأكيد مع ما يفيد الإخبار به في هذه الدار من ردع المنكر للإعلام بما لهم من اللذة فيما رأوا من سوء حالهم وتقطع أوصـالهم ورجائهم من أن ينقطع عنهم ذلك كما ينقطع عن عصـــاة المؤمنين: {ألا إن الظالمين} أي الراســخين في هذا الوصف فهم بحيث لا ينفكون عن فعل الماشي في الظلام بوضع الأشياء في غير مواضعها {في عذاب مقيم *} لا يزايلهم أصـلاً، فلذلك لا يفرغون منه في وقت من الأوقات، فلذلك كان خسرانهم لكل شيء.

ولما كانت العادة جارية بأن من وقع في ورطة وجد في الأغلب ولياً ينصـره لأو ســبيلاً ينجيه، قال عاطفاً على {وتراهم} أو «ألا إن»: {وما كان} أي صـح ووجد {لهم} وأعرق في النفي فقال: {من أولياء} فما لهم من ولي لأن النصرة إذا انتفت من الجمع انتفت من الواحد من باب الأولى.

ولما كان من يفعل فعل القريب لا يفيد إلا إن كان قادراً على النصــرة قال: {ينصــرونهم} أي يوجدون نصــرهم في وقت من الأوقات لا في الدنيا بأن يقدروا على إنقاذهم من وصف الظلم ولا في الآخرة بإنقاذهم مما جرى عليهم

من العذاب. ولما كان الله تعالى يصــح منه أن يفعل ما يشــاء بواســطة أو غيرها قال: {من دون الله} أي ما صح ذلك وما استقام بوجه بغيره، وأما هو فيصــح ذلك منه ويســتقيم له لإحاطته بأوصــاف الكمال ولو أراد لفعل ولما بين ما لهم بين ما لمن اتصف بوصفهم كائناً من كان، فقال بناء على نحو: لأنه هو الذي أضـلهم: {ومن يضـلل الله} أي يوجد ضـلاله إيجاداً بليغاً بما أفاده الفك على سـبيل الاسـتمرار بعدم البيان له أو بعدم التوفيق بعد البيان: {فما له} بسـبب إضـلال له جميع صـفات الجلال والإكرام، وأعرق في النفي بقوله: {من سبيل *} أي تنجية من الضلال ولا مما تسبب عنه من العذب. ولما كان هذا، أنتج قطعاً قوله: {اســتجيبوا} أي اطلبوا الإجابة وأوجدوها، ولفت القول إلى الوصــف الإحســاني تذكيراً بما يحث على الوفاق، ويخجل من الخلاف والشـقاق، فقال: {لربكم} الذي لم تروا إحسـاناً إلا وهو منه فيما دعاكم إليه برسوله صلى الله عليه وسلم من الوفاء بعهده في أمره ونهيه، ولا تكونوا ممن ترك ذلك فتكونوا ممن علم أنه أضله فانسد عليه السبيل.

ولما كان الخوف من الفوت موجباً للمبادرة، قال مشــيراً بالجار إلى أنه يعتد بأدنى خير يكون في أدنى زمن يتصـل بالموت: {من قبل أن يأتي يوم} أي يكون فيه ما لا يمكن معه فلاح؛ ثم وصــفه بقوله لافتاً إلى الاســم الأعظم الجامع لأوصـــاف الإحســـان والإنعام على المطيعين والقهر والانتقام من العاصين: {لا مرد} أي لا رد ولا موضع رد ولا زمان رد {له} كائن {من الله} أي الذي له جميع العظمة وإذا لم يكن له مرد منه لم يكن له مرد من غيره، ومتى عدم ذاك أنتج قوله: {ما لكم} وأعرق في النفي بقوله: {من ملجأ

يومئذ} أي مكان تلجؤون إليه في ذلك اليوم وحصن تتحصنون فيه من شيء تكرهونه، وزاد في التأكيد بإعادة النافي وما في حيزه إبلاغاً في التحذير فقال: {وما لكم من نكير *} أي من إنكار يمكنكم به من النجاة لأن الحفظة يشهدون عليكم فإن صدقتموهم وإلا شهدت عليكم أعضاؤكم وجلودكم، ولا لكم من أحد ينكر شيئاً مما تتجاوزون به ليخلصكم منه.

ولما أنهى ما قدمه في قوله {شرع لكم من الدين} نهايته، ودل عليه وعلى كل ما قادته الحكمة في حيزه حتى لم يبق لأحد شبهة في شيء من الأشياء، كان ذلك سبباً لتهديدهم على الإعراض عنه وتسلية رسولهم صلى الله عليه وسلم فقال معرضاً عن خطابهم إيذاناً بشديد الغضب: {فإن أعرضوا} أي عن إجابة هذا الدعاء الذي وجبت إجابته والشرع الذي وضحت وصحت طريقته بما تأيد به من الحجج، ولفت القول إلى مظهر العظمة دفعاً لما قد يوهم الإرسال من الحاجة فقال: {فما أرسلناك} مع ما لنا من العظمة {عليهم حفيظاً} أي نقهرهم على امتثال ما أرسلناك به. ولما كان التقدير. فأعرض عن غير إبلاغهم لأنا إنما أرسلناك مبلغاً، وضع موضعه: {إن} أي ما {عليك إلا البلاغ} لما أرسلناك به، وأما الهداية والإضلال فإلينا. ولما ضمن لهذه الآية ما أرسله له، أتبعه ما جبل عليه الإنسان بياناً لأنه صلى الله عليه وسلم لا حكم له على الطباع وأن الذي عليه إنما هو الإسماع لا السماع، فقال عاطفاً على ما قبل آية الشرع من قوله {يبسط الرزق لمن يشاء} حاكياً له في أسلوب العظمة تنبيهاً على أنه الذي حكم عليهم بالإعراض عما هو جدير بأن لا يعرض عنه عاقل، وإيماء إلى أن

الإنســان لغلبه جهله وقلة عقله يجترئ بأدنى تأنيس على من تجسـد الجبال لعظمته وتندك الشــوامخ من هيبته: {وإنا إذا أذقنا} بعظمتنا التي لا يمكن مخالفتها . ولما كان من يفرح بالنعمة عند انفراده بها مذموماً، عبر بالجنس الصـالح للواحد فما فوقه تنبيهاً على أن طبع الإنســان عدم الاهتمام بشـدائد الإخوان إلا من أقامه الله في مقام الإحسـان فقال: {الإنسـان} أي بما جبلناه عليه من النقص بالعجلة وعدم التمالك {منا رحمة} أي نوعاً من أنواع الإكرام من صـحة أو غنى ونحو ذلك، وأفرد الضـمير إشـارة إلى أنه مطبوع على أنه ليس عليه إلا من نفسه ولو كان أهل الأرض كلهم على غير ذلك، وكذا عبر بالإنسـان فقال: {فرح بها} أي ولو أن أهل الأرض كلهم في نقمة وبؤس وعمى فأخرجه الفرح عن تأمل ما ينفعه ليشكر، فكان ذلك لذلك كافراً للنعمة لأنه أبدل الشـكر بالفرح والكفر فتوصـل بالعافية إلى المخالفة، فأوقع نفسه في أعظم البلاء.

ولما دل باداة التحقق على أن النعمة هي الأصل لعموم رحمته، وأنها سبقت غضـبه، دل على أن السيئة قليلة بالنسبة إليها بأداة الشك والمضـارع فقال: {وإن} ولما كانت المشاركة في الشدائد تهون المصـائب، فكان من يزيد غمه بخصـــوص مصـــيبته عند العموم مذموماً، نبه على نقص الإنســـان بذلك بالجمع فقال: {تصبهم سيئة} أي نقمة وبلاء وشدة. ولما كانت الرحمة فضـلاً منه، أعلمهم أن السـيئة مسـببة عنهم فقال: {بما قدمت أيديهم} وعبر باليد عن الجملة لأن أكثر العمل بها . ولما كان الجواب على نهج الأول : حزنوا فكفروا، وعدل عنه إلى ما يدل على أن جنس الإنسان موضـع الكفران، ولما

كانوا يدعون الشكر وينكرون الكفر، أكد قوله وسبب عن تلك الإصابة والإذاقة معاً إشارة إلى أنه لا أصل له غيرهما، فقال مظهراً موضع الضمير لينص على الحكم على الجنس من حيث هو : {فإن الإنسان} أي الآنس بنفسه المعرض عن غيره بما هو طبع له بسبب مسه بضر {كفور *} أي بليغ الستر للنعم نساء له، ينسى بأول صدمة من النقمة جميع ما تقدم له من النعم، ولا يعرف إلا الحالة الراهنة، فإن كان في نعمه أشر وبطر، وإن كان في نقمه أيس وقنط، وهذا حال الجنس من حيث هو، ومن وفقه الله جنبه ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم: «المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» وليس ذلك إلا للمؤمن، والآية من الاحتباك : فكر الفرح أولاً دالاً على الحزن ثانياً، وذكر الكفران ثانياً دال على حذفه أولاً.

▲ تفسير الآيات رقم [49- 51]

{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49)

أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51)}

ولما قدم سبحانه في هذه السورة أن له التصرف التام في عالم الخلق بالأجسام المرئية وفي عالم الأمر بالأرواح الحسية والمعنوية القائمة بالأبدان والمدبرة للأديان، وغير ذلك من بديع الشأن، فقال في افتتاح السورة {كذلك

يوحي إليك وإلى الذين من قبلك} وأتبعه أشكاله إلى أن قال {أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك} الآية {فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفكسم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً}- الآية {له مقاليد السماوات والأرض} {الله لطيف بعباده يرزق من يشاء} {من كان يريد حرث الآخرة}- الاية، {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض}، {ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام}- الآية إلى أن ذكر أحوال الآخرة في قوله {وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون}- الآيات، وختم بتصرفه المطلق في الإنسان من إنعام وانتقام، وما له من الطبع المعوج مع ما وهبه له من العقل المقيم في أحسن تقويم، فدل ذلك على أن له التصرف التام ملكاً وملكوتاً خلقاً وأمراً، أتبعه الدليل على أن تصرفه ذلك على سبيل الملك والقهر إيجاداً وإعداماً إهانة وإكراماً، فقال صارفاً القول عن أسلوب العظمة التي من حقها دوام الخضوع وإهلاك الجبابرة إلى أعظم منها بذكر الاسم الأعظم الجامع لمظهر العظمة ومقام اللطف والإحسان والرحمة نتيجة لكل ما مضى: {لله} أي الملك الأعظم وحده لا شريك له {ملك السماوات} كلها على علوها وارتفاعها وتطابقها وكبرها وعظمها وتباعد أقطارها {والأرض} جميعها على تباينها وتكاثفها واختلاف أقطارها وسكانها واتساعها.

ولما أخبر بانفراده بالملك، دل عليه بقوله تعالى: {يخلق} أي على سبيل التجدد والاستمرار {ما يشاء} أي وإن كان على غير اختيار العباد، ثم دل على ذلك بما يشاهد من حال الناس فانه لما استوى البشر في الإنسانية والنكاح الذي هو سبب الولادة اختلفت أصناف أولادهم. كان ذلك أدل دليل

على أنه لا اختيار لأحد معه وأن الأسباب لا تؤثر أصلاً إلا به. ولما كانت ولادة الإناث أدل على عدم اختيار الولد وكانوا يعدونه من البلاء الذي ختم به ما قبلها قدمهن في الذكر فقال: {يهب} خلقاً ومولداً {لمن يشــاء} أولاداً {إناثاً} أي فقط ليس معهن ذكر كما في لوط عليه الصــلاة والســلام، وعبر ســـــبحانه فيهن بلفظ الهبة لأن الأوهام العادية قد تكتنف العقل فتحجبه عن تأمل محاسن التدبيرات الإلهية، وترمي به في مهاوي الأسباب الدنيوية، فيقع المســلم مع إســلامه في مضــاهاة الكفار في كراهة البنات وفي وادي الوأد بتضـــييعهن أو التقصـــير في حقوقهن وتنبيهاً على أن الأنثى نعمة، وأن نعمتها لا تنقص عن نعمة الذكر وربما زادت، وإيقاظاً من ســنة الغفلة على أن التقديم وإن كان لما قدمته لا يقدم تأنيساً وتوصية لهن واهتماماً بأمرهن، نقل ابن ميلق عن ابن عطية عن الثعلبي أن واثلة بن الأســقع رضـــي الله عنه قال: من يمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر لأن الله تعالى بدأ بالإناث، ولذلك رغب النبي صــلى الله عليه وســلم في الإحســان إليهن في أحاديث كثيرة ورتب على ذلك أجراً كبيراً ولأجل تضـــمين الهبة مع الخلق عداها باللام مع أن فعلها متعد بنفســه إلى مفعولين لئلا يتوهم أن الولد كان لغير الوالد ووهبه الله له.

ولما كان الذكر حاضراً في الذهن لشرفه وميل النفس إليه لا سيما وقد ذكر به ذكر الإناث، عرف لذلك وجبراً لما فوته من التقديم في الذكر تنبيهاً على أنه ما أخر إلا لما ذكر من المعنى فقال: {ويهب لمن يشــاء الذكور *} أي فقط ليس بينهن أنثى كما صـــنع لإبراهيم عليه الســـلام وهو عم لوط عليه

السلام. ولما فرغ من القسمين الأولين عطف عليهما قسيماً لهما ودل على أنه قسم بأو فقال: {أو يزوجهم} أي الأولاء بجعلهم ازواجاً أي صنفين حال كونهم {ذكراناً وإناثاً} مجتمعين في بطن ومنفردين كما منح محمداً صلى الله عليه وسلم، ورتبهما هنا على الأصل تنبيهاً على أنه ما فعل غير ذلك فيما مضى إلا لنكت جليلة فيجب تطلبها، وعبر في الذكر بما هو أبلغ في الكثرة ترغيباً في سؤاله، والخضوع لديه رجاء نواله.

ولما فرغ من أقسام الموهوبين الثلاثة، عطف على الإنعام بالهبة سلب ذلك، فقال موضع أن يقال مثلاً: ولا يهب شيئاً من ذلك لمن يشاء: {ويجعل من يشاء عقيماً} أي لا يولد له كيحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام– كذا قالوه، والظاهر أنه لا يصح مثالاً فإنه لم يتزوج، قال ابن ميلق، وأصل العقيم اليبس المانع من قابلية التأثر لما من شأنه أن يؤثر، والداء العقام هو الذي لا يقبل البرء– انتهى. فهذا الذي ذكر أصرح في المراد لأجل ذكر العقم، وأدل على القدرة لأن شامل لمن له قوة الجماع والإنزال لئلا يظن أن عدم الولد لعدم تعاطي أسبابه، وذكروا في هذا القسم عيسى عليه الصلاة والسلام. ولا يصح لأنه ورد أنه يتزوج بعد نزوله ويولد له، وهذه القسمة الرباعية في الأصول كالقسمة الرباعية في الفروع، بعضهم لا من ذكر ولا أنثى كآدم عليه الصلاة والسلام، وبعضهم من ذكر فقط كحواء عليها السلام، وبعضهم من أنثى فقط كعيسى عليه السلام وبعضهم من ذكر وأنثى وهو أغلب الناس، فتمت الدلالة على أنه ما شاء كان ولا راد له وما لم يشأ لم يكن، ولا مكون له ولا مانع أعطى ولا معطي لما منع.

ولما دل هذا الدليل الشـــهودي على ما بنيت الآية عليه من إثبات الملك له وحده مع ما زادت به من جنس السياق وعذوبة الألفاظ وإحكام الشك وإعجاز الترتيب والنظم، كانت النتيجة قطعاً لتضــمن إشــراكهم به الطعن في توحده بالملك مقدماً فيها الوصــف الذي هو أعظم شــروط الملك: {إنه عليم} أي بالغ العلم بمصالح العباد وغيرها {قدير *} شامل القدرة على تكوين ما يشاء. ولما تم القســم الأول مما بنى على العلم والقدرة، والقدرة فيه أظهر وفاقاً لما ختمت به الآية، وكان قد يكون خلقه إياه إبداعاً من غير توسط سبب، وقد يكون بتوسيط سبب، أتبعه القسم الآخر الأعلى الذي العلم فيه أظهر وهو الوحي الذي ختمت آيته أول السـورة بالحكمة التي هي سـر العلم وقسـمه أيضــاً إلى ما هو بواسـطة وإلى ما هو بغير واسـطة ولكن سـر التقدير في القســم الأول الكلام وهو الذي شـــرف به وكان لا يمكن أحداً أن يتكلم إلا بتكليم الله له أي إيجاده الكلام في قلبه قال: {وما} أي وهو سبحانه تام العلم شــامل القدرة غرز في البشــر غريزة العلم وأقدره على النطق به بقدرته وحياً منه إليه كما أوحى إلى النحل ونحوها والحال أنه ما {كان لبشر} من الأقسام المذكورة، وحل المصـــدر الذي هو اســـم «كان» ليقع التصـــريح بالفاعل والمفعول على أتم وجوهه فقال: {أن يكلمه} وأظهر موضع الإضمار إعظاماً للوحي وتشـــريفاً لمقداره بجلالة إيثاره فقال: {الله} أي يوجد الملك الأعظم الجامع لصـفات الكمال في قلبه كلاماً {إلا وحياً} أي كلاماً خفياً يوجده فيه بغير واســـطة بوجه خفي لا يطلع عليه أحد إلا بخارق العادة إما بإلهام أو برؤيا منام أو بغير ذلك ســـواء خلق الله في المكلم به قوة السـماع له وهو

أشرف هذه الأقسام مطلقاً سواء كان ذلك مع الرؤية ليكون قسيماً لما بعده أولاً أو يخلق فيه ذلك ومن هذا القسم الأخير {وأوحينا إلى أم موسى} [القصص: 7] {وأوحى ربك إلى النحل} [النحل: 68] {وأوحى في كل سماء أمرها} [فصلت: 12] فإن إيداعها القوى التي يحصل بها المنافع مثل إيداع الإنسان قوة الكلام ثم قوة التعبير عنه– والله أعلم. وهذا معنى قول القاضي عياض في الشفاء في آخر الفصل الثاني من الباب الرابع في الإعجاز: وقد قيل في قوله تعالى {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً} الآية أي ما يلقيه في قلبه دون واسطة، ومعنى قول الإمام شهاب الدين السهروردي في الباب السادس والعشرين من عوارفه: والعلوم اللدنية في قلوب المنقطعين إلى الله ضرب من المكالمة.

ولما كان الحجاب الحسي يخفي ما وراءه عن العيان، استعير لمطلق الخفاء فقال: {أو من} أي كلاماً كائناً بلا واسطة، لكنه مع السماع لعين كلام الله كائن صاحبه من {وراء حجاب} أي من وجه لا يرى فيه المتكلم مع السماع للكلام على وجه الجهر، قال القشيري: والمحجوب العبد لا الرب، والحجاب أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية، وتعالى الله أن يكون من وراء حجاب لأن ذلك صفة الأجسام– انتهى.

والآية يمكن تنزيلها على الاحتباك بأن يكون ذكر الحجاب ثانياً دليلاً على نفيه أولاً، وذكر الوحي الدال على الخفاء أولاً دليلاً على الجهر ثانياً، والحجاب ثانياً دليلاً على الرؤية أولاً، وسره أن ترك التصريح والدلالة عليها بالحجاب أولى بسياق العظمة.

ولما كان الذي بلا واسطة مع كونه أخفى الأقسام ليس فيه صوت ولا ترتب في كلمات، عبر فيه بالمصــــدر وعبر بما يلقيه الملك بما يدل على التجدد فقال: {أو يرسل} وهو عطف على المصدر بعد تقدير حله {رسولاً} أي من الملائكة. ولما كان الوحي مسـبباً عن الإرسـال ومرتباً عليه قال: {فيوحي} أي على سبيل التجديد والترتيب، وقرأ نافع برفع يرسل ويوحي بتقدير: أو هو يرسل. ولما كان ربما ظن أن للواسطة فعلاً يخرج عن فعله، رد ذلك بقوله: {بإذنه} أي بإقداره وتمكينه، فذلك المبلغ إنما هو آلة. ولما كان رســوله لا يخرج عما حده له بوجه قال: {ما يشـاء} أي لا يتعدى مراده وإقداره أصــلاً فهو المكلم في الحقيقة وقد بان أنها ثلاثة أقســام: أولها فيه قسـمان، خص الأول بقسـميه بالتصـريح باسـم الوحي لأنه كما مر أخفاها وهو أيضـاً يقع دفعة، والوحي يدور معناه على الخفاء والسرعة.

ولما كانت الأقسـام دالة على العظمة الباهرة، وكانت للروح البدني لأن روح الوحي يكســـب الروح البدني حياة العلم كما أفاد الروح البدن حياة الحركة بالإرادة والحس، كانت النتيجة مؤكدة لتضــمن طعنهم في الرســول والقرآن والتوحيد طعنهم في مضمون الجملة: {إنه} أي الذي له هذا التصرف العظيم في هـذا الوحي الكريم {عليّ} أي بـالغ العلو حـداً ممـا لا يليق بـه من الأوصــاف وبما يكون للخلق عن جنابه من السـفول بما عليهم من الحجب فلا يلبس شـيء مما يعبر به تقريباً للعقول فيحمل على ما يوهم نقصـاً، فإن المجازات في لسـان العرب شـهيرة {حكيم *} يتقن ما يفعله إتقاناً لا تحيط العقول بإدراكه فيسـكن روح العلم الذي هو من ألطف أسـراره في روح البدن

المدبر له فيكون سراً في سر كما كان براً بعد بر، ويجعل ذلك تارة بواسطة وتارة بغير واسطة على حسب ما يقتضيه الحال، ويعبر عن كل معنى بما يقتضـــيه حاله في ذلك الســـياق، ومهما أوهم شـــيء من ذلك نقصـــاً فرد المســتبصــر إلى المحكم بضــرب من التأويل على ما يقتضــيه الشــائع من استعمالات رجع رجوعاً بيناً متقناً بحيث يصير في غاية الجلاء.

▲ تفسير الآيات رقم [52- 53]

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَـــاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِـــرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52)

صِــرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّــمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِــيرُ الْأُمُورُ (53)}

ولما كان الوحي روحاً مدبراً للروح كما أن الروح مدبر للبدن، صرح به فقال: {وكذلك} أي ومثل ما أخبرناك بالكيفيات التي نوحيها إلى عبادنا {أوحينا إليك} صـــارفاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً لما أوحى إليه وأفاض من نعمه عليه على جميع تلك الأقســـام، فالتفت في الروع مذكوراً غير منكور، والســـماع من دون الحجاب أصـــلاً منقول في الإخبار عن ليلة المعراج ومعقول في السماع من وراء الحجاب أيضاً ذكر فيها في قوله: «أمضيت فريضـــتي وخففت عن عبادي» والوحي بواســـطة الملك كثيراً جداً، وأعظم الوحي وشـــرفه بقوله منكراً له تعظيماً لما عنده من الروح الأمري بإفادة أن هذا الكتاب الذي أبكم الفصـــحاء وأعجز البلغاء وحير الألباب من الحكماء

شـــعبة منه وذرة بارزة عنه، ويمكن أن يكون تنكير تعظيم وإجلال وتكريم {روحاً} أي من خالطه صـــار قلبه حياً ومن عري عنه كان قلبه ميتاً . وزاد عظمه بقوله : {من أمرنا } أي بجعله من قســـم الأمر وإظهاره في مظهر العظمة فيا له من علو يتضاءل دونه كل شامخ ويتحاقر إكباراً له كل مادح، والمراد بهذا رد ما تقدم من نسبتهم له صلى الله عليه وسلم إلى الإفتراء لأنه تعالى لم يختم على قلبه بل فتحه بيد القدرة وأحياه بروح الوحي فأنطقه بالحكم التي خضعت لها الحكماء، وأقرت بالعجز عن إدانتها ألباب العلماء، ودل على ذلك بقوله، نافياً مبيناً حاله صلى الله عليه وسلم قبل هذا الوحي: {ما كنت} أي فيما قبل الأربعين التي مضـــت لك وأنت بين ظهراني قومك مســـاوياً لهم في كونك لا تعلم شـــيئاً ولا تتفوه بشـــيء من ذلك وهو معنى {تدري} وعبر بأداة الاستفهام إشـارة إلى أن ما بعدها مما يجب الاهتمام به والسؤال عنه، وعلق بجملة الاستفهام الدراية عن العمل وسدت مسد مفعولي الدراية {ما الكتاب } أي ما كان في جبلتك أن تعلم ذلك بأدنى أنواع العلم بمجادلة ولا غيرها {ولا الإيمان} أي بتفصيل الشرائع على ما حددناه لك بما أوحيناه إليك، وهو صلى الله عليه وسلم وإن كان قبل النبوة مقراً بوحدانية الله تعالى وعظمته لكنه لم يكن يعلم الرســـل على ما هم عليه، ولا شـــك أن الشهادة له نفسه صلى الله عليه وسلم بالرسالة ركن الإيمان ولم يكن له علم بذلك، وكذا الملائكة واليوم الآخر فيصح نفي المنفي لفواته بفوات جزئه.

ولما كان المعنى: ولكن نحن أدريناك بذلك كله، عبر عنه إعلاماً بأن الخلق كانوا في ظلام لكونهم كانوا يفعلون بوضع الأشياء في غير مواضعها فعل

من يمشـــي في الظلام بقوله: {ولكن جعلناه} أي الروح الذي هو الكتاب المنزل منا إليك المعلم بالإيمان وكل عرفان بما لنا من العظمة {نوراً نهدي} على عظمتنا {به من نشـاء} خاصـة لا يقدر أحد على هدايته بغير مشـيئتنا {من عبادنا} بخلق الهداية في قلبه، قال ابن برجان: فمن رزقه الفرقان الذي يفرق بين المتشابهات والنور الذي يمشي به في الظلمات، فذلك الذي أبصر شـعاع النور وشـاهد الضـياء المبثوث في العالم المفطور، وعلى قدر إقباله عليه والتفرغ عن كل شاغل عنه يكون قبوله له وهدايته به، وقال الأصبهاني في سـورة النور: هو الكيفية الفائضـة من الشـمس والقمر والنار مثلاً على الأرض والجدار وغيرهما، يقال: اسـتنارت الأرض، وقال حجة الإسـلام الغزالي رضي الله عنه: ومن المعلوم أن هذه الكيفية إنما اختصت بالفضيلة والشـرف لأن المرئيات تصـير بسـببها ظاهرة ثم من المعلوم أنه كما يتوقف إدراك هذه المرئيات على كونها مسـتنيرة فكذلك يتوقف على وجود اليعن الباصـرة وهي المدركة وبها الإدراك، فكان وصـف الإظهار بالنور الباصـر أحق بالنور المبصـر فلا جرم أطلقوا اسـم النور على نور العين المبصـرة فقالوا في الخفاش: إن نور عينيه ضعيف، وفي الأعمى أنه فقد نور البصر، إذا ثبت هذا فنقول: للإنسـان بصـر وبصـيرة، فالبصـر هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان والبصيرة هي القوة العاقلة وكل واحد من الإدراكين يقتضـي نوراً، ونور العقل أقوى وأشـد من نور العين، لأن القوة الباصـرة لا تدرك نفسـها ولا إدراكها ولا آلاتها، والقوة العاقلة تدرك نفسـها، وإدراكها وآلتها فنور العقل اكمل من نور البصر، والقوة العاقلة تدرك الكليات والقوة الباصرة

لا تدركها، وإدراك الكليات أشـــرف لانه لا يتغير بخلاف الجزئيات، وإدراك العقل منتج وإدراك الجزئي غير منتج، والقوة الباصــرة لا تدرك إلا الســطح الظاهر من الجســم واللون القائم بذلك الســطح بشــرط الضــوء فإذا أدركت الإنســان لم تدرك منه إلا الســطح الظاهر من جســمه واللون القائم به والقوة العاقلة تدرك ظاهر الأشياء وباطنها فان الباطن والظاهر بالنسبة إليها على السواء فكانت القوة العاقلة نوراً بالنسبة إلى الظاهر والباطن، والقوة الباصرة ظلمة بالنســـبة إلى الباطن، ومدرك القوة العاقلة هو الله وصـــفاته وأفعاله، ومدرك القوة هو الألوان والأشكال فيكون نسبة شرف القوة العاقلة إلى شرف القوة الباصــرة كنســبة شــرف ذات الله إلى شــرف الألوان والأشــكال، والقوة الباصـــرة كالخادم والقوة العاقلة كالأمير، والأمير أشـــرف من الخادم، والقوة الباصرة قد تغلط والقوة العاقلة لا تغلط، فثبت أن الإدراك العقلي أكمل وأقوى وأشرف من الإدراك البصري، وكل واحد من الإدراكين يقتضي الظهور الذي هو أشـــرف خواص النور، فكان الإدراك العقلي أولى بكونه نوراً، والإدراك العقلي قســمان: أحدهما واجب الحصــول عند ســلامة القوى والآلات وهي التعقلات الفطرية، والثاني ما يكون مكتســـباً، وهي التعقلات النظرية، ولا يكون من لوازم جوهر الإنســان لأنه حال الطفولية لم يكن عالماً البتة، فهذه الأنوار إنما حصلت بعد أن لم تكن فلا بد لها من سبب، والفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ فلا بد من هاد ومرشـــد، ولا مرشـــد فوق كلام الله وأنبيائه، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس كما يسمى نور

الشـمس نوراً فنور القرآن يشـبه نور الشـمس ونور العقل يشـبه نور العين، وبهذا يظهر معنى قوله تعالى:

{فآمنوا بالله ورسـوله والنور الذي أنزلنا} [التغابن: 8] {قد جاءكم برهان من ربكم} {وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً} [النساء: 74] وإذا ثبت أن بيان الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من نور الشمس وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشـمس كما أن الشـمس في عالم الأجسـام تفيد النور لغيرها ولا تسـتفيد من غيرها فكذا نفس النبي صـلى الله عليه وسـلم تفيد الأنوار العقلية لسائر النفوس البشرية ولا تستفيد النور العقلي من شيء من النفوس البشرية، فلذلك وصـف الله الشمس بأنـها سراج، ووصـف محمداً صـلى الله عليه وسلم بأنه سـراج، ثم قال: ولمراتب الأنوار في عالم الأرواح مثال، وهو أن ضـوء الشـمس إذا وصـل إلى القمر ثم دخل في كوة بيت ووقع على مرآة منصـوبة على حائط ثم انعكس منه إلى طشـت مملوء ماء موضـوع على الأرض ثم انعكس منه إلى سـقف البيت فالنور الأعظم في الشـمس التي هي المعدن، وثانيها في القمر، وثالثها في المرآة، ورابعها في الماء، وخامسها في السقف، وكل ما كان أقرب إلى المعدن كان أقوى فكذا الأنوار السـمـاوية لما كانت مترتبة لا جرم كان النور المفيد أشـد إشـراقاً، ثم تلك الأنوار لا تزال مترتبة حتى تنتهي إلى النور الأعظم والروح الذي هو أعظم الأرواح منزلة عند الله الذي هو المراد بقوله {يوم يقوم الروح والملائكة صـفاً} [النبأ: 38] ثم نقول: إن هذه الأنوار الحسـية سـفلية كانت كأنوار النيران أو علوية كأنوار فإنها ممكنة لذواتها والممكن لذاته لا يسـتحق الوجود لذاته بل وجوده من غيره،

والعدم هو الظلمة والوجود هو النور، فكل ما سـوى الله مظلم لذاته مسـتتير بإنارة الله تعالى، وكذا جميع معارفها وجودها حاصـــل من وجود الله تعالى فإن الحق سبحانه هو الذي أظهرها بالوجود بعد أن كانت في ظلمات العدم، وأفاض عليها أنوار المعارف بعد أن كانت في ظلمات الجهالة، فلا ظهور لشـــيء من الأشـياء إلا بإظهاره، وخاصـــة النور إعطاء الإظهار والتجلي والانكشـاف، وعند هذا يظهر أن النور المطلق هو الله سـبحانه وإن إطلاق النور على غيره مجاز، وكل ما سـوى الله من حيث هو هو ظلمة محضـة لأنه من حيث أنه ممكن عدم محض بل الأنوار إذا نظر إليها من حيث هي هي فهي ظلمات لأنها من حيث هي هي ممكنات، والممكن من حيث هو هو معدوم، والمعدوم مظلم، فالنور إذا نظر من حيث هو ممكن مظلم، فأما إذا التفت إليها من حيث أن الحق سـبحانه أفاض عليها نور الوجود بهذا الاعتبار صـارت أنواراً فثبت أنه سـبحانه هو النور وأن كل ما سـواه ليس بنور، وأضاف النور إلى الخافقين في قوله {نور السماوات والأرض} لأنهما مشـحونتان بالأنوار العقلية والأنوار الحسـية، أما الحسـية فما نشـاهده في السـماوات من الكواكب وغيرها، وفي الأرض من الأشـعة المنبسـطة على سـطوح الأجسـام حتى ظهرت بها الألوان المختلفة، ولولاها لما كان للألوان ظهور بل وجود، وأما الأنوار العقلية فالعالم الأعلى مشـحون بها وهي جواهر الملائكة، والعالم الأدنى مشـحون بها وهي القوى النباتية والحيوانية والإنسانية، وبالنور الإنساني السفلي ظهر نظام العالم الأسفل كما أنه بالنور الملكي ظهر نظام العالم العلوي وإذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسـره

مشـــحون بالأنوار البصـــرية الظاهرة والعقلية الباطنة، ثم عرفت أن السـفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج والسراج هو الروح النبوي ثم إن الأنوار القدسـية مقتبسـة من الأنوار العلوية اقتباس السـراج من النور وإن العلويات مقتبســـة بعضـــها من بعض وإن بينها ترتيباً في الغايات، ثم ترتقي جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول، وذلك هو الله وحده لا شـريك له، فإذا الكل نوره، ثم قال: قال الإمام الغزالي: قد تبين أن القوى المدركة أنوار.

ومراتب القوة المدركة الإنسـانية خمسـة، أحدهما القوة الحسـاسـة وهي التي تتلقى ما تورده الحواس الخمس، وكأنها أصـل الروح الحيواني إذ بها يصـير الحيوان حيواناً، وهي موجودة للصـــبي والرضـــيع وثانيها القوة الخيالية وهي التي تســـبب ما أوردته الحواس وتحفظه مخزوناً عندها لتعرضـــه عن القوة العقلية عند الحاجة إليه، وثالثها القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية، ورابعها القوة الفكرية وهي التي تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفاً تسـتنتج منه علماً بالمجهول، وخامسها القوة القدسية التي يختص بها الأنبياء وبعض الأولياء، وتتجلي فيها لوائح الغيب وأسـرار الملكوت، وإليه إشـار قوله {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا} الآية، وإذا عرفت هذه القوى فهي بجملتها أنوار إذ بها تظهر أصـــناف الموجودات، وهذه المراتب الخمس يمكن تشـــبيهها بالأمور الخمسـة التي ذكرها الله في المشـكاة والزجاجة والمصـباح والشـجرة والزيت، أما الروح الحســاس فإذا نظرت إلى خاصـــته وجدت أنواره خارجة من ثقب كالعينين والأذنين والمنخرين، فأرفق مثال له من عالم الأجسام المشكاة، وأما

الثاني وهو الروح الخيالي فله خواص ثلاثة: الأول أنه من طينة العالم السفلي الكثيف لأن الشيء المتخيل ذو شكل وحيز، ومن شأن العلائق الجسمانية أن تحجب عن الأنوار العقلية المحضة، والثاني أن هذا الخيال الكثيف إذا صفا ورق صار موازناً للمعارف العقلية ومؤدياً لأنوارها، ولذلك يستدل المعبر بالصور الخيالية على المعاني العقلية كما يستدل بالشمس على الملك، وبالقمر على الوزير، وبختم فروج الناس وأفواههم على الأذان قبل الصبح، والثالث أن الخيال في البداية محتاج إليه لتضبط به المعارف العقلية ولا تضطرب، وأنت لا تجد شيئاً في الأجسام يشبه الخيال في هذه الصفات إلا الزجاجة فإنها في الأصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه من الانطفاء بالزجاج، وأما الثالث وهو القوة العقلية القوية على إدراك الماهيات الكلية والمعارف الإلهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح، وأما الرابع وهو القوة الفكرية فمن خاصيتها أنها تأخذ ماهية واحدة ثم تقسمها إلى قسمين كقولنا: الموجود إما واجب وإما ممكن، ثم تجعل كل قسم قسمين، وهكذا إلى أن تنتهي إلى ما لا يقبل القسمة، ثم تنتهي بالآخرة إلى نتائج هي ثمرتها، فبالحري أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة وإذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف وبيانها فبالحري أن لا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح بل بشجرة الزيتون خاصة لأن لب ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح وله من بين سائر الأدهان خاصة زيادة الإشراق وقلة الدخان، وإذا كانت الماشية التب يكثر درها ونسلها والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة

فالتي لا نهاية لمنفعتها وثمرتها أولى أن تسمى شجرة مباركة، وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الأجسام، فبالحري أن لا تكون شرقية ولا غربية، وأما الخامس وهو القوة القدسية النبوية فهي في نهاية الشرف والصفاء، فإن القوة الفكرية تنقسم إلى ما تحتاج إلى تعليم وإلى ما لا يحتاج إليه، ولا بد من وجود هذا القسم دفعاً للتسلسل فبالحري أن يعبر عن هذا القسم لكماله وصفاته بأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسه نار، فهذا المثال موافق لهذه الأقسام، وهذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض، فالحس هو الأول وهو كالمقدمة للخيال، والخيال كالمقدمة للعقل- انتهى كلام الغزالي رحمه الله تعالى عن نقل الأصفهاني في تفسيره عنه- والله أعلم.

ولما كان المعنى بناء على ما تقدم من صفة الروح الإلهي: فهديناك به، عطف عليه قوله تعالى: {وإنك لتهدي} أي تبين وترشد، وأكده لإنكارهم ذلك {إلى صراط} أي طريق واضح جداً، وإن عانيت في البيان مشقة بنفسك وبالوسائط بما أفادته التعدية ب «إلى» فيفهم من ذلك أنه يهدي للصراط بدون ذلك من العناية لمن يسر الله أمره ويهدي الصراط لمن هو أعظم توفيقاً من ذلك {مستقيم} أي شديد التقوم لأنه كأنه يريد أن يقوم نفسه فهو بعد وجود تقومه حافظ لها من أدنى خلل، وهو كل ما دعا إليه من خصال هذا الدين الحنيف الذي هو ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم أبدل منه تعظيماً لشأنه قوله بدل كل من كل معرفة من نكرة لافتاً القول من مظهر العظمة إلى أعظم منه إشارة إلى جلالة هذا الصراط بما فيه من مجامع الرحمة والنقمة ترغيباً وترهيباً: {صراط الله} أي الملك الأعظم الجامع

لصفات الكمال، ثم وصفه بأنه مالك لما افتتح هذا الكلام بأن له ملكه فقال: {الذي له} ملك {ما في السـماوات} أي هو جميع السـماوات التي هي في عرشـه والأرض لأنها في السماوات وما في ذلك من المعاني والأعيان {وما في الأرض}.

ولما أخبر سـبحانه أنه المخترع لجميع الأشـياء والمالك لعالمي الغيب والشـهادة والخلق والأمر وأنه المتفرد بالعظمة كلها، وكان مركوزاً في العقول مغروزاً في الفطر أن من ابتدأ شـيئاً وليس له كفوء قادر على إعادته وأن يكون مرجع أمره كله إليه، فلذلك كانت نتيجة جميع ما مضـى على سـبيل المناداة على المنكرين لذلك وعداً ووعيداً لأهل الطاعة والمعصـية بناء على ما تقديره: كيف يكون له ما ذكر على سـبيل الدوام ونحن نرى لغيره أشـياء كثيرة تضـاف إليه ويوقف تصـريفها والتصـرف فيها عليه: {ألا إلى الله} أي المحيط بجميع صـفات الكمال الذي تعالى عن مثل أو مدان وهو الكبير المتعالي، لا إلى أحد غيره {تصـير} أي على الدوام وإن كانت في الظاهر في ملك غيره بحيث يظن الجاهل أن ملكها مستقر له، قال أبو حيان: أخبر بالمضارع والمراد به الديمومة كقوله: زيد يعطي ويمنع أي من شأنه ذلك ولا يراد به حقيقة المسـتقبل: {الأمور} أي كلها من الخلق والأمر معنىً وحسـاً خفياً في الدنيا بما نصـب من الحكام وجعل بين الناس من الأسـباب، وجلياً فيما وراءها حيث قطع ذلك جميعه وحده العزيز الحكيم العلي العظيم، فقد رجع آخر السـورة على أولها، وانعطف مفصـلها على موصـلها، واتصـل من حيث كونـه في الوحي الهادي في أول الزخرف على أتم عادة لهذا الكتاب

المنير من اتصـــــال الخواتم فيـه بـالبوادي والروائح بـالغوادي- والله أعلم بالصواب.

End of Surah Shoora Next Surah zukhruf

http://www.al-eman.com/%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A8/%D9%86%D8%B8%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%B1%20%D9%81%D9%8A%20%D8%AA%D9%86%D8%A7%D8%B3%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%8A%D8%A7%D8%AA%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%88%D8%B1%20%20***/i376&n117&p1